جواهر التصوف

"من لم يزن أقواله وأفعاله في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعده في الرجال"

أبو حفص الحداد - رجل توفي سنة ٢٦٤ هـ

للعارف بالله تعالى الزاهد الواعظ

يحيى بن معاذ الرازي

المتوفى ٢٥٨هـ - ٨٧٢م

جمع وتبويب وشرح وتعليق

سعيد هارون عاشور

الناشر: مكتبة الآداب

الطبعة الأولى: [١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين.. وبعد:

فحكاية هذا الكتاب وبداية أمره كانت مع نفسي؛ فهي ككل النفوس تعشق الحكمة وتميل إليها؛ لأن الحكمة خلاصة تجارب وعصارة فكر، وتجمع في ألفاظها القليلة معانيَ جليلة، وهي «ضالة المؤمن» كما جاء فيما يرويه ابن ماجه والترمذي عن النبي ﷺ، وقيل: إن الحكمة جندٌ من جنود الله ينيرُ الطريقَ للسالكين بما يفيضُ عليهم من العلم ببواطن الأمور وأسرار الربوبية والفهم عن الله، فتقوى بذلك قلوبُهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة:٢٦٩].

ومن الحِكَم الدينية التي جذبتني إليها من عشرات السنين - بعد حكم ابن عطاء الله السكندري - حكم يحيى بن معاذ الرازي الزاهد الواعظ، وعباراته ومناجاته؛ ففكرت في جمعها، وخصصت لذلك كراسة.. وكنت كلما وقفت على عبارة من عباراته - أثناء مطالعاتي، سارعت بتسجيلها، وهكذا كانت البداية.. ثم جاءت المرحلة الثانية منذ سنة تقريباً بخاطر مُلحٍّ أن أقوم بالبحث عن حكم الشيخ في مظانها، وأن أستكمل جمعها ثم أتولى شرحها والتعليق عليها.. فشمرت عن قدم وساق - كما تقول العرب - وفي همة واهتمام قلّبت صفحات الكتب، كتب التراجم، والرجال، وكذا كتب الزهد والتصوف والأخلاق، وكانت أكثر من أربعين كتاباً، وبعون الله وبتيسير منه تحقق المراد، وصار في حوزتي من جواهر كلماته ما يربو على الثلثمائة. ونهضت لاستكمال المسيرة مع يقيني أن وراء الأكمة ما وراءها، وأنه ما زال هناك خبيء - من كلمات الشيخ - في بطون الكتب التي لم تصل إليها يدي، ولم يقع عليها بصري.. وقد تحقق صدق يقيني في أثناء شرحي لحكمه، كنت أعود إلى بعض الكتب لتساعدني في فهم بعض حكمه أو لتعينني في إيضاحها والتعليق عليها. فكنت أعثر على ضالتي من الحكم في صفحات هذه الكتب ومطاويها.

وفي مجال التعرف على شيخنا يحيى وجدت في كتاب الفهرست لابن النديم أن له كتاب «المريدين» فبحثت في اهتمام عنه قبل أن أشرع في إنشاء كتابي هذا، وخاصة أن اسمه يدل على أن له صلة وثيقة بحكَمه.. وذهبت محاولاتي في التنقيب عنه والوصول إليه أدراج الرياح.. بدأت بمحال بيع الكتب وَختمت بالسفارة الإيرانية؛ فالمؤلف فارسي الأصل، ولد وعاش ومات بها. وبينهما في رحلة البحث مررت بمكتبة الأزهر، ثم دار الكتب، ثم بقسم المكتبة الشرقية منها والتي وجّهني إليها أستاذ اللغات الشرقية بجامعة القاهرة، ثم دار المخطوطات، وكذلك معرض الكتاب العام الفائت سنة ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م... ولما أعياني البحث طويت عنه كشحاً وضربت عن ذكره

صفحاً، وقلت لنفسى معللاً: لعله من الكتب التى نقرأ أسماءها فى معاجم المؤلفين - وما أكثرها - ولا نراها، فهى إما فقدت أو أنها حبيسة فى خزائن الكتب الخاصة؛ فكَّ الله أسرها.

عودٌ إلى حكم يحيى بن معاذ الرازى أقول: إنها لا تَقِلُّ قيمةً عن حكم ابن عطاء الله السكندرى وإن كانت أقلَّ منها سَبْكاً وصياغةً، ولكنها من جانب آخر تفوقها من ناحية الكم وتنوع مراميها، ومما يزكيها أيضاً فضيلةُ السَّبْق؛ فيحيى بن معاذ من وَفَيات ٢٥٨هـ بينما كانت وفاة ابن عطاء الله السكندرى ٧٠٩هـ؛ أى بفارق أربعة قرون ونصف، فيها نما التصوفُ وكثرت رجالاتُه وعظُمت ذَخيرتُه من أقوالهم.

•• وكانت حكمُ يحيى بن معاذ الرازىَ نواةً وأساساً بَنيتُ عليه الكتاب الذى بين يديك أخى المسلم، وكان عملى فيه على النحو التالى :

• تبويب ما جمعتُه من حكم وأقوال للشيخ يحيى تبعاً لموضوعاتها حتى تتحقق فائدةٌ أفضل.

• شرح هذه الحكم والتعليق عليها حسب ما تيسَّر لى من فهمٍ لمقاصد الشيخ، وما أتيح لى من علم وبعض هذه العبارات لا يحتاج إلى تعليق، فرصدتُها بدون تعليق أو إيضاح، وأكثرها من المناجاة.

* اختلفت صياغةُ بعض الحكم - وهذا قليلٌ - من كتاب لآخر، شأن أقوال الرجال عندما يتداولها الناس على سبيل الحكاية والرواية، فنبهتُ على ذلك فى موضعه.

* قمتُ بترقيم هذه الحكم، ليس بهدف الإحصاء، ولكن دَعانى إلى هذا أن بعض هذه الحكم تستدعى مقاصدها أو بعض مفرداتها التكرار فى أكثر من باب، فاكتفيتُ بشرح الحكمة فى أول ورودها؛ وعند تكرارها بعد ذلك أَحَلْتُ إلى ما سبق من شرحها مع بيان الباب ورقم الحكمة؛ ليسهل على القارئ الكريم الوصولُ إلى الشرح إنْ أراد العَوْدَ إليها.

* آثرتُ أن تكون عباراتُ الشيخ ببنط كبير أسود تمييزاً لها، يتلوها الشرحُ والتعليقُ بالبنط الأصغر وبينهما جدول .

* حاولتُ جهدى أن أردَّ حكمه إلى أصلٍ من الدِّين : آية كريمة، حديث شريف، قول أو فعل لواحد من سلفنا الصالح، ولكنى لا أكثر من الشواهد؛ خوفَ الإطالة ومَلال القارئ، وكان شيخُنا يحيىَ رحمه الله تعالى يحرص أن تكون حكمه وعباراتُه موافقةً للدِّين إنْ لم يكن لها شاهدٌ من قرآن أو حديث؛ وهذا ما استنبطناه من قوله يُخاطب نَفْسَه :

مَـجِّـدْ إلهكَ يَـحْـيَـى إنَّهُ مَـلِكٌ ... مُـهَـيْـمِنٌ صَـمَـدٌ للذَّنْبِ غَـفَّـارُ
اشْكُرْ لَهُ حِكَمًا أتاكَـها مِنَنًا ... تَتْـرَى تُوافِـقُـها فى الدِّينِ آثارُ

• يبقى بخصوص الكتاب ما تم باسمه... كنت فى أول الأمر سمَّيْتُه «حكم ابن معاذ الرازى» ولم أكن راضياً عن هذه التسمية تماماً. فكنت أرغب فى أن يحتوى العنوانُ مضمون هذه الحكم من آداب وأخلاق ومجاهدة. وفكرتُ فى أن أضيف هذا إلى العنوان، واستشقلتُ الفكرة.. وجاء الحلُّ على يد الأستاذ/ أحمد على حسن مدير مكتبة الآداب الذى سأل عن اسم الكتاب بعد أن عَرفَ مضمونه، فاقترح أن يكون الاسم «جواهر التصوف»... وكان..

• التعريفُ بشيخنا الحكيم الواعظ الزاهد :

الاسم : يحيى بن معاذ بن جعفر الرازى، والرازى نسبة إلى الرَّىِّ[1] - وهو بلد قديم فى إيران - على غير قياس.

الكُنية : أبو زكريا.. فسيدنا يحيى النبى أبوه سيدنا زكريا النبى عليهما السلام، ومن هنا جاءت كُنْيَةُ شيخنا، كما نقول نحن لمن اسمه حسن: أبو على، نسبة إلى سيدنا الحسن ابن سيدنا علىٍّ رضى الله تعالى عنهما.

• أقوال العلماء فيه :

• قال عنه العماد الحنبلى فى شذراته : «يحيى حكيم زمانه، وواعظ عصره».

• قال ابن تغرى بردى فى نجومه الزاهرة : «كان أوْحَدَ وقْته فى علوم الحقائق» .

• قال الهجويرى فى كشفه: «لسانُ المَحبَّة والوفاء، وزين الطريقة والولاء.. كان عالى الحال، حسن السِّيرة؛ وكانت له فى حقيقة الرجاء فى الحق تعالى قَدَمٌ ثابتة».

• قال أبو نُعيْم فى حليته: «المادحُ الشكّار، القانع الصبَّار، الراجى الجآر : يحيى بن معاذ الرازى الواعظ الذكّار، لزم الحداد توقياً من العباد، واستلذَّ السُّهاد تحرياً للوداد، واحتمل الشداد توصلاً إلى الغناء» .

• قال عنه القشيرى فى رسالته: «نسيجُ وَحْده فى وقته، له لسان فى الرجاء خصوصاً، وكلام فى المعرفة. وله على حد قول الهجويرى: «له فى هذه المسائل تصانيفُ كثيرةٌ، ونكتٌ وإشاراتٌ بديعةٌ» .

• قال عنه الحصرى القيروانى فى زَهْره : «كان لِلّه تعالى رجلان يسميان يحيى: أحدهما من

---

(١) الرَّىُّ : مدينة تاريخية بإيران، فى الجنوب الشرقى لمدينة طهران، عُرفت بأسماء مختلفة على مر العصور القديمة منها: راغا، وارساكيا، وأزارى، ورام فيروز، وفُتحت مدينة الرى فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه، ولما تولى الخليفة العباسى الثالث: المهدى (١٥٨ - ١٦٩) أقام على أطلال مدينة مرو القديمة مدينة جديدة عُرفت باسم مرو، كما عرفت أيضاً باسم المحمودية، وقد أسرع إليها الخراب والدَّمار بسبب الفتن السياسية والدينية فى نهاية الدولة العباسية .

الأنبياء، والثانى من الأولياء؛ فأما يحيى بن زكريا عليه السلام فقد سلك طريق الخوف بحيث يئس كلُّ مدَّعيٍ الخوف من فلاحـهم، وأما يحيى بن معاذ فقد سلك طـريق الرجاء على نحوٍ مرَّغ أيدى أدعياء الرجاء فى التراب».

● نشأة شيخنا يحيى :

نشأ شـيخنا نشأةً طيبـةً فى بيت صلاح وتُقى، وكان له أخان: إسـماعيل أكبـر الثلاثة، وإبراهيم أصغرهم، ويحيى أوسطهم، وكلهم كانوا زهاداً، ولم تكن ليـحيى جاهليةٌ؛ بمعنى أنه لم يجهل فى شبابه، أو بمعنى أنه لم يكن غير مسلم فأسلم، ولم تجر عليـه كبيرة، وكان جاداً فى المعاملة ورياضة النفس، وكان لا يطيق أحدٌ من أصحابـ عبادته ولا زهده.. ويروى فى هذا حادثةٌ صغيرةٌ تدلُّ على ما كان يأخذ به نفسه فى الزهد والعبادة؛ فيروى: أن يحيى نظر إلى طاقات ريحـان وضعها بعضُ الصبيان فى حجـرته، وقد ذُبُلت فأتى يحيى بالماء يسقيها.. فسـأله رجل: ما تصنع وقد ذبلت؟ قال يحيى: رأيتُ هذا الريحـان ذابلاً، قد جفَّ بترك سَقْيِـه، فاعتصر قلبـى فسقيتُـه؛ لأن هاجت لى فيه عِبرة، وكأنى رأيته يستسقينى بذبوله خاضعاً.

وكان أبوه وأخـوه يدعوانه إلى التـخفـيف عن نفسه بعـضَ الشىء والإقبال على الدنـيا بعض الإقبال بما يحفظ عليه كيان جسمه، فانتهز أخوه إشفاقه على الزهر الذابل فأنشأ يقول لأخيه يحيى:

أتَرْحَـمُ أغْـــصـــانًا ذَبُلَـتْ ولانتْ ولا تَرْحـم أخـــاكَ إذا دَعـــاكـــا؟!!

فقال يحيى مجيباً له :

رأيـتُ أخى يُـريـدُ هَـلاكَ نَفْـــســى ونَـفْـــســى لا تُـريـدُ لَهُ هَـلاكـــا

ويبدو أن هذه الـواقعة كـانت بعد مـوت أخيه إبراهيم، وكـان قد خـرج مع شيخنا يـحيى إلى خراسان، وتوفى فى الطريق بين نيسابور وبلخ، ودفنه هناك .

● الشيخ يحيى فى طريق الله :

* أخـرج الخطيبُ فى جـزء له فى الزهد عن يحيى بن مـعاذ الرازى أنه قـال: «بدأ أمـرى فى سياحتى حيث خرجتُ من الرى، فوقع فى قلبى شأنُ المؤنة والنفقة، فتفكَّرتُ فى نفسى، فإذا هاتف فى قلبى: أخرِج ما فى الجيب يُعطيك مِن الغيب» (كشف الخفا – ح: ٦٤١) .

* وقد اختلف الناسُ بالنِّسـبة لشيخنا يحيى؛ هل هو زاهدٌ أم أنه صُوفىٌّ؟ فـقد عدَّه البعضُ من الزُّهاد، كمـا عده آخرون متـصوِّفاً، وحـقيقة الأمـر أنه بدأ زاَهداً وانتهى متـصوِّفاً مع تطور حـركة التقـشف فى القرن الثالث الهـجرى وظهور التـصوف كاسم ومنهج وسلوك؛ ويذكـر د. أبو الوفا التفتـازانى ملاحظة نيكلسون أن بعض متأخِّـرى الزهاد اقتربوا من التصـوف، ولكنهم لم يخرجوا

عن دائرة الزهد؛ إذ فى العصر المبكّر (يقصد القرنين الأول والثانى الهجريين) لا يستطيع أحدٌ أن يَفْصِل الزُّهد عن التصوف ويميز بينهما، بل إن كثيراً من المسلمين الذين أطلقوا على أنفسهم اسمَ الصوفية (حتى القرن الثالث الذى ظهرت فيه التفرقةُ بين الزهد والتصوف واضحةً جليةً) لم يكونوا فى الحقيقة إلَّا زُهاداً على حظٍّ قليلٍ جداً من التصوف [مدخل إلى التصوف الإسلامى: ٩٥].

• ويقول ابن خلدون فى مقدمته: «إن التصوف من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة (أى كعلْم) وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم، طريقةُ الحق والهداية، وأصلها العُكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزُّهْد فيما يقبل عليه الجمهورُ من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق فى الخَلْوة للعبادة، وكان ذلك عاماً فى الصَّحابة والسَّلف. فلما فشا الإقبال علَى الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناسُ إلى مخالطة الدنيا - اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة» [المقدمة جـ٣/ ١٠٦].

• فلقد اتسعت رقعة البلاد الإسلامية فى عهد الدولة العربية (أمويين ومروانيين ٤٠ - ١٣٢هـ) وامتلأت خزائن الدولة بالأموال وعمَّ الرخاء، وعاش الخلفاء الأمويون فى رفاهية ومَن بعدهم العباسيُّون، والناس على دين ملوكهم، مما جعل بعض الناس يفكِّرون فى العَوْدة إلى ما كَانت عليه حياةُ الصحابة، والعهد بهم قريب من حياة التقشُّف والزهد، وكان هذا ردَّ فعْل لما انتشر فى أيامهم من تجاوزات فى الرفاهية؛ حتى لتذكر لنا كتب السِّيَر أن أحدهم قدَّم على مائدته يوماً لضيوفه طبقاً من ألسنة الطيور!

• والزهد كان موجوداً عند الصحابة، كما أن التصوف العملى - وهو أخذُ النَّفْس بالشِّدَّة فى الالتزام بشرع الله، وسنَّة رسوله ﷺ، والاجتهاد فى العبادة - كان سلوكًا لكثير من الصحابة دون أن يعرفوا لفظة التصوف أو المتصوفة... وليس معنى تأخر ظهور اسم التصوف والمتصوِّفة بعد العصر الأول أنه بِدْعَةٌ كما يتشدق بذلك بعضُ المتفيقهين؛ وإلَّا كانت أسماء مؤسساتهم التى أقاموها، ولم تكن معروفة فى العصر الأول - بِدْعةً أيضاً، أمَّا كون الزهاد والعباد فى صدر الإسلام لم يكن لهم تسمية سوى «الصحابة»، فذلك لأنه لا أفضل من هذه التسمية، وكذلك تسمية مَن صَحِب الصحابة بالتابعين.. وهذه بالنسبة لهم نسبة شريفة أيضاً.

• أعلام فى حياة شيخنا يحيى بن معاذ :

• نبدأ هذا الموضوع برؤيا رآها؛ قال يحيى: «رأيتُ النبيَّ ﷺ فى النوم، فقلت له: أين أطلبك؟ قال: عند علم أبى حنيفة».. ولماذا علمُ أبى حنيفة دون غيره من الأئمة الأربعة؟ وقد انتشرت مذاهبُهم فى حياة شيخنا يحيى وقبل ذلك، فآخرهم وفاةً كان الإمام أحمد المتوفى ٢٤١هـ قبل

وفاة شيخنا بـ ١٧ عاماً؟!! والإجابة نجدها فى كلام الإمام أبى زهرة حيث يقول بصدد البلاد التى انتشر فيها المذهب الحنفي ومنها: «كان المذهب الحنفى فى العراق وما وراء النهر والبلاد التى فُتحت فى المشرق المذهبَ الرسمى (أى للدولة العباسية: ١٣٢ - ٦٥٦هـ) وكان مع ذلك مذهباً شعبياً، وإن نازعه فى بلاد التركستان وما وراء النهر المذهبُ الشافعى فى وسط الشعب» (تاريخ المذاهب الإسلامية: ٣٧). وفى هذه البلاد ولد شيخنا يحيى ونشأ وعاش ومات؛ ونضيف أن تلاميذ أبى حنيفة عملوا على تنمية مذهبه مبكراً؛ بالاستنباط والتخريج؛ فأصبح فيه متَّسَعٌ لكل أمر وإجابةٌ لكل مسألة.

● جرت بين شيخنا يحيى وبعض أعلام عصره مراسلاتٌ ومحاورات:

● منها رسالة الجُنيد رحمه الله تعالى إلى يحيى بن معاذ: «ثم أدْمَس شاهده فى دمس الاندماس، وأرمس مرْمسه فى غيب غافر الارتماس، وأخفى فى إخفائه عن إخفائه، ثم قطع النسبة إلى الإشارة إليه، وعن الإيماء بما تفرد له منه به» وعلّق السراج الطوسى فى لُمعه على هذه العبارة قائلاً: «وهذه إشارة إلى حقيقة التوحيد بذهاب الخلق فيما كان، كأن لم يكن» (٤٣٤/ اللمع). وأدمس: أخفى. الشاهد: ما يحضر القلب من أثر التجلى. دَمْس الاندماس: غاية الإخفاء. أرمس: دفن. المرمس: مكان القبر.

* ومنها رسالة أرسلها يحيى إلى أبى يزيد، كتب فيها: «سكرتُ من كثرة ما شربت من كأس محبته» فكتب إليه أبو يزيد «غيرك شرب بحور السماوات والأرض وما رُوى بعد، ولسانه خارجٌ ويقول: هل من مَزيد» هذه رواية القشيرى فى رسالته، وقد جاءت عند الهجويرى فى كشفه على النحو التالى: «ما تقول فى شخص يسكر بقطرة من بحرالمحبة؟» فكتب إليه أبو يزيد: «ما تقول فى شخص تصير كل بحار العالم شراب محبته، فيشربها جميعاً، ولايزال يصرخ من الظمأ؟». وقد علق الهجويرى معقباً بما معناه: لا يفهم أن يحيى عبّر عن السكر، والثانى عبر عن الصحو، بل العكس؛ فصاحب الصحو هو من لا طاقة له بقطرة، وصاحب السكر هو من يطلب المزيد.

* ومنه: أنه جرت مُحاورةٌ بين يحيى بن معاذ والحكيم الترمذى (توفى ٢٨٥هـ وهو أحد تلاميذ يحيى بن معاذ؛ انظر ٣٤ ، ٩٧/ ختم الأولياء) ونص ما جاء بخصوص المحاورة فى كتاب ختم الولاية ٣٣٨: «ورغم أنك (والكلام مُخاطَب به الحكيم الترمذى) ناظرتَ يحيى بن معاذ فى ذلك حتى بقى مُتحيِّراً» وموضوعُ المحاورة كان حول رأى الحكيم فى الولاية والمحبة والسَّعادة والشقاوة، ولم يأت ذكرٌ ليحيى فوق ما قاله عنه الرجل.. ولم نعرف هل كان تحير يحيى عن إعجاب أو استغراب.. ولذا أغفلنا ذكر رأى الحكيم الترمذى.

* وسمع شيخنا يحيى بن معاذ رحمه الله إسحاق بن سليمان الرازى، وبكر بن إبراهيم، وعنه الفقيه أبو نصر بن سلام، وأبو عثمان الحيرى الزاهد، وأبو العباس أحمد بن محمد المساسَرجَسى،

وعلى بن محمد القباني، ويحيى بن زكريا المقابرى، ومشايخ الريّ وهَمْدان وبَلْخ، ومرو. [تاريخ الإسلام للذهبى ١٦/ ٣٧٣ - ٣٧٥] .

● فكْرُ الشيخ :

● شَبَّ الشيخ فى بيت طيب، وانخرط فى الزهد مبكِّراً، ولبس الصوفَ والخُلقان (جمع الخَلَق: البالي من الثياب) فى ابتداء أمره، ولكنه عَدَل عن هذا الملبس الخشن؛ فكان فى آخر عمره يلبس الخَزَّ واللَّيِّن من الملابس (والخز هنا: ما ينسج من الصوف والحرير). وعن عبدالواحد بن محمد قال: «جاء يحيى بن معاذ إلى شيراز له شَيْبَةٌ حَسَنَةٌ وقد لبس دَست ثياب (أى طقم لباس) سود، فكان أحسن شيء» .

● وكان الشيخ - رحمه الله - من الصوفية الذين يفضلون الغنى على الفقر؛ فقد ذكره الهجويرى وسمَّى معه جماعة من أوائل الشيوخ ومن المتأخرين يفضلون الغنى على الفقر، وحجتهم فى ذلك أن الغنى صفة للحق تعالى، ولا يجوز عليه الفقر، والصفة التى تكون مشتركة - فى المحبة - بين العبد والله تعالى، أتمُّ من الصفة التى لا تجوز عليه تعالى وتَقَدَّس. وأسهب الهجويرى فى إبطال هذا الرأى ونقض حجة القائلين به (كشف المحجوب ٢١٧ - ٢٢٦ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) .

● وكان لشيخنا يحيى رأىٌ فى الكرامة، وهو أن إظهار الكرامة على الولى لا يكون إلَّا فى حال السُكْر، بخلاف معجزة الأنبياء، فتكون فى حال الصحو؛ لأنه يتحدى ويدعو الخلق إلى معارضتها؛ بينما يكون الولى فى سكره وهو مغلوبٌ لا طاقة له على الادِّعاء.. هذا رأيه .. ونختلف معه بخصوص ما جاء فى كرامة الولى؛ فإنه أحياناً يطلبها وتكون من فضل الله.. (راجع كتابنا: كرامات الصحابة) .

● ساهم شيخُنا يحيى - رحمه الله تعالى - فى الشعر الصوفى، الذى يُعَدُّ وسيلةً هامةً من وسائل تعبير الصوفية عن أحوالهم ومواجيدهم.. ويرى ماسينيون أن يحيى بن معاذ الرازى كان أول من أعلن حُبَّه لله فى شعْر صريح الأسلوب (دائرة المعارف الإسلامية - مادة تصوف).. ونقول معقبين على قوله: فَأينَ شعر رابعة العدوية التى توفيت قبل وفاة يحيى بحوالى ٧٣ سنة على أقل تقدير؟!.

● شيخنا يحيى والرجاء :

الرجاء: حالة يثمرها علم العبد بجريان الأسباب وثقته بأن الله الجَوَاد على الدوام، ورؤيةُ الله بعين الجمال.. جلس الحكيمُ الترمذى يصف لرجل شدةَ ندم الولى وهول ما يعانيه إذا ما سقط فى خطيئة، وكان وصفُه مؤلماً يَستدرُّ عطف العدو ويحولّه إلى شفيق.. فقال الرجل من هول ما سمع

للحكيم: إنك لَتَصِفُ أمْراً على غير سبيل ما أشار إليه يحيى بن معاذ رحمه الله.

قال الحكيم الترمذي: رحم الله يحيى بن معاذ؛ قد عرفتُ مكان يحيى من هذا الأمر؛ كان يحيى رجلاً من أولياء الله، ولكن الله عز وجل فتح له في الغيب من مُلك الجمال، ومُلكُ البهجة مقرون بمُلك الجمال؛ فكان إياه يلاحظ، وعنه ينطق، وكذلك الشيوخ الذين صحبهم.

واستطرد الحكيمُ الترمذي في موضوع الرجاء - ولا بأس من إيراد بعضه - قال: «وصاحبُ هذا المحل: الأُنسُ غالبٌ على قلبه، والمأنوس منبسط، ويخرجه انبساطه إلى الإدلال، فإنْ لم يعصمه الله ويؤيده سقط؛ لأن الجمال يذيبه فيفقده، والبهجة تجيش فترمي به؛ مَثله كمثل قدْر فيها كل شيء من الأطايب، ومن تحتها لهب النار . فإذا اشتد غليان القدر جاش بما فيها، فرمتَ بأطايبه ودسمه، وفي هذا المقال يسقم القول» انتهى [٤٠٣/ ختم الأولياء] وهكذا كان حال شيخنا يحيى ابن معاذ رحمه الله تعالى في عبارات رجائه.

• الشيخ خطيباً وواعظاً :

• قال الهجويري : «كان يحيى بن معاذ أولَ مَن اعتلى المِنْبَرَ بعد الخلفاء الراشدين من مشايخ هذه الطريقة، وأنا أحب كلامه جداً لأنه رقيقٌ في الطبع، ولذيذٌ في السَّمْع، ودقيق في الأصل (أي ما يستشهد به من حديث شريف، وأقوال السلف) ومفيد في العبارة» .

• وعن عبدالواحد بن محمد قال: «جاء يحيى بن معاذ إلى شيراز وله شَيْبةٌ حسنةٌ، وقد لبس دست ثياب سود؛ فكان أحسنَ شيء، فصعد المنبر واجتمع الخلقُ، فأول ما بدأ به أن قال:

مواعظُ الواعظ لن تُقْبَلا ... حَتَّى يَعِيها قَلْبُه أوَّلا

يا قومُ، مَنْ أظْلَمُ مِن واعِظ ... خالَفَ ما قَدْ قاله في المَلاَ

أظْهَرَ بَيْنَ النَّاسِ إحْسانَهُ ... وبارَزَ الرَّحمنَ لَمَّا خَلاَ

ثم وقع من الكرسي وغُشِي عليه، فلم يتكلم يومئذ، ثم إنه مَلَكَ قلوبَ أهل شيراز بَعْدُ؛ فكان إذا أراد أن يُضحكهم أضحكهم، وإذا أراد أن يُبكيهم أبكاهم، وأخذ من البلد سبعة آلاف دينار» .

• وخرج شيخنا يحيى مرة إلى خُرَاسَان (وخُرَاسَان اسم تاريخي يطلق على ما يعرف اليوم بصفة عامة بدولة أفغانستان) وكان خروجه إليها عندما تجمعت عليه في الرَّيِّ ديونٌ كثيرةٌ، فلما بلغ بَلْخَ (إحدى مدن خراسان) خرج إليه أهلُها وعزموا عليه في النزول عندهم ليعظهم ويُفيدوا منه، فتكلَّم هناك مدة، ونصحهم ووعظهم، وجمع له أهلُها ١٠٠ ألف درهم فضة، وفي رواية ٣٠ ألف، فدعا عليه بعضُ المشايخ قائلاً: لا باركَ الله له في هذا المال. فلما خرج يعود إلى نيسابور قطع عليه لصوصٌ الطريقَ وسلبوه ما معه، فجاء إلى نيسابور مجرداً، وبقي فيها حتى مات.

وتحكى حكاية طريفة تتصل بزيارته لبلخ: أراد أحمد بن خضرويه البَلْخِيُّ وهو من كبار المشايخ

أن يقيم ليحيى وليمةً ترحيباً به، فشاور امرأته فاطمة فيما ينبغي عمله من صنوف الطعام في الوليمة (وكانت فاطمة امرأة صالحة ومن صلاحها أنها سَعَتْ للاقتران بأحمد بن خضرويه؛ فقد أرسلتْ إليه قائلة: اطلبني من أبي، وكان أبوها أمير بلخ، ووافق الأبُ تبرُّكاً بالشيخ ابن خضرويه) ونعود للوليمة.. قالت فاطمة: يلزم كثيرٌ من البقر والخراف والحوائج والتوابل، وكثيرٌ من الشَّمْع والعطرِ، ومع كل هذا يلزم أيضاً ذبح عشرين حماراً، فسألها زوجها: ولماذا ذبح الحمير؟ قالت: حينَ ينزل كريم ضيفاً على بيت كريم، أما يجب أن تعرف كلابُ الحيِّ ذلك؟!

● وكان يحيى بن معاذ يعرف قيمةَ الكلمة الطيبة ولمنْ؟ ومتى تُقال؟ فقال- وقد قيل له يوماً: فلانٌ، لو وعظتَه؟ - فقال: قُفْلُ قلبه قد ضاع مفتاحُه؛ لا حيلة لنا فيه.

ويحيى بن معاذ هو القائل: «أحْسَنُ شيء كلامٌ صحيحٌ، من لسان فصيح، في وَجْه صبيح» (والصباحة هنا بمعنى النضرة التي تجول في وجوه الصالحين) «وكلامٌ رقيق دقيق يستخرجُ من بحر عميق، على لسان رجل رفيق». وهو القائل : «الكلامُ الحَسَنُ حَسَنٌ، وأحْسَنُ من الكلام مَعْناه، وأحسنُ من معناه: استعمالُه، وأحسنُ من استعماله: ثَوابُه، وأحسنُ من ثوابه: رضا مَن يُعمل له».

● شيخنا يحيى وتفسير الأحلام :

ذكر ابنُ الملقِّن في طبقات الأولياء له في ترجمة أبي تراب عسكر بن حصين النخشبي المتوفى ٢٤٥هـ : «روى عن أبي تراب قال: وقفتُ بعرفات خَمْساً وعشرين وقفَةً، فلما كان من قابل رأيتُ الناس بعرفات، ما رأيتُ أكثرَ منهم عدداً، ولا أكثرَ خشوعاً ودعاءً، فأعجبني ذلك، فقلتُ: اللهمَّ مَن لم تقبل حَجَّته من هذا الخلق فاجعل ثواب حجتي له. وأفضنا من عرفات وبتنا بجمع، فسمعت في المنام هاتفاً يهتف بي «تتسخَّى عليّ وأنا أسْخَى الأسْخياء؟! وعزَّتي وجلالي ما وقف أحدٌ هذا الموقف إلا غفرتُ له»، فانتبهتُ فَرِحاً بهذه الرؤيا؛ فرأيتُ يحيى بن معاذ الرازي، فقصصتُ عليه الرؤيا، فقال: إنْ صدقت رؤياك فإنك تعيش أربعين يَوْماً، فلما كان يوم أحد وأربعين جاءوا إلى يحيى، وقالوا: إنَّ أبا تراب مات، فغسَّله ودَفَنَه» (١).

● شيخنا وآل البيت :

أثناءَ وجود شيخنا يحيى ببلخ دخل على علويٌّ زائراً ومسلماً عليه، فقال له العلوي: أيَّدَ اللهُ الأستاذ، ما تقول فينا أهلَ البيت؟

قال يحيى: ما أقول في طين عُجن بماء الوحي، وغُرس بماء الرسالة، فهل يفوح منهما إلا مِسْكُ الهدى وعنبر التقى؟ فحشا العَلَوي فاه بالدر.

---

(١) وهذه القصة نُسبت أيضاً إلى أبي الحسن على بن الموفق ت ٢٦٥هـ دون ذكر ليحيى بن معاذ (انظر حلية أبي نعيم ١٠/ ٣١٢) وبخصوص موت أبي تراب نجد في الحلية ١٠/٤٩، روايتين: إحداهما أن موته كان في البادية، والثانية تؤكد أن السباع نهشته.

ثم قام العلوى فى اليوم التالى بردّ الزيارة، فقال يحـيى بن معاذ: إنْ زرتنا فبفضلك، وإن زرناك فلفضلك، فلك الفضلُ زائراً ومزُوراً[1] .

● شيخنا يحيى رضى الله عنه ورواية الحديث :

* ذكر أبو نعيم فى حليته ثلاثة أحاديث بإسناده ترفع إلى النبى ﷺ؛ وهى:

«لو أنكم توكَّلْتُم على الله حقَّ التوكُّلِ، لَرَزقكم كما يَرْزُقُ الطَّيرَ تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً».

«ما مِن غَنِىٍّ ولا فَقِيرٍ إلا يَوَدُّ يوم القيامة أنه أوتى من الدنيا قُوتاً» .

«ما مِن عبدٍ يُخلص العبادة لله أربعين يوماً، إلا ظهرت ينابيعُ الحِكْمَةِ مِن قَلْبه على لسانه» .

* كما ذكر أبو نعيم فى حليتـه حديثاً من قول التابعى سعيد بن جبيـر بإسناد يحيى: قال سعيد ابن جبير: «التَّوَكُّلُ على الله جِماعُ الإيمانِ» .

***

وذكَر ابن خَلِّكان فى وفَيَات الأعيان على لسـان أحد الرواة؛ قال: «قرأتُ على اللَّوْح فـى قبر يحيى بن مـعاذ الرازى: مات حكيمُ الزمـان يحيى بن معاذ الـرازى رحمه الله تعالى وبيَّض وجـهه وألحقه بنبيِّـه محمد ﷺ يوم الاثنين لستٍّ عشرة ليلةً خلت من جُمـادَى الأولى سنة ثمان وخمسين ومائتين (٢٥٨)» .

***

وفى ختام المقدمة :

أقول لشيخنا يحيى بن معاذ: ها هى جواهرُك قد جمعتُها بعد تَفرُّق دام أكْثَرَ من أحد عشر قرناً ونصف، وإن كان قـد تفلَّت منى بعضُـها فـعُذْرِى أنى بذلتُ جـهدى، هَذا أولاً؛ أمَّا ثانياً: فإنى يا شيخنا أستميحك عُذْراً إنْ كان استغلق علىّ فهمُ مـقاصدك من بعض عباراتك، ففهمتُها خلاف ما ترمى إليـه فضيـلتكم، فيـشفع لى أن شرحـى على قدر فـهمى، ثالثاً: أسـأل الله أن ينفعنى وسـائر المسلمين بما كتبتُ وأن يُجازيك كفاء ما قدمت .. والسلام

سعيد هارون عاشور

القاهرة فى غرة المحرَّم ١٤٢٣هـ

١٥ مـارس ٢٠٠٢م

---

(١) وينسب للإمام الشافعى فى هذا المعنى، أنه قال فى الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله تعالى عليهما :

قـالوا يَزُورُك أَحْـمَـدُ وتَـزُورُهُ ... قلتُ الفـضـائلُ مـا تَـعَـدَّتْ مَنْـزِلَهْ

إنْ زارَنى فَـبِـفَـضْـلِه أوْ زُرْتُـهُ ... فَلِفَـضْـلِه، فـالفَـضْلُ فـى الحـالـيْن لَه

الباب الأول

النية والإرادة

١ - قال شيخنا يحيى بن معاذ الرازى - رحمه الله:

الأبدانُ فى سجن النيات، والناس ثلاثة: رجلٌ تشاغلَ بالدنيا عن الله مذمومًا، ورجلٌ تشاغل بالآخرة محمودًا، ورجل تشاغل بالله عمّا دونه مُقَرَّبًا مرفوعًا». [الحلية: ١٠: ٥٢].

• النِّيَّة عمل القلب، وهى توجهه لفعل شىء بعينه، ومتى عزم القلبُ على إمضاء أمرٍ فتلك هى الإرادة، ويعرِّفها الراغب الأصفهانى بأنها فى الأصل: قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل، وجُعلت اسمًا لنزوع النفس إلى الشىء مع الحكم فيه بأنه ينبغى أن يُفعل أو لا يفعل.

• وإرادةُ العبد لربه - جلّ وعلا - هى أوَّلُ خطوة على طريق الفرار إلى الله، تبدأ بالرغبة، ثم العزيمة، ثم العلم الضرورى فيما يتصل بوحدانية الله وصفاته، وأنه ليس كمثله شىءٌ، ثم العلم بما تصح به العبادات والمعاملات، مما أجمع عليه علماء الأمة فى مسائل الفروع، ويتركهم وخلافهم، ثم يقوم فى كل أمرٍ لله بإرادة نفسه، حتى يسلمها لتدبيره.. ومن هنا قيل لمن حصر إرادته فى مراد واحد - هو مَحبَّة سيده وطاعته -: مُريد.

• ومتى خلصت نيةُ المريد، وصح عمله - تولته يدُ العناية بالتوفيق الإلهى، وتحول من كونه مُريدًا فصار مُرادًا؛ قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وقال أبو على الدقاق: «مَن زيَّن ظاهرهَ بالمجاهدة زيَّن الله سرائره بالمشاهدة».

• وهناك مُراد آخر، اجتباه الله، وأراده له، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].. هذان: المريد والمراد، الطالب والمطلوب، تلاقيا واجتمعا على وجهة واحدة فى طريق مستقيم، لا ترى فيه عوجًا ولا أمْتًا، ورحم الله القائل:

أَيُّهَا المُبْتَعِدُ عَنَّا ... إنَّ إبْعَادَكَ مِنَّا
لَوْ أَرِدْنَاكَ جَعَلْنَا ... كُلَّ مَا فِيكَ يُرِدْنَا

• الأبدان فى سجن النيات؛ فالنية كالسجان، والجوارح طوع أمرها تتحرك فى اتجاه ما تراه النيات، ولذا كان على النيات المعتمَد فى تقدير الجزاء، يقول الصادق المصدوق ﷺ: «إنما الأعمالُ بالنيات، ولكلِّ امرىء ما نوى».

• والناس ثلاثة: أولهم: مذمومٌ لإقباله على الدنيا وإهماله العاقبة، وهي خير منها؛ ولأن العاقبة محل اهتمام الثاني فهو محمود، أما الثالث: فلم تجذبه الدنيا بزيف بريقها، كما لم تكن العاقبة منتهى أمله، إنما كان اشتغاله بربه عما سواه، فكان جزاؤه القرب والدرجاتِ العلا.

* * *

٢- «ما صحَّتْ إرادةُ أحد قَطّ فمات، حتى حَنَّ إلى الموت واشتهاه اشتهاءَ الجائع إلى الطعام؛ لارتداف الآفات، واستيحاشه من الأهل والإخوان، ووقوعه فيما يتحير فيه صريحُ عقله». [وفيات الأعيان: ٦/ ١٦٧].

• الموت موتان: موت صورى، ويتم بمفارقة الروح للجسد، وهو صورى لأن الرُّوح تظل حيةً، وتعود يومًا للبدن يوم البعث. والموتُ الثانى: هو الموت المعنوى؛ وهو إرادى، ويتمثلُ فى ترك الشهواتِ. ومن الآثار «موتوا قبل أن تموتوا» وقال عنه الحافظ ابن حجر: هو غير ثابت، وقالَ القارى: هو من كلام الصوفية.

• ومتى صحت إرادة العبد لربه، وفرغ قلبه لمحبته، فمات؛ أى أمات شهواته الصارفة له عن طاعة ربه حتى اشتد شوقُه إلى لقائه على العيان والكشف فى دار السلام، والحديث :«مَن أَحَبَّ لقاءَ الله أحبَّ اللهُ لقاءَه، ومَن كَرِه لقاءَ الله كره الله لقاءه» متفق عليه؛ ومن دواعيه إلى هذا الشوق تَوالِى الآفاتِ عليه، ومنها دَسائسُ النَّفْس والفتن. ومَن صَحّت إرادته لربه استوى عنده إقبالُ الدنيا مع إدبارها، ولم يعد يُكدره إلا خَوْفُه من الإبعاد والحرمان، كما أنه استوحش من الأهل والخلاّن، وفَقَدَ الأُنسَ بهم، وصار غريبًا بينهم، واجتمعت عليه من أمور الحب ما تحَيَّرَ فى فهمها، ولذَا ازداد شوقُه إلى لقاء ربه، وأحسّ بالاغتراب فطلب الاقتراب، وهذا الصحابى الجليل حذيفةرضى الله تعالى عنه – عندما جاءه الموت قال : «حَبيبٌ جاء على فاقة، لا أفلحَ مَن ندم».

وقال الششترى مترجمًا عن لسان الحق:

إنْ تُرِدْ وَصْلَنا فمَوتُكَ شَرْطٌ لا يَنال الوِصالَ مَن فيه بقِيَّهْ

* * *

٣- مَن كان قلبُه مع الحسنات لم تضرهَّ السيئات، ومن كان مع السيئات لا تنفعهُ الحسنات.» [الحلية: ١٠/ ٥٣].

• مَن كان قلبُه عامرًا بالإيمان، مشغولاً بطاعة مولاه، حريصًا أن لا يراه حيث نهاه.. إنْ وقعت منه بعضُ السيئات لا تضره لأنها بالضرورة قليلة كما أنها لَمَمٌ، وهو غير مُصِرٍّ عليها، وقد تاب

منها، وقد يكون متأولاً فيها، وعموما لغلبة الطاعات فإنها مغفورة و«الحسنات يُذهبن السيئات» بخلاف مَن كان قلبه مع المعاصى.. فما تنفع طاعةٌ مع إصرار على المعصية ورغبة فى تكريرها.

* * *

٤- «طُوبَى لعبد أصبحت العبادةُ حِرْفَتَه، والفقرُ مُنْيته، والعُزْلَة شَهْوَتَه، والآخرة همتَّه، وطلبُ العيش بُلْغَتَه، وجعل الموتَ فكْرته، وشغل بالزهد نيته، وأمات بالذُّل عزَّته، وجعل إلى الربِّ حاجته، يَذكرُ فى الخلوات خطيئته، وأرسل على الوجد عَبْرَتَه، وشكى إلى الله غُرْبَتَه، وسأل بالتوبة رَحْمتَه، طُوبَى لمن كان ذلك صفته، وعلى الذنوب ندامته، وجَارَ الليل والنهار، وبكاء إلى الله بالأسحار، يناجى الرحمن، ويطلب الجِنان، ويخاف النِّيران!» [الحلية: ١٠/٥٨].

● جمع الشيخ فى هذه العبارة معظم فضائل الأعمال، وغبط من يتحلى بهذه الصفات، نسأل الله أن يحققنا بهذه الفضائل، إنه على ما يشاء قدير. وفى الأبواب التالية من الكتاب سنعرض لهذه الموضوعات إن شاء الله.

* * *

الباب الثانى

العِلْمُ

قال شيخنا يحيى بن معاذ - رحمه الله:

٥- «أيها المريدون طريقَ الآخرة والصدق، والطالبون أسبابَ العبادة والزهد، اعلموا: مَن لم يَحْسُنْ عَقْلُه لم يُحْسِنْ تَعبُّدَ ربِّه، مَن لم يعرف آفةَ العمل، لم يحسن أن يحترز منها، مَن لم تصحَّ عنايته فى طلبه الشيءَ، لم ينتفع به إذا وجده، واعلموا أنكم خُلقتم لأمرٍ عظيم، وخَطَرٍ جَسيمٍ، وأن العلم لم يُرَدْ ليُعْلَمَ، وإنما أُرِيدَ ليُعْلَمَ ويُعْمل به؛ لأن الثواب على العمَل بالعلم يقع، لا على العلم، ألا ترى أن العلم إذا لم يُعمل به عادَ وبالاً وحجَّة» [الحلية: ١٠/ ٥٥].

● اخترنا باب العلم لكى نُصَدِّر به هذا الكتاب بعد باب النية؛ لأن العمل المقبول يعتمد على النية والعمل بالعلم، واخترنا هذه الكلمة لتكون فى أوله؛ لاحتوائها على النية، وكان السَّلف الصالح رحمهم الله يبدءون مصنفاتهم بالحديث المشهور «إنما الأعمال بالنيات»، كما أنها جامعة فى احتياج العمل للعلم.

● مَن لم يَحْسُنْ عَقْلُه لم يُحْسِنْ تعبُّدَ ربِّه.. فالعقلُ أداةُ التفكير والتدبير، ومن ورائه الحَواسُّ تمده بالمعارف والمعلومات.. وقد جعلنا الله مَسْئُولينَ عن كل ذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].. ويتم تحسين العقل بإمداده بالعلوم والمعارف، وانطلاقه فى التفكير والتأمل.. وأشرف أنواع العلوم: العلمُ بالله، ومعرفةُ الله أولُ عبادته عز وجل، وأصلُ معرفته توحيدهُ القائم على نفى الصفات عنه بالكيف والحيث والأين، وقد جمعت ذلك الآيةُ الكريمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

والعلم بالله يتم بوسيلتين:

إحداهما: بالنظر فيما خلق اللهُ من أشياء، وإعمال العقل فيما يراه، وعَدّ ذلك من جوهر العبادة.. ويقول شاعرهم:

تَأَمَّلْ سُطُورَ الكائنَاتِ فإِنَّها ... من الملأ الأعْلَى إليْكَ رَسَائِلُ
لَقَدْ خُطَّ فيها لو تأَمَّلْتَ سَطْرَها ... ألا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللهَ بَاطِلُ

والثانية: معرفة أسماء الله وصفاته على يد معلم صالح.. ومن العلم الشريف الضرورى للمكلَّف: أن له ربًا متَّصفًا بكل كمال وجمال وجلال، ومنزهًا عن كل نقيصة.. وأن الله كلَّف عَبْدَهُ بطاعته حسب منهج أنزله فى كتابه الكريم، ووضحه بالقول السديد والفعل الرشيد رسولهُ المُعلِّمُ ﷺ.. ثم يأتى دَوْرُ المتابعة والمحاسبة للنفس على وفاء القلب والجوارح بهذه التكليفات، وقد قال بعض العارفين «كُلُّ عَمَلٍ بلا مُتابَعَةٍ فهو عَيْشُ النَّفْسِ» أى حظُّها.

● وللعمل آفاتٌ تبطله، إذا عرفها العبدُ جاهَدَ على تجنبها والاحتراز منها، كعدم الالتزام بشروط الصحة فى العمل، والعجب به، والرياء، وطلب السمعة، والإدلال به.. وكان الصحابى الجليل حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه يقول «كان الناسُ يسألون رسولَ الله ﷺ على الخير، وكنتُ أسأله عن الشرِّ مَخَافَةَ أن يُدْرِكَنى» [البخارى كتاب النبوة] .. ومَنْ لم يعط الطاعات حقها من شروط الصحة والآداب التى عنى الفقهاء بتحريرها - لا تقبل أعماله، ويُحْرَم رضا ربه، وما يعود عليه من خير فى أخراه ودينه ودنياه؛ وقال أبو قرة سمعت مالكاً يقول: «تعلموا من العالِم حتى لِبْس نعله».

● إنما خُلقتم لأمر عظيم.. وما هذا الأمر العظيم؟

خُلق الإنسان وأمامه ثلاث مهامٍّ يقوم على تنفيذها فى حدود شرع الله.. وهذه التكاليف هى:

أ- عبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]

ب- عمارة الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. ولا يتم تعميرُ الكون إلا بالعلم؛ معراج الرقى والتقدم.

جـ- الاستخلاف فى الأرض، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. أى كيف يكون سلوككم والتعامل بينكم؟ هل على شريعة الله التى أوصى بها النبيون من صِدق، وعَدْل وحِلْم، وعَفْو..إلخ، أم على خلاف ذلك؟ وهذا الاستخلاف يتطلب منا التشبه بما يمكنُ من صفات الله بقدر ما يستطيع البشر، والحديث: «تَخَلَّقوا بأخلاق الله»؛ والمشاركة فى الصفة لا توجب المماثلة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] ولا يتم هذا إلا عن طريق ترويض النفس حتى تلتزم بمنهج الله القويم.

***

٦- «مَنْ عَرَفَ نَفْسَه فَقَدْ عَرَفَ رَبَّه» [كشف الخفا: حديث ٢٥٣٢]

● اشتُهر هذا القول على الألسنة أنه حديثٌ شريفٌ، وقال النووى عنه فى فتاويه «ليس بثابت»

أى فى نسبته إلى رسول الله ﷺ، وقال ابن تيمية: «موضوع»، وقال الزركشى فى الدرر المنتثرة فى الأحاديث المشتهرة: «ذكر ابن السمعانى أنه من كلام يحيى بن معاذ».

● وقد تعرض بالتعليق على هذه العبارة الكثير من الأجلاء من علماء الأمة، نُورِد فيما يلى تعليقاتهم، بعضها بالنص وبعضها بالاختصار:

● قال النووى فى فتاويه :«معناه مَن عرف نفسه بالضَّعْف والافتقار إلى الله، والعُبودية له، عَرَفَ ربَّه بالقوة والربوبية والكمال المطلق والصفات العُلى».

● وقال ابن عطاء الله فى لطائف المنن :«سمعتُ شيخنا أبا العباسى المرسى يقول: فى هذا الحديث تأويلان: أحدهما: أنَّ مَن عرف نفسه بذُلّها وعَجْزها وفَقْرها، عرف الله بعزِّه وقُدْرته وغناه، فتكون معرفة النفس أولاً، ثم معرفة الله من بعد. والثانى: أن من عرف نفسه فقد دلّ ذلك منه على أنه عرف اللهَ من قبل. فالأول حالُ السالكين، والثانى حالُ المجذوبينَ». وقال ابن عربى رحمه الله تعالى :«من عرف حقيقة وجوده فاز من ربه بشهوده. وقال: مَن شاهدَ مظاهر الحق وصورها من ذاته، فقد انكشف له ما انطبع فى مرآته».

● وقال أبو طالب المكى فى قوت القلوب :«معناه إذا عرفتَ صفات نفسك فى معاملة الخَلْق، وأنك تكره الاعتراض عليك فى أفعالك وأن يُعاب عليك ما تصنعه، عرفتَ منها صفات خالقكَ وأنه يكره ذلك؛ فارْضَ بقضائه، وعامِله بما تحب أن تُعامَل به».

● وقال العزُّ بن عبد السلام :«قد ظهر لى من سرِّ هذا الحديث ما يجب كَشْفُه ويُستحسن وصفه؛ وهو أن الله سبحانه وتعالى وضع هذه الرُّوح الرُّوحانيةَ فى هذه الجُثة الجُثْمانيَّة لطيفة لاهُوتيَّة موضوعة فى كثيفة ناسوتيَّة دالة على وَحْدانيته وربَّانيته، ووجهُ الاستدلالَ بذلك من عشرة أوجه:

١- أن هذا الهيكل الإنسانى لما كان مفتقراً إلى مُدبِّر ومُحَرِّك، وهذه الروح مُدَبِّرةٌ ومُحَرِّكة؛ علمنا أن هذا العالم لا بد له من مدبر ومحرك.

٢- لما كان مدبرُ الهيكل واحداً، وهو الروح؛ علمنا أن مدبر هذا العالم واحد لا شريك له فى تدبيره وتقديره، ولا جائز أن يكون له شريكٌ فى ملكه.

٣- لما كان هذا الجسد لا يتحرك إلا بإرادة الروح وتحريكها له؛ علمنا أنه مُريدٌ لما هو كائن فى كونه، لا يتحرك متحرك بخير أو شر إلا بتقديره وإرادته وقضائه.

٤- لما كان لا يتحرك فى الجسد شىءٌ إلا بعلم الروح، وشعورها به ، لا يخفى على الروح من حركات الجسد وسكناته شَىْءٌ، علمنا أنه لا يعزُب عنه مثقالُ ذَرَّة فى الأرض ولا فى السماء.

٥- لما كان هذا الجسد لم يكن فيه شىء أقرب إلى الروح من شىء، علمنا أنه جل جلاله قريب

إلى كل شيء، ولا شيء أبعد إليه من شيء، لا بمعنى المسافة؛ لأنه مُنَزَّه عن ذلك.

٦- لما كان الروح موجوداً قبل وجود الجسد، ويكون موجوداً بعد عدم الجسد؛ علمنا أنه سبحانه وتعالى كان موجوداً قبل كوْن خلقه، ويكون موجوداً بعد فقد خلقه، ما زال ولا يزال وتقدس عن الزوال.

٧- لما كان الروح فى الجسد لا يُعرَف له كيفية؛ علمنا أنه مُقَدَّسٌ عن الكيفية.

٨- لما كان الروح فى الجسد لا يُعْلَم له أيْنيَّةٌ؛ علمنا أنه مُنَزَّه عن الأينية والكيفية، فلا يوصف بأيْن ولا كَيْف، بل الروح موجودة فى كل الجسد ما خلا منها شيء من الجسد، وكذلك الحقّ سبحانه وتعالى موجود فى كل مكان، ما خلا منه مكان، وتنزه عن المكان والزمان.

٩- لما كان الروحُ فى الجسد لا يُدْرَك بالبصر، ولا يُمَثَّل بالصُّوَر، علمنا أنه لا تدركه الأبصار ولا يمثَّل بالصور والآثار، ولا يشبَّه بالشموس والأقمار﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾.

١٠- لما كان الروح لا يُحَسُّ ولا يُمَسُّ؛ علمنا أنه منزه عن الحسِّ والجسْمِ، واللَّمْسِ والمَسِّ، فهذا معنى قوله «مَنْ عَرَفَ نَفْسَه عَرَفَ رَبَّهُ» فطوبى لمن عرَف، وبذنبه اعترَف.

● فى هذا الحديث تفسيرٌ آخر، وهو أنك تعرف أن صفات نفسك على الضد من صفات ربك، فمن عرف نفسه بالجفاء والخطأ عرف ربه بالوفاء والعطاء، ومن عرف نفسه كما هى، عرف ربه كما هو؛ واعلم أنه لا سبيل لك إلى معرفة إياك كما إياك؛ فكيف لك السبيلُ إلى معرفة إياه كما إياه، فكأنه فى قوله «من عرف نفسه عرف ربه»، علَّق المستحيلَ على مستحيل؛ لأنه مستحيل أن تعرف نفسك وكيفيتها وكميتها؛ فإنك إذا كنت لا تطيق بأن تصف نفسك التى هى بين جنبيك بكيفية وأيْنيَّة ولا بِسَجيَّةٍ ولا هَيْكَليَّة، ولا هى بمرئية؛ فكيف يليق بعبوديتك أن تصف الربوبية بكيف وأين؟!! وهو مقدَّس عن الكيفَ والأين، وفى ذلك أقول:

قل لِمَنْ يَفْهَمُ عنِّى ما أقول ... قَصِّرِ القَوْلَ فذا شَرحٌ يَطُول
هو سِرٌّ غامِضٌ مِن دُونِه ... ضُرِبَتْ والله أعناقُ الفُحول
أنتَ لا تعرف إياكَ ولا ... تَدْرِ مَن أنتَ ولا كَيْفَ الوصُول
لا ولا تَدْرِى صِفاتٍ رُكِّبَتْ ... فيكَ حارَتْ فى خَفَاياهَا العقُولُ
أيْنَ مِنكَ الرُّوحُ فى جَوْهرِها ... هَلْ تَراها فتَرى كَيْفَ تَجُول
هذه الأنْفاسُ هَلْ تحْصُرها ... لا ولا تَدْرى مَتَى مِنْكَ تَزُول
أين منك العَقْلُ والفَهْمُ إذا ... غَلَبَ النَّوْمُ فَقُلْ لى يا جَهُول
أنت أكلُ الخبْزِ لا تعرفه ... كيف يَجْرِى مِنْكَ أمْ كيف تبُول

فــــــإذا كـــــانت طَوَاياك التى بيـن جنبَـيْكَ كـذا فـيــهـا خـلول
كـيف تـدرى مَن عَلَى العَـرْشِ اسْـتَـوىَ لا تَقُلْ كـيـف اسـتـوى كـيـف النُّزول
كـــيف تجـلِّى الـله أم كـــيـف يُرى فلَـعَـــمْـــرِى لـيس ذا إلا فُـــضُـــول
وهـو لا كـــــــــيـف ولا أيْـن لـه وهو ربُّ الـكـيـف، والكَـيْفُ يَـحُـــول
وهو فَـــوْقَ الفَـــوْقِ، لا فَـــوْقَ له وهــو فــى كـل الـنــواحــى لا يَــزُول
جَلَّ ذاتًـا وصـــفـــاتٍ وسَــــمَـــا وتعـــالى قَـــدْرُهُ عَـــمَّـــا أَقُـــول

[الحاوى للفتاوى للسيوطى ٢/ ٢٣٨ وما بعدها]

* * *

٧- «ربُمَّا رأيتَ أحدهم يقول: عشرين سنةً أطلب ربى؛ وَيْحَكَ! ربُّكَ لا تجده على تضييع نَفْسك أبدا، اطلب نَفْسَك حتى تجدها، فإن وجَدْتَها فقد وجدتَ ربَّك» [الحلية : ١٠/].

● وجدانُ النفس، أى التزامها لشرع الله وتكون حركتها كلها له فى النوايا والأفعال والأقوال، وبذلك يجد اللهَ مُقْبلاً عليه.

* * *

٨- «سأل رجلٌ يحيى بن معاذ: أَخْبِرْنى عن الله. قال يحيى: إلهٌ واحدٌ.

الرجل: كيف هو؟ قال يحيى: مَلِكٌ قادرٌ.

الرجل: أين هو؟ قال يحيى: بالمِرْصاد.

الرجل: ليس عن هذا أسألك.

يحيى: فذاك صِفةُ المخلوق، أمَّا صفةُ الخالق فقد أَخْبرتُك.» [الحلية: ١٠/ ٦٠].

● يبدو أن السائل من المُشبِّهة المُجسِّمة، ولذا نرى ردود شيخنا يحيى قَصيرةً ومحددةً.

* * *

٩- «التوحيد فى كلمة واحدة: ما تَصَوَّرَ فى الأوهام فهو خلافُه» [الصفوة: ٤/ ٩٦]

● يحيط بالإنسان أشياء كثيرة لا يستطيع الادعاء بأنه يعرف سرها، حتى فى نفسه، فمثلاً إذا أراد أن يحرك ذراعه، حركه فى أى اتجاه شاءه بمجرد أن يخطر ذلك على فكره.. فكيف تتحرك ذراعه وهى قوة عضلية تلبية لإرادته، وهى مجرد خاطر؟.. لا يدرى. هذا الأمر ومثيله كثير لا يخطر على بال أغلب الناس.. ولكن الأمر مختلف بالنسبة لـلذات الإلهية، فكثيرا ما تسرح أوهام الخلق فيها، وهى أجل وأعظم من أن تدركها العقول أو تحيط بها الأفهام. قال تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

● ومن التوجيهات النبوية فى التحرز من هذا المنزلق الخطير:

«إن الشيطان يأتى أحدكم فيقول: من خلق السماء؟ فيقول الله، فيقول: من خلق الأرض؟ فيقول: الله، فيقول: من خلق الله؟! فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل: آمنتُ بالله ورسوله» وفى رواية لابن أبى الدنيا «فإن ذلك يذهب عنه» والحديث «تَفَكَّرُوا فى خلق الله، ولا تفكَّروا فى الله» والحديث«تفكروا فى آلاء الله، ولا تفكروا فى الله». فمتى طرأت هذه الأفكار على العقل يجب المسارعة إلى حسمها وعدم الاسترسال فيها وعليه أن يقول: آمنت بالله ورسوله ويتشهد ويستعيذ بالله من الشيطان، ثم يُحوِّل مسار فكره إلى تذكر نعم الله أو التفكر فيما يراه من عظيم أفعاله وآثاره، وفى هذا كفايةٌ ودليلاً على جلال ذاته وعظيم صفاته.

وقال العلامة القارئ فى أماليه:

نسمى اللهَ شيئا لا كالأشيا ... وذاتٍ عن جهاتِ السِّتِّ خالى

***

١٠- «من لم ينتفعْ بأفعالِ شيخِهِ لم ينتفعْ بأقوالِهِ»[طبقات الشعرانى: ١/ ١٨٢].

ملاحظةُ الفعل أثناءَ وقوعِهِ أبعدُ أثراً فى النفس، وأثبت فى الذاكرة من سماعِ القول، وذلك لانفرادِ البصرِ برؤية شىء بعينه فى وقت ما لا تستطيع معه رؤية شىء آخر فى غير جهته فى ذلك الوقتِ، بينما الأذنُ تتداخلُ فيها الأصواتُ، وقد تكون الأقوالُ كثيرةً فيُنْسى بعضُها بعضاً.. كما أن الحالَ أقوى من القال، ومن طابقَتْ أفعالُه أقوالَهُ كان صادقًا، وللصِّدْقِ قوةٌ رُوحيَّةٌ تترك فى النفوس أثراً لا ينمحى سواء بالقول أو بالفعل.. ومَن لم يكن باطنُه كظاهره خرجت كلماته باردةً باهتةً، نهايةُ مداها الآذانُ، ثم تروح فى طى النسيان.. وفى هذه حكاية طريفة..ذهب عَبْدٌ إلى شيخ أثيرٍ عند سيِّده، وسأله أن يُكلِّم سيده فى عتْقه لِلَّه، واستجاب الشيخ لرجاء العبد، ولكنه تخلَّف

عن مُفاتحة السيد عدة شهور، لم يملّ العبد خلالها استعجال الشيخ، والشيخ يَعِدُه ويستمهله، حتى كان يوم كلَّم فيه الشيخُ السيدَ فأعتق عبده فى الحال لخاطر الشيخ، ويسأل العبدُ - وقد صار حراً - الشيخَ عن سبب تأخره فى طلب عتقه من السيد.. فقال الشيخ: كان علىّ أن أُعْتِق قبل أن أطلب من غيرى العتق، ولم أكن أعتقتُ قبلاً، ولم يكن عندى عبيدٌ وتأخرتُ حتى اقتصدتُ مالاً، اشتريتُ به عبداً، وأعتقتُه فكلَّمتُ سيدك فاستجاب فى الحال.

• وقال بعضُ العارفين: «مَن لا يُزهدك لَحْظُه عن لفظه، لم يُغْنك وعظُه عن لفظه»، هذا من ناحية الشيخ المعلم.. أما من ناحية المتلقِّى، فما دام لم ينتفع بأفعال شيخه فمن باب أولى لا ينتفع بأقوال شيخه، فقد يكون بَليدَ الطبع غَليظَ القلب، أوْ لَمْ يَحِن وقتُ هدايته بعد.

***

١١- «مَن لم يَعتَبِرْ بالمعُاينَة لم يتَّعظْ بالمَوْعِظَة، ومَن اعتبرَ بالمعاينة استغنى عن الموعظة» [طبقات السلمى: ١٠/ ٥٣].

• هذه العبارة فى معنى العبارة السابقة.

***

١٢- «لا تَطلُب العلمَ رِياءً، ولا تَترُكْه حَياءً» [حلية الأولياء: ٢٧]. [تاريخ الإسلام: ١٦/ ٣٧٤].

• العلوم الشرعية وغير الشرعية ضروريةٌ للإنسان لتحقيق مهامه التى أوكلها اللهُ إليه وطَلَبها منه (سبق بيانها فى العبارة رقم ٥) كما أن «الحكمة ضالة المؤمن» رواه ابن ماجه والترمذى، ورواه القضاعى فى مسنده بلفظ «كلمة الحكمة ضالة كل حكيم فإنْ وجدها فهو أحقّ بها» وعليه فلا يستحى امرؤ مهما تقدم به العمر أو علت مَنزلتُه أن يطلب العلم ويسأل عن الصواب فيه، فلا حياءَ فى العلم، وروى الشيرازى فى الألقاب: «لا يستحى الشيخُ أنْ يجلسَ إلى جانب الغلام فيتعلمَ منه» (تنزيه الشريعة: ١/ ٢٧٤) وقال عروةُ بن الزبير رضى الله تعالى عنه لبنيه: تعلَّموا العلمَ، فإنكم إنْ تكونوا صغارَ قوم، فعسى أن تكونوا كبارَ آخرين، ما أقبح الجهل سيّما من شيخ. وقد أمرنا الحقُّ جلَّ جلاله أن نسأل الخبير فى بابه عن المعرفة ووجه الصواب: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]. وقال الفُضَيل ابن عِياض: «تَرْكُ العمل لأجْلِ الناس هو الرياءُ، والعملُ لأجل الناس شِرْكٌ». وروى البخارى عن مجاهد من قوله: «لا يتعلَّم العِلْمَ مُستحى ولا متُكبِّرٌ» [حديث ٣١٠٣: كشف الخفا].

• وطلبُ العلم ليباهى به العلماءَ ويمارى به السفهاءَ لا يُؤْجَرُ فاعلُه، والحديث «مَن تعلَّم عِلمًا

مما يُبتغَى به وجهُ الله، لا يتعلمه إلا ليُصيب به عَرَضًا من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة (أى ريحها) يوم القيامة» صحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي. وروى الترمذى :«مَن طلب العلم ليُجاريَ به العلماءَ أو ليُمارِى به السُّفهاءَ، أو ليَصْرِف به وجوهَ الناس إليه فهو فى النار» صحيح الجامع الصغير.

***

١٣- «العالمُ يَدْعو إلى عِمارة الدُّنيا مع العُقْبَى، والحَكيمُ يدعو إلى عمارة الآخِرة وخراب الدنيا، والعارف يدعو إلى نِسيان الدنيا مع العقبَى».

● لأن الدنيا مَزْرعةُ الآخرة، كما أنها مصدر لما نحيا به أجسادُنا، وتقوى به أبدانُنا على العبادة.. وأيضا لأن الآخرة مآلنا، لذلك دعانا العالم إلى تعمير الدنيا والآخرة.

● أما الحكيمُ فقد غلبت عليه نزعةُ الزُّهد فى الفانية؛ فهو يرى أن تعمير الباقية أَوْلَى، وما إليها المنتهى أبقى وأجمل وأصفى؛ فلا يجمل بالمرء أن يجعل الدنيا أكبرَ هَمِّه ولا مَبْلَغَ عِلْمه، إنما تكون الآخرة فى بؤرة اهتمامه، وشغله الشاغل، ومحط آماله.

● أما العارف فيدعو إلى نسيان الدنيا مع العُقْبَى، وذلك لأن قلبه مُعلَّقٌ بربه فقط، لا يشغل فكره سواه؛ فهو يعبد ربه لأنه يستحق العبادة لذاته، فلا يطلب العارفُ بعبادته عِوَضًا من أعراض الدنيا ولا من نعيم الآخرة.. لا يعبده رغبةً فى ثوابه، ولا خوفًا من عقابه.. بل هو على الرضا بما قدره الله له فى الدارَيْن، ومن أحسن ما قيل فى هذا :

أُحِبُّك لا لِى بل لأنك أهلُه ... وما لى فى شىءٍ سِواكَ مَطامِعُ

***

١٤- «العُلماءُ العامِلون أَرْأَفُ بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم» فقيل له: كيف ذلك؟

قال: «لأن آباءَهم وأمهاتهم يحفظونهم مِن نار الدنيا، والعلماء يحفظونهم مِن نار الآخرة وأهوالها» [طبقات الشعرانى: ١/ ١٨٢].

● الرأفه غايتها أمران: توفير الخير لمن يراد به الرحمةُ، وكذلك توضيحُ سبل الخير له، وترغيبُه فى سلوكها؛ والأمر الثانى: وقايته من أن يُصيبه الشرُّ، وكذلك تحذيره منه، وتبيان الطرق المؤدِّية إليه.

• وقد خاطب الله المؤمنين يُحذِّرهم النار، ويكلفهم حماية مَن في كنفهم منها، قال تعالي: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦].

إلا أن الكثيرينَ من الناس فى غمار توفير الكماليات لذويهم نسوا أن يُرْشدوهم إلى حق الله عليهم، وكذلك حقوق الآخرين، وفقدَ البيتُ وظيفته التربوية ودوره فى غرس الدِّين والمبادئ السامية وأصبح أشبه ما يكون بمراكز التسمين؛ تراهم يَخْشَوْن على أولادهم نزلات البرد ولا يخشون عليهم زمهرير جهنم، يُفزعهم ارتفاعُ درجة حرارة ولدهم ولا يُحذِّرونه لَفْحَ السَّعير غداً.. وحالُهم حال القطة التى تخشى على صغارها من عبث الأطفال فتأكلهم حماية لهم.. هل رأيت أغبى من هذا..؟!!

• والعلماء أشفقُ بالأمة من الآباء والأمهات بأولادهم، وذلك لأن العلماء ورثةُ النبى ﷺ، والنبىُّ أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم، عزيزٌ عليه ما يصيبهم من عَنَت، حَريصٌ عليهم رءوفٌ بهم رحيمٌ. والعلماء فى دعوتهم الناسَ إلى الالتزام بمنهج الله وسُنَّة رسوله، إنما يدعونهم إلى صلاح أمورهم فى الدنيا وإلى الفوز بجنات النعيم فى الآخرة: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤] وقال تعالى ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

***

١٥ - «العامَّةُ يَحْتاجونَ إلى أهل العلْم فى الجنة كما فى الدنيا» فقيل له: كيف ذلك؟

قال: «يقال للعامة فى الجنة: تمنَّوا، فلا يدرون ما يقولون؛ فيقولون: نرجع إلى أهل العلْم فنسألهم، فيكون ذلك تمام مكرُمة لأهل العلم». [طبقات الشعرانى: ١/ ١٨٣].

• حاجةُ الناس جميعًا إلى أهل العلم فى الدنيا معروفةٌ، فهم يُذكِّرونهم بربهم ويبصرونهم بأمور دينهم، ويُفْتُونهم فيما يَجدُّ فى الحياة من أمور حسب تعاقب العصور.. أما فى الآخرة - عند شيخنا يحيى - فإن العامة يحتاجون إليهم ليرشدوهم إلى ما يطلبونه من ربهم.. ويبدو أن شيخنا قد اعتمد فى عبارته هذه على حديث جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما- يرفعه، فيما رواه ابن عساكر والديلمى.. ونصه «أنَّ أَهْلَ الجنة لَيَحْتاجُونَ إلى العلماء فى الجنة، وذلك أنهم يزورون الله تعالى فى كل جمعة، فيقول لهم: تمنَّوا علىَّ ما شئتم، فيلتفتون إلى العلماء، فيقولون: ماذا نتمنَّى على ربنا؟ فيقولون: تمنَّوا عليه كذا وكذا، فهم يحتاجون إليهم فى الآخرة كما يحتاجون إليهم فى الدنيا» (قال الذهبى فى الميزان: هذا الحديث موضوع (تنزيه الشريعة ١/ ٢٧٦).

***

١٦- «تَمامُ المعرفة من ثلاث خِصالٍ: حُسْنِ القَبولِ، وتقليدِ العِلْمِ، وبَذْلِ النُّصحِ» [الحلية: ١٠/ ٦٨].

● وردت هذه العبارةُ هكذا فى حلية أبى نُعيْم ١٠/ ٦٨، وفى نفس المصدر ١٠/ ٥٤ بلفظ: «تمامُ المَغْفِرة فى ثلاث: حُسْنِ القبول، وتقليد العلم، وبذل الفضل» ثم. عقب المؤلف مع التجاوز عن الأخطاء المطبعية قائلا: «وتفسيرُ حُسْنِ القبول: أن تسمع بنية الاستفادة، وتنظر الإرادة، لا تهز رأسك كأنك عالمٌ بما تسمعه، فهذا يدخله فى الكبر ويفسد العمل». انتهى كلام أبى نعيم.

● وشيخُنا يحيى يريد أن يقول - والله أعلم - إن تمام المعرفة بالإقبال على المُعلِّم والإنْصاتِ له، ثم العمل بما حَصَّله مِن العِلْمِ، ثم بذلِ العلم للناس ووعظِهم به.

***

١٧- «أنا فى نَصْبِ المَنابرِ وتَعْبِيَةِ العَساكر، والناسُ لا يَعْلَمُون.» [الحلية: ١٠/ ٥٢].

● نصب المنابر: أى الخطابة وإلقاء العظات.

وتعبيةُ العساكر: أى حثُّ الناس على الجهاد فى سبيل الله.

● ويبدو أن واحداً من الناس اتهمه بأنه لا يَهتمُّ بالحياة العامَّة وقد شغل نفسه بالزهادة والعبادة، فكان عليه أن يزكى نفسه ببيان ما يقوم به على الحقيقة؛ حِرْصًا منه على الناس حتى لا يقعوا فى سُوءِ الظَّنِّ فيه بسببه.

***

الباب الثالث

الحكمة

قال الشيخ يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى:

١٨- «يُعْطَى العِلْمُ بالتَّعْلِيم، وتُعْطَى الحِكْمَةُ بحِفْظِ حُرُمَاتِ الصَّالِحِينَ».

● مفردات التعليم ثلاث: مُعلِّم، وطالبُ عِلم، ومَنْهَجٌ. وقد أجمع العلماء على أفضلية تلقِّى العلوم على يد مُعلِّم، وليس عن طريق القراءة وحدَها، خلافاً لـمنْ شَذَّ فيه، وذلك لاحتمال الغلط من تشابُه الحروف أو لأخطاء مطبعية لم يُنَبَّهْ عليها، أو لإدماج مقاطع الكلام، أو لقلة الخِبْرة بمفردات العَلم، أو لجهالة بمصْطلحاته.. والتثقيف الذاتى والقراءة الحُرَّة ضرورة لابد منها بعد بداية طيبة على يد معلم يوضح ما غمض؟ ويُصلح الخطأ، وييسر العبارة. وقالوا:

مَنْ يَأخُذُ العِلْمَ من شَيخْ مُشافَهةً ... يكُنْ عَنِ الزَّيغ والتصْحيف فى حَرَمَ

ومَن يكن آخذاً للعلم من صُحُفِ ... فعلمهُ عند أهل العِلْمِ كالعَدَمِ

● ما هى الحكمة؟ .. يعرفها الراغب الأصفهانى فى كتابه الذريعة، «بأنها اسم لكل علمٍ حَسَنٍ وعَمَلٍ صالحٍ؛ والحِكمةُ من الله: إظهار الفضائل المعقولة المحسوسة؛ ومن البَشَر: معرفة ذلك بقدر طاقاتهم..

وقيل: هى الاقتداءُ بالخالق فى السياسة بقدر طاقة البشر، وذلك بأن يجتهد أن يَنزِّه عمله عن الجهل، وعَدْلَه عن الجَوْر، و جُودَه عن البُخْلِ، وحِلْمَه عن السَّفَه.. وبنُمُوِّ هذا العَقْل يقترب العَبْدُ - إلى حد ما - من التشبه ببعض صفات ربه.. وهى غاية الحكمة. وقيل فى تعريفها من الناحية النظرية: هى معرفة الأشياء الموجودة بصفاتها الكلية، ومن الناحية العملية: هى إقامة الغرائز الإنسانية على ما يجب، ويحب ربنا جل جلاله.

● والحكمة على مراتب ثلاث:

١- حكمة تتولد من معاناة التجارب وإمعان النظر فيها.. وهى تفيد فى مصالح الدنيا.

٢- وحكمة تجىء من صفاء المعاملة مع الحق.. وهذه تدل على الآخرة.

٣- وحكمة تُعْطَى للمقرَّبين ولمنْ يحافظ على حرمات الصالحينَ .. وهذه تدل على الحق جل جلاله.

والثالثة أعلاها وأجلهـا.. ففى مجال الوهب يقول يحيى بن معـاذ: «مَنْ أَشْخَصَ بقَلْبه إلى الله انفـتحت ينابيع الحكمة من قلبه وجرت على لسانه..» وفى مـجال التلـقي عن الصالحين يكون بالقدوة أكثر مـا يكون بالتلقين، ويتم ذلك بحفظ حرمات الصالحين والتـأدب معهم، انظر إلى ما اشترطه نبي الـله موسى - عليه السلام - على نفـسه فى صحبتـه للرجل الصالح: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ [الكهف: ٦٩].. وعن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها - قالت: «أَمَرَنا رسـولُ الله ﷺ أن نُنَزِل الناسَ مَنَازلهم». وذكر الإمام الغـزالي - رحمه الله - فى رسالة له «الأدب والدين» فى آداب المتـعلم مع معلمه، قال: يَبدؤه السلامَ، ويُقلُّ بين يَدَيْه الكلامَ، ويقـوم له إذا قام، ولا يقـول قال فـلان ما قـلت، ولا يَسأل جليـسه فى مـجلسـه، ولا يبتـسم عند مُخاطَبَتـه، ولا يُشير عليه بخلاف رأيه، ولا يأخذ بثـوبه إذا قام، ولا يستفهمه عـن مسألة فى طريقه حتى يبلغ إلى منزله، ولا يكثر عليه عند مَلَله».

• وروى ابن عساكر عن على رضى الله تعالى عنه حديثاً يرفعه «إذا أَلِفَ القَلْبُ الإعراضَ عن الله تعالى ابتلاه الله بالوقيعة فى الصالحينَ» وقال المؤتمن الساجى: «لا أَصْلَ لهذا القول عن رسول الله ﷺ» (تنزيه الشريعة: ٢/ ٣١٧).

* * *

١٩- «الحِكْمَةُ جُنْدٌ من جُنود الله تعالى يُقَـوِّى بها قُلُوبَ أَوْليائه؛ ويقال إنَّ الكلامَ إذا خَـرج من القَلْبِ يَقَعُ فـى القلب، وإذا خـرج من اللسـانَ لم يتـجـاوز الأُذُنَيْنِ» [اللمع: ٣٦٨].

• هكذا وردت فى كتـاب اللمع للطوسى من غير فـاصل بين العبارتين، ولم أجدها فى غـيره، وبذلك أصبح من العسير الحكم بخصوص العبارة الثانية، وهل هى استرسال من ابن معاذ وتكملة للعبارة الأولى أو أنها من إيراد الطوسى تعقيبًـا على العبارة الأولى.. عموماً فى الحالتين لا بأس.. والحكمة جند من جنود الله ينيـر بها الطريق للسالكين بما يُفيض عليـهم من العلم ببواطن الأمور، وأسرار الربوبية، والفهم عن الله، فتقوى بهذا قلوبهم.. قال تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

* * *

٢٠- «العِبْرَةُ بالأَوْتاد، والمعتبَر بالمثقال» [طبقات السلمى: ٢٧]

• الأوتاد: الجبال.. قال تعالى: ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ: ٧].

● المثقال فى الموازين: وَزْنٌ مقداره درهم وثلاثة أسباع درهم.

● إجالةُ النظر فيما حَولنا من مظاهر الكون وفيما يدور حولنا من أمور لنا أو لغيرنا، واستخلاصُ العِبرة منها قليلٌ، يقابله أن ما يستحق النظرة المتأنية الفاحصة، ويستأهل التأمل الواعيِ - كثيرٌ، هذا رغم أن إعمال العقل فيما خلق الله من أشياء - إحدى وسيلتى المعرفة بالله جل جلاله، قال تعالى حاثًا الناسَ على استخلاص العِبْرة ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١] و﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [المؤمنون: ٢١] و﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ٢٦]. صدق الله العظيم.

وهذه العبارة جاءت فى الحلية بلفظ «الأوتار»، ولما لم يكن هناك مناسبة أو مقابلة بينها وبين المثقال فى كتب اللغة والمعاجم، تأكد لى أنها مُصحّفة، ورأيت أن أقرب لفظ لها كتابياً وأنسب فى المعنى حتى تستقيمَ العبارة هى (الأوتاد) بمعنى الجبال، وعسى أن أكون قد و فقت.

* * *

٢١- «مَن أَشْخَصَ بَقلْبه إلى الله انفتحتْ يَنابيعُ الحِكْمة مِن قلبه وجَرَتْ على لسانه» [الحلية: ١٠- ٥٢]

● هذه العبارة معنى لحديث رواه شيخنا يحيى بن معاذ بسنده عن محمد الطنافسى عن أبى معاوية عن حجاج بن مكحول؛ قال : قال رسول الله ﷺ: «ما من عَبد يُخلص العبادةَ لله أربعين يوماً، إلا وظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه». (حلية الأولياء ١٠/ ٧٠) وانظر «كشف الخفا الحديث ٢٣٦١». وقد رُوى عن سلْمان الفارسى رضى الله عنه قال: «إن العبد إذا زهد فى الدنيا استنار قلبُه بالحكمة، وتعاونت أعضاؤه فى العِبادة».

* * *

٢٢- «الحِكْمةُ تَهْوِى من السماء إلى القُلوب، فلا تسكن فى قلب فيه أربعُ خِصالٍ: الركونُ إلى الدنيا - هَمٌّ غَدٍ - حَسَدٌ - حُبُّ شَرَفٍ».

● أى إن الحكمة لا تجتمع لرجُل ركَن إلى الدنيا وصارت كلَّ هَمِّه، وشغل قلبه بهمٍّ غَدٍ وبات يفكر فيه، وتحرك قَلْبُه يَحْسُدُ كلَّ ذى نعمة حَوْله، وقد ملك عليه حب الظهور وعلو الصيتَ. وقال ابن عربى رحمه الله تعالى «مَنَ صَدَقَتْه سَرِيرتُه انفتحت بصيرتُه».

* * *

٢٣ - «أَعْظَمُ مُصيبة على الحكيم فى اليوم، أن يَمضِىَ عنه، ولايأتيَه فيه هديةٌ مِن ربه» [الحلية: ١٠/٥٣]

● هدية الحكيم التى ينتظرها كل يوم هى الحكمة، ويعُدّها دليلاً على رضا ربه عنه، واليوم الذى يمر ولا تأتيه حكمةٌ فيه يعد ذلك مصيبة؛ لأنه يعتبر حرمانه منها عَلامةَ سُخْط ربِّه عليه لمعصية ارتكبها أو لمخَالفة جناها، وهذا أشدُّ المصيبة.

* * *

٢٤ - «حكمة الجسم فى ترك نعيم الدنيا، وحكمة الرُّوح فى ترك نعيم العُقبى، وحكمة العقل فى احتمال أسرار الأولياء؛ فالحكمة الأولى للزاهدين، والثانية للصادقين، والثالثة للعارفين». [علم القلوب: ٣٦]

● أى لا يصح الجسم إلا بالاعتدال فى إجابة رغباته الأرضية فيصح - تبعًا لذلك - للقيام بأعباء العبودية، وهذه حكمة الزاهدين، فبالزهد تحلو كل العبادات.

● وإنشغال الرُّوح برب العقبى وطرح الاهتمام بها جانباً، فهو يعبد الله، لا لشىء سواه، بذلك تسمو الروح وترتقى وتعود إلى معدنها جولانية هوائية وهذه حكمة الصادقين مع ربهم.

● وحكمة العقل التى تزيد بها معارفه من العلوم والأسرار تتمثل فيما يتوجه به الولى من علوم إلى قلوب المريدين فتنطبع فيها. وهذه هى حكمة العارفين.

* * *

٢٥- «الناس كثير، والعلماء فى الناس قليل؛ والعلماء كثير والفقهاء فى العلماء قليل؛ والفقهاء كثير والحكماء فى الفقهاء قليل؛ وكلام العلماء يُبكى العيون، وكلام الحكماء يُبكى القلوب». [علم القلوب: ٣٥]

● ....

* * *

٢٦- «إن الحكيم يشبع من ثمار فيه» [صفة الصفوة ٤/٩٦]

● أى إن عمله الذى يتقوت منه هو ما تدره عليه بنات أفكاره - وهو من أعظم المهن - ونسبها

إلى فيه لأن ظاهر فمه مصدر كسبه، فهو واعظ.. ورأينا فى المقدمة أن شيخنا يحيى بن معاذ كان كلما تراكم عليه دين رحل إلى بلد مجاور يعظ الناس ويعود محملاً بالخير، رحمه الله، وقيل: العاقل إذا تكلم بكلمة أتبعها مثلاً، والأحمق إذا تكلم بكلمة أتبعها حَلِفًا.

* * *

٢٧- «من أحب زينة الدنيا والآخرة فلينظر فى العلم، ومن أحب أن يعرف الزهد فلينظر فى الحكمة، ومن أحب أن يعرف مكارم الأخلاق فلينظر فى فنون الآداب، ومن أحب أن يستوثق من أسباب المعاش فليكثر من الإخوان، ومن أحب أن لا يُؤذَى فلا يؤذِي، ومن أحب رفعة الدنيا والآخرة فعليه بالتقوى». [صفة الصفوة ٤/ ٩٧].

● ....

* * *

الباب الرابع

المَحَبَّةُ

٢٨- قال شيخنا يحيى بن معاذ - رحمه الله:

«حقيقةُ المحبَّة أنها لا تزيدُ بالبِرِّ ولا تنقصُ بالجفاء» [اللمع : ٢٧٩]

• المحبةُ من العبد لله تعالى: إرادةُ التقرب إلى الله وتعظيمُه.

المحبة من الله تعالى للعبد: أن يخصَّه بالقُرْبِ والأحوال العالية.

يقول الحكيم الترمذى فى كتابه «معرفة الأسرار»: «المحبَّة تكونُ من القلب، لا بمقتضى الشهوة، لا تَزيدُ بالبِرِّ ولا تَنْقُصُ بالجَفَاء؛ أما الهوَى من النَّفْسِ، يُغيِّره البِرُّ والجفاء. والعِشْقُ نهايةُ الهوى، وهما لا يجوزان لله تعالى، ولا من الله.

• محبة الناس لله تعالى على ثلاثة مستويات:

١- حب للإحسان المفاض عليهم فى الدنيا، والمأمول فى الآخرة . وهذا الإحسان من غير استحقاق منهم عليه جل جلاله، إنما هو مَحْضُ فَضْلٍ.

٢- حب للصفات التى صدر منها هذا الإحسانُ ، وهو أرقى من الحُبِّ الأول؛ لأن صاحبه ارتقى من النِّعْمة إلى المُنْعِم، ومن الأفعال إلى الصفات.. وهو حب خواص المؤمنين.

٣- حب الذات: يحبها العبد لكمال ذات الله وصفاته وقدسه وجلاله وعظمته، وهذا النوع من الحب هو ما قَصَده شيخُنا يحيى وعبَّر عنه فى عبارته عاليه.

• وهذه المحبة من علامات الإيمان.. والحديث الشريف: «ثلاث مَن كُنّ فيه وَجَد حلاوةَ الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولهُ أَحبَّ إليه ممّا سواهما، وأنْ يُحبَّ المرْءَ لا يُحبُّه إلا لله، وأن يَكْرَه أن يعود فى الكُفْر كما يكره أنْ يُقْذَفَ فى النَار» (البخارى كتاب الإيمان).

• سأل سفيان الثورىُّ رابعة العدوية يوما، فقال:

- لكل عبد شريطةٌ، ولكل إيمان حقيقةٌ، فما حقيقة إيمانك؟

- ما عبدتُ الله خَوْفًا من الله فأكون كأَمَة السُّوء، إنْ خافت عملت، ولا حبًا للجنة، فأكون كأمة السوء إنْ أُعطيتْ عملتْ، ولكنى عبدتُه حبًا له، وشوْقًا إليه.. ويُروَى عنها يرحمها الله فى هذا المعنى شعرًا:

أُحِبُّك حُبَّيْنِ: حُبَّ الهَوَى، وحُبًّا لأنَّك أهْلٌ لذاكا

فأمَّا الذى هو حبُّ الهَوى فشُغْلى بِذكْرِكَ عَمَّنْ سِواكا

وأمّا الذى أنت أهلٌ له فَكَشْفُكَ للحُجْبِ حَتَّى أرَاكا

فلا الحَمْدُ فى ذا ولا ذاكَ لى ولكنْ لَكَ الحَمْدُ فى ذا وذاكا

وقال الإمام الغزالىُّ معلِّقًا على كلامها هذا: «لعلَّها أرادت بحُبِّ الهوى: حُبَّ الله لإحسانه إليها، وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة؛ وبحبه لما هو أهل له: الحب لجماله وجلاله إذا انكشف لها.

● ويعلِّق الهجويرى على عبارة يحيى بن معاذ قائلاً: «لأن كلا هذين (الجفاء والعطاء) فى الحب سَبَبٌ، والأسباب تتلاشى فى حال وجود الأعيان، ويَطيب للحبيب بلاءُ الحبيب، والوفاءوالجفاءيتساويان فى تحقيق المحبة، وحين تحصل المحبة يكون الوفاء كالجفاء والجفاء كالوفاء» (كشف المحجوب ٢/ ٥٥٦).

ويُحكَى أنهم احتجزوا الشِّبْلىّ فى المارستان بتهمة الجنون، فجاءه جماعة لزيارته فسألهم: مَن أنتم؟ قالوا: أحباؤك، فرماهم بالحجارة ففروا من أمامه فقال لهم: كذبتم، لو كنتم أحبائى لما فررتم من بلائى.

● كيف نصل إلى محبة الله؟.. يقول معروفٌ الكرخى: «المحبةُ ليست من تعليم الخلق، إنما هى من مواهب الحق وفضله». وقال النصراباذى: «باتباع السُّنَّة وبأداء الفرائض تنال القربة، وبالمواظبة على النوافل تنال المحبة..» وقد أصاب الشيخان فيما قالاه، فكل خير يناله العبدُ فهو من فضل الله، كما أن النوافل سَبَبٌ لحصول محبة الله.. روى البخارى فى كتاب التواضع عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: قال الله تعالى: «مَن عادَى لى وليًا فقد آذنتُه بالحَرب، وما تقرَّب إلىَّ عَبْدى بشىء أحَبَّ إلىّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أُحبَّه، فإذا أحببَتُه كنتُ سَمْعَه الذى يسمع به، وبَصَرَهُ الذى يُبصر به، ويَدَه التى يبطش بها، ورجْله التى يمشى بها، وإنْ سألنى لأعطينَّه، ولئن استعاذَنى لأُعيذنَّه، وما ترددتُ عن شىء أنا فاعله ترددُّى عن نَفْسِ عبدى المؤمن، يكره الموتَ، وأنا أكره مَساءَته»..

* * *

٢٩- «لَوْ أنّ مُؤْمِنًا مات مِن حُبِّ مَلَكٍ أو نَبِىٍّ، لم يكن عجبًا منه ، فكيف من حُبِّ الله؟!».

● بعيداً عن حُبِّ الشَّهْوة، الحب يبعثه شيئان... فأنت قد تحب كاتبًا أو رسّامًا لموهبته وتميّز

إنتاجه، ولم تره، ولو رأيتَـه لا تعرفه، بل قد تحب بَطَلاً من أبطال التاريخ تفـصله عنك عدةُ قرون، ولكنه أسرك بمواقفه الإنسـانية قبل بطولاته الحربية.. والذى جمع قلبـكَ على حبِّه هو حُبُّك لذات الشخص.. وهناك حُبٌّ آخَـرُ يربط بين النَّفْس وبين مَن يُحْسن إليها، وعلى هذا جُبلت النفوس.. وتختلف درجـةُ الحب فى كلا الأمـرين، للمحبـوب لذاته، وللمحـبوب لإفضـالاته، حسب قيـمة الذات عند الأول، وحجم العطاء عند الثانى.

• والله جل جلاله ليس كـمثله شىء.. وعقـول البشر تقصـر - ولو اجتمـعت كلُّها - عن أن تحيط بكمـال الله وجماله وجلاله، كمـا يعجز الحاسـبون عن إحصاء نعَـمه وآلائه.. فالله إذن أَوْلَى بحُبِّ الخَلْقِ له عما سواه... ويعجب ابنُ القيم ممَّن يَعرفُ الله ويحب غَيرهَ، فيقول:

« من أعجب الأشياء أن تعـرفه ثم لا تُحبَّه، وأنْ تَسْمع داعيَه ثم تتـأخَّرَ عن الإجابة، وأن تعرف قَـدْرَ الربح فى معـاملته ثم تعـامل غـيره، وأن تعـرف قدر غـضبـه ثم تتعـرض له، وأن تذوقَ أَلَمَ الوَحْـشةِ فى مـعـصيتـه ثم لا تطلب الأنس بطاعتـه. وأن تذوق عصْـرة القلب عند الخَـوْضِ فى غيرحديثه والحديث عنه ثم لا تشتـاق إلى انشراح الصَّدْر بذكْره ومناجاته، وأن تذوق العذاب عند تعلُّق القلب بغيره، ولا تهـرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإجـابة إليه.. وأعجب من هذا علمُك أنك لابد لك منه، وأنك أحوجُ شىءٍ إليه، وأنت عنه مُعرِضٌ، وفيما يُبعدك عنه راغبٌ». (الفوائد : ٤٥).

* * *

٣٠ - «لَيْسَ مَن تاه فيه كمَنْ تاهَ بعجائبِ ما وردَ عليه منه»

٣١ - «العَيْشُ فى حُبِّه أَعْجَبُ مِن الَموْتِ فى حُبِّه». [طبقات السلمى: ٢٧]

• وَصْلاً بالعبارة السـابقة، إن الذى يُحبُّ الله لذاته غيرُ مَن يحبه لأُعطيـاته وفُيُوضاته مما يورده عليه من نعم؛ ومن الجـحود وسوء الأدب ، الوقـوف عند النعم دون السيـر إلى المنعم، وعلى قدر إيمان العبـد بربه يكون حبُّه له، فالناسُ متـفاوتون في محبة الله؛ يقـول تعالى فى وصف المؤمنين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] ممايَدلُّ على تفاوتهم فى الحب؛ لأن المعنى أشد فأشد.

* وأشدهم حبّا لله - كما فى القوت لأبى طالب المكى - أحسنُهم تخلقًا بأخلاقه، مثل العلم، والحلم، والعفو، وحـسن الخُلُق، والستر على الخَلْق، وأعـرفهم بمعانى صفاته، وأتركـهم منازعةً له فى معانى الصفـات، كى لا يُشركوه فيها، مثل الكبـر، والحمد، وحب المدح، وحب الغنَى، والعزِّ، وطلب الذِّكْرِ، ثم أشدهم حبّا لرسوله، إذ إنه حبيبُ الحبيب، وأتبعهم لآثاره.

* والعَيْشُ فى حُبِّ الله أَعْجَبُ لنَفْسِ المحب من الموت فى حبه؛ لما يرى فيه من حكمة الأفعال، وكذلك لما يرد من مشاهدات وفيوضات؛ وإن كانت هذه الواردات تزيد من إيمانه، ومن ثَمَّ من حبه لله، إلا أنها فى النهاية حظوظ نفس.

* * *

٣٢ - «لو رأت العقولُ بعيون الإيمان نُزْهَةَ الجنة لذابت النفوس شَوْقًا، ولو أدركت القلوبُ كُنْهَ هذه المحبة لخالقها، لانخلعت مفاصلُها إليه ولَهًا عليه، ولطارت الأورواحُ إليه من أبدانها دَهَشًا، فسبحان مَن أَغْفَل الخليقةَ عن كنه هذه الأشياء، وألهاهم بالوصف عن حقائق هذه الأشياء» [الحلية: ١٠/ ٥٣].

• فى مجال الترغيب صوّر اللهُ لنا الجنة و ما فيها من نعيم مقيم - من باب التقريب - بأشياء تقع تحت حواسِّنا وتميل إليها النفس وتشتهيها من أشجار وأنهار وثمار وقصور وحور، والفرق كبير فعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه من الحديث القدسى فيما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه جل وعلا: «أَعْدَدْتُ لعبادى الصالحينَ مالا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمعَتْ، ولا خطر على قَلْب بَشَر» (رواه أحمد والشيخان)، وإن كان هذا الحديث قد سَدَّ الباب أمام الخيال، إلا أنه أفسح المجالَ لتوقعات من الرفاهية لا يعلمها إلا الله، هذا غير تجلى الله لعباده فى الجنة يَرَوْنه كما يرون القمر ليلة البَدْرْ صَحْوًا ليس فيها سَحابٌ.. » أليس كلُّ ذلك مَدْعاةً لحب الله وطاعته..!؟

• ومن حديث أبى هريرة فيما يرويه الشيخان، قال رسول الله ﷺ: إن لله تبارك وتعالى ملائكةً سَيَّارة فُضْلاً، يبتغون مجالسَ الذِّكْر" فإذا وجدوا مجلسًا فيه ذِكْرٌ قعدوا معهم، وحَفَّ بعضُهم بَعْضًا بأجنحتهم حتى يَمْلَئُوا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا انصرفوا عَرَّجوا وصعدوا إلى السماء، قال: فيسألهم الله عز وجل وهو أَعْلَمُ بهم «من أين جئتم؟» فيقولون جئنا من عند عباد لك فى الأرض يُسبِّحونك ويُكبرُّونك ويُهلِّلونك ويَحْمَدُونك ويسألونك، قال: «وما يسألونى؟» قالوا: يسألونك جَنَّتكَ، قال: «هل رأوا جنتى؟» قالوا: لا، أى رب؛ قال «فكيف لو رأوا جنتى؟!» قالوا: ويستجيرونك، قال «مم يستجيرونى؟» قالوا: من نارك، قال: «هل رأوا نارى؟» قالوا: لا، قال: «فكيف لو رأوا نارى؟!» قالوا: ويستغفرونك قال: فيقول: «قد غفرتُ لهم وأعطيتُم ما سألوا، وأجرْتهم مما استجاروا» قال: يقولون: ربِّ، فيهم فلانٌ، عَبْدٌ خَطّاء، إنما مَرَّ فجلس معهم، قال: فيقول «وله غفرتُ، وهم القومُ لا يَشْقَى بهم جَليسُهم».

فسبحان مَن أغفل الخليقة عن كُنه الجنة والنار وألهاهم بالوصف عنها.

* * *

٣٣- «إلهى حُبُّكَ أعطشَ كَبِدى وأَوْحَشَنى مِن أهْلِى وولدى» [طبقات ابن الملقن: ٣٢٤]

● من المُستعار: أنا شديد العطش إلى لقائك، وبى عطشٌ إليك، والإنسان قد يصبر على الطعام أسابيع، ولكنه لا يستطيع أن يصبر على الماء أيامًا. وعبارة شيخنا تعبر عن شدَّة الشوق إلى لقاء الله، وأن هذا الشوق أفقده الأُنسَ بأهله وولده، وقال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه: «مَن ذاق شيئًا مِن خالِصِ محبة الله تعالى ألهاه ذلك عن كُلِّ ما سواه».

* * *

٣٤ - «إلهى، مَعْرِفتِى بِكَ دَلِيلٌ عَلَيْكَ، ومَحَبَّتِى لَكَ شَفِيعٌ إلَيكَ» [المختار ٢٣٨]

● هل المعرفة التى أشار إليها شيخُنا مَعْرِفةٌ خاصة تحققَ بها لما وجد فى قلبه من عَظَمَة ربه جلّ وعلا، أم أنها المعرفة العامة التى فطر الله الناسَ عليها حين أبدعهم، روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ «ما مِن مَوْلود إلا يُولَدُ على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه» ثم يقدم شيخُنا محبته لربنا مُستشفعًا بها رجاءَ القبول كحال الفتية الثلاثة أصحاب الغار الذين آووا إلى مغارة، فسقطت على مدخلها صخرةَ سدته، فتشفعوا بصالح أعمالهم، فتزحزحت الصخرة عن الباب ونجوا..

* * *

٣٥- «إذا أَحَبَّ اللهُ قَوْمًا جَذَبَ قُلوبَهم إليه»

● «لا حَرَجَ على فضلِ الله، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٢] مَن أحبَّ اللهَ فهو مُرِيدٌ، ومن أحبه اللهُ فهو مُرادٌ، والقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء، ومن هؤلاء المجتمعين من يتحرك قَلْبُه فَجْأةً نحو الله بلا سبب ظاهر، ومنهم من يُلقَى له بالسَّبب الموصل إلى حُبِّ الله، كما جاء فى قصة الفُضَيْل بن عياض - وهو غير القاضى عياض صاحب كتاب الشفا - كان الفضيل قاطعًا للطريق، وذات ليلة: بينما كان يَتسلَّق جداراً ليلتقى بجارية يعشقها - تناهى إلى سَمْعه صَوْتٌ بالآية الكريمة ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] فقال: يارب قد آن؛ ورجع فتاب وجاورَ بالحرم عابداً حتى مات.

● قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ

فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]. يقول الصاوى على الجلالين: «مَعْنَى مَحَبَّةِ الله لهم: إقامتُهم له فى خدمته مع الرضا والإنابة، ومعنى محبتهم لله: موالاة طاعته، وتقديمُ خدمتـه على كلِّ شيء؛ ولما كانت محبتهم لله ناشئةً عن محبة الله لهم، قال شاعرهم على لسان الحضرة العلية:

أيها المُعْرِضُ عَنّا ... إنَّ إعْراضَكَ مِنّا
لَوْ أرَدْناكَ جَعَلْنا ... كُلَّ ما فيكَ يردنا

● ويرى الحكيم الترمذى أن المجتبى هو المصطفى، وهو الذى فى أول أمره لم تذهب نَفَسُهُ بعد، بحيث تصلح لما أُعِدَّ لها من مرتبة، ويَتولَّى الله هذه النفس بالعَطايا، ويفيض عليها شيئاً فشيئا - على قدر ما تتحمله من أنوار العطاء الإلهى حتى يزال عنها الهوى، وحلاوة شهوات الدنيا، ثم يسكرها الله تعالى بحلاوة العطاء وحلاوة القربة. (٤٩ / معجم ألفاظ الصوفية).

علامة محبة الله للعبد

١- أن يتولى الله سياسة همومه، بحيث لا يَرِد عليه قاطع ولا شاغل، قاطع يقطع عنه ولاية الله له، و لا شاغل يشغله عن طاعة الله، عند ذلك تتوحد همومه فى هم واحد هو الحق جل جلاله، فلا تتخلف له همةٌ ولاتتراجع له إرادة، فتصير أخلاقه على السماحة، وجوارحه على الموافقة، تصرخ به وتستحثه بالزجر والتهديد، تسوقه فى طريق الله. والحديث الشريف «إذا أحب الله عبداً جعل له واعظًا من نفسه، وزاجراً من قلبه، يأمره وينهاه».

٢- لايكون شيء أحب إليه من أداء الفرائض والمحافظة عليها بمسارعة القلب والجوارح. والحديث القدسي «وما تقرب عبدى إلىَّ بشيء أحب إلىّ مما افترضت عليه».

٣- كثرة قيامه بالنوافل، والحديث القدسي «.. ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه».

٤- يقظة القلب وحضوره.. فمتى شمّرت النفس للقيام بالطاعات، وخلعت الشهوات، وجانبت الملذات..تولاها الله برعايته وكفايته وعنايته، وأذاق القلوب طعم محبته، ولذة دوام مناجاته، وبوأها محلاً نظرت فيه بلا عيان، وجالست بلا مشاهدة، وخوطبت بلا مشافهة.

٥- ومن علامات المحبوبين أيضًا اعتقادهم الرضا قبل وقوع القضاء، واستقلالهم لأعمالهم الكثيرة، واستكثارهم القليل من نعم الله عليهم.

عن (القصد والرجوع إلى الله) للمحاسبى، بتصرف.

* * *

٣٦- «قَلْبُ المُحبِّ يهيمُ بالطَّيران، وتَكْلمه لَدَغاتُ الشَّوْقِ والخَفَقَان» [الحلية: ١٠/٥٦].

● المَحبَّة والمَعرفةُ يتلازمان.. فمعرفةُ المُحبِّ بربِّه تجعله يزداد حبًا وشَوْقًا إلى لقائه، وهذه طبيعة مَن صَفت قُلوبُهم من البشر إذا سمعوا برجل عظيم سارعوا إلى لقائه والتعرف عليه - ولله المثلُ الأعلى سبحانه - .. وتَكْلمه أى تَجْرَحه، وهى هنا بمعنى: أن دواعىَ الشوق تَدُقُّ قَلْبَه بعُنْف إلى لقاء ربه.. والحديث القدسى فيما رواه البخارى وغيره. «إذا تقرَّب إلىّ العَبْدُ شبْرًا تقرَّبْتُ إليه ذراعًا، وإذا تقرب إلىّ ذراعًا تقربتُ منه باعًا، وإذا أتانى مَشْيًا أتيتُه هَرْوَلةً».

* * *

٣٧- «صِدْقُ المَحبَّة العَمَلُ بطاعة المُحْبوب»

٣٨- «عَلامة الشَّوْقِ فِطامُ الجَوارحِ عن الشَّهوات»

٣٩- «لَيْس بِصادقٍ مَن ادَّعَى حبَّه ولم يَحْفَظْ حَدَّه» [الحلية: ١٠/٦٧]

● مَحبةُ العبد لربه من عمل القلب، ويظهر أثر هذه المحبة فى حركة الجوارح وهى تَسْعَى فى إرضاء المحبوب، وصدقَ رسول الله ﷺ «ألا وإنَّ فى الجَسَد مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ صَلَح الجَسَدُ كُلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه، ألا وهى القَلْبُ» (البخارى كتاب الإيمان). وذلك باتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، وأنْ يحبَّ ما يحب المحبوبُ ويفعله، ويكره مايكره المحبوب ويجتنبه، وهذا ما عبَّر عنه الحديثُ الشريفُ: «لا يؤمنُ أحَدُكم حتى يكون هواه تَبَعًا لما جِئْتُ به» . وقال ابن القيم : «المحبة هى موافَقةُ المحبوب فى إرادته».(٢٠٥ / طريق الهجرتين).

● وقال ابن عربى رحمه الله: «المحبة تصحيح النسب، وثمرة المكتسب». وقالت رابعة العدوية رحمها الله :

تَعْصى الإلَهَ وأنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هذا لَعَمْرى فى القِياسِ بَديعُ
لو كانَ حُبُّك صادقًا لأطعْتَهُ ... إنَّ المُحبَّ لمَنْ يُحِبُّ مُطيعُ

● وفطامُ الجوارحِ عن الشهوات جمعها الحديث الشريف فيما رواه البخارى: «مَن يَضْمَن لى ما بَيْنَ لَحْيَيْه، وما بَيْنَ رِجْلَيْه أَضْمن له الجَنَّةَ» وفى المشارق ١/٣٥٦: لحييه: قيل لسانه وقيل بطنه..

أى مَن يحفظ لسانه عن اللَّغْوِ والغيبة والنَّميمة. «وهل يَكُبُّ الناسَ فى النار إلا حصائدُ أَلْسنتهم» والفَمُ بَوابَةُ البَطْن؛ فلا يدخل منه إلى الجوف حرامٌ، ويحفظ ما بين رجليه فلا يمس إلا ما يَحِلُّ له. ومتى يتقبل الطفل الفطام ويعرض عن ثدى أمه...؟ عندما يشتاق إلى حلاوة الطعام، ورحم الله البوصيرى إذ يقول فى تأديب نفسه:

مَن لى بَرَدِّ جِماحٍ مِن غَوايَتِها ... كما يُرَدُّ جِماحُ الخَيْلِ باللُّجُمِ
فلا تَرُمْ بالمعاصى كَسْرَ شَهْوَتِها ... إنَّ الطَّعامَ يُقَوِّى شَهْوةَ النَّهِمِ
والنفسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى ... حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ

* * *

٤٠ - «عَلَى قَدْرِ خَوْفِكَ من الله يَهابُكَ الخَلْقُ وعلى قدر حُبِّك لله يُحبُّك الخَلْقُ وعلى قدر شُغلِكَ بالله يَشْتَغِل فى أمرك الخَلْق» [طبقات السلمى: ٢٦]

• على قدر خوفك من الله يهابك الخلق، سيأتى بعد فى باب الخوف.

• على قدر حبك لله يحبك الخلق.. فالحُبُّ دَرَجاتٌ، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] يدل على تفاوت درجات المحبة. وقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] وما دام قد أحبهم ربهم فسيحبهم خلقُ ربهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] والحديث الصحيح: إذا أَحَبَّ اللهُ عبدًا نادَى يا جبريل: إن الله يُحِبُّ فلانًا فأحِبَّه، فيحبه جبريل، فينادى جبريلُ فى أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحِبُّوه، فيحبه أهلُ السماء، ثم يُوضَع له القبولُ فى الأرض» متفق عليه. وفى رواية الترمذى بزيادة «وإذا أبغض اللهُ عَبْدًا نادَى جبريل إنى أَبْغضتُ فلانًا، فينادى فى السماء، ثم تنزل له البَغْضاءُ فى الأرض» (صحيح الجامع الصغير).

• وعلى قدر شغلك بالله يشتغل فى أمرك الخَلْقُ.. فى سورة الكهف تقرأ ما قام به الرجل الصالح من ترميم جدار اليتيمين حتى لا يقع وهما صغيران فينكشف كَنْز لهما تحته، ولا يستطيعان لأطماع الناس دَفْعًا، وذلك رحمة من الله لأن أباهما كان صالحًا، ومثال آخر: نبى الله موسى يسقى أغنامَ فَتاتَىْ مَدْيَنَ، وكان أبوهما على أقوال - نبى الله شُعيبًا أو رجلاً صالحًا يُسّمى شُعيبًا أو يثرون.. قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

● ورحم الله الشاعر الحكيم:

ومَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ كما قالَ من أمْرِه مَخْرَجَا
ويرزُقْهُ مِن غَيْرِ حُسْبَانِه وإنْ ضاقَ أمْرٌ بِهِ فَرَجَا

* * *

٤١ - «إنَّ العَبْدَ على قَدْرِ حُبِّهِ لمولاه يُحَبِّبُه إلى خلقه، وعلى قدر توقيره لأمره يوقره خلقه، وعلى قدر التشاغل منه بأمره يُشْغل به خلقه، وعلى قَدْرِ سُكون قَلْبه على وَعْده يَطيب له عَيْشُه، وعلى قدر إدامته لطاعته يُحَلِّيها فى صَدْره، وعلى قدر لهجَته بِذكْره يُديمُ أَلْطافَ بِرِّه، وعلى قدر استيحاشه من خلقه يُؤْنسه بعطائه.

فلو لم يكن لابن آدم الثوابُ على عمله إلا ما عُجِّل له فى دنياه لكان كثيرًا، سوى ما يريد أن يصير إليه من جزيل جزائه وعظيم عطائه، ما لا يحيط به إحصاءٌ، ولا تبلغه مُنى؛ إذ كان يُعطِي على قدر ما هو أهله؛ إنه مَلِك كريم».

[الحلية: ١٠: ٥٩]

● على قدر حُبِّ العبد لله يوقره خَلْقُه، والوقار هنا هو السكون الكائن فى النفس عن الأمر الذى يبعث على التعظيم والتبجيل، والحديث الصحيح «أوصيك أن تستحى من الله تعالى كما تستحى من الرجل الصالح من قومك». ويتجلى توقير العبد لأمر الله فى دوام الالتزام بأوامره، واجتناب نَواهيه، مع الأخذ بالأوْلى احتياطًا للدِّين، والتسليم فى الأحكام؛ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. ومَن أحبَّه اللهُ أحبَّه الناسُ ووقَّروه، والجَزاءُ من جِنْسِ العمل. ويحكَى أن بشْرًا الحافىَ (ت ٢٢٧) رحمه الله كان يسير يومًا فوجد رُقْعةً على الأرض مَكتوبًا فيها اسمُ الله تَدوسُها الأقدامُ، فأخذها واشترى بدرهم معه طيبًا فطيَّبها، ثم جعلها فى شَقِّ حائط.. فرأى فيما يرى النائم كأن قائلاً يقول له، يا بشْر طَيَّبتَ اسمى لأُطَيِّبَنَّ اسمك فى الدنيا والآخرة..» وحتى الآن وبعد مضى اثنى عشر قرنا تقريبًا على وفاته، لا يُذكر اسمه إلا و يترحم عليه الناسُ ويذكرونه بالخير.. وهكذا حال الصالحين فى كل مكان وآن؛ لأنهم وقروا شعائر الله؛ فجعل الله لهم لِسانَ ذِكْرٍ فى الآخِرينَ..

* * *

٤٢ - سُئل يحيى بن معاذ - رحمه الله: ما علامة المحبة؟

قال: «إذا عرفَ قرَّ وإذا أوذى صبر، وإذا ابْتُلى سرى سير الدهر وكأن شيئاً لم يحدث، عروس القبر، شريفُ المحشَر» [علم القلوب: ٢٧١].

● من علامات محبة العبد لربه: إذا عرف قرّ؛ أى إذا رأى آثار قدرته جل جلاله - فى الأنفس والآفاق - هدأ واطمأن قَلْبُه.. وإذا آذاه الخَلْقُ صبر و لم يتململ وحمل ذلك على أنه قد يكون استيفاءً لذنوب سلفت أو لحكْمة لا يعلمها ، فيطهر ويرتقى، ويوم يموت تزفه الملائكة إلى القبر، ويحشر شريفًا. روى الشيخان والنسائى أن النبى ﷺ قال: «يُحشر الناس يوم القيامة على ثلاث طرائق، راغبين راهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير وعشرة على بعير، وتحشر بقيتهم النار، تَقيلُ معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصْبَحوا، وتُمسى معهم حيث أَمْسَوْا».

● يُحكى أن الشبلى لمّا أدخلوه المارستان ذهب إليه بعض أصدقائه لزيارته، فسألهم: أيش أنتم؟ فقالوا: نحن قومك نحبك، فرماهم بالحَصَى والحجارة، فهربوا من أمامه، فقال لهم: يا كذابون ، تدَّعون محبتِّى ولم تَصْبِروا على ضَرْبى!!.

* * *

٤٣ - «كم بين مَن يريد حُضورَ الوليمة للوليمة ، ومَن يريد حضورَ الوليمة ليلتقى بالحبيب فى الوليمة» [طبقات الشعرانى: ١/ ١٨٣]

● الناس فى عبادة ربهم ثلاثة:

١- قوم عبدوه رغبةً فى جنته.. وهذه عبادة التجار.

٢- وقوم عبدوه خوفًا من عذابه.. وهذه عبادة العبيد.

٣- وقوم عبدوه لذاته.. وهذه عبادة الأحرار، وهى أسمى أنواع العبادة.

● ومن شعر العابدة المشهورة بريحانة المجنونة:

أنْتَ أُنْسِى ومُنْيَتِى وسُرورِى ... قَدَ أَبَى القلْبُ أنْ يُحبَّ سِواكَ

يا حَبيبى ومنيتى واشْتياقى ... طالَ شَوْقى متى يكَون لِقاكَ

لَيسَ سُؤْلى عَنِ الجِنانِ نَعيمًا ... غَيْرَ أنّى أُريدُها لأراكَ

* روى مسلم عن صُهَيْب رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهلُ الجنة الجنة، يقول الله عز وجل «تريدون شيئًا أزيدكم؟» يقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنةَ

وتنجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعْطُوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم، ثم تلا هذه الآية: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦].

● وقال العارف الدمرداش رحمه الله:

لَيْسَ قَصْدِى من الجِنَانِ نَعِيمًا غَيْرَ أَنِّى أُرِيدُها لأَرَاكَ

* * *

٤٤- «طَبيبُ الحبيبِ حَبيبٌ هو أَرْأَفُ به من كُلِّ طَبيب.»

● قال أبو السفر «تابعى»: لما مرض أبو بكر عاده الناسُ، فقالوا له: ألا ندعو لك طبيبًا؟ قال: قد رآنى . قالوا: فأى شىء قال لك؟ قال: قال: إنى فَعَّالٌ لما أُرِيدُ.

● روى أحمد والبخارى عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال: «إذا مرض العبدُ أو سافَر كتب الله تعالى له من الأَجْرِ مثلَ ما كان يعمل صَحيحا مُقيمًا» . وروى ابن أبى شيبة عن عطاءبن يسار مُرْسَلاً: «إذا مَرِضَ العبد قال الله لِلكرام الكاتبين: اكتبوا لعبدى مثلَ الذى كان يعمل حتى أَقْبِضَه أو أعافيه».

● وعن شداد بن أوس رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال: قال تعالى: إذا ابتليتُ عَبدًا من عبادى مُؤْمنًا فحمدَنى وصبر على ما ابتليته، فإنه يقوم من مضجعه ذلك كيوم وَلَدته أمه من الخطايا، ويقول الرب عز وجل للحفظة: «إنى أنا قيدْتُ عبدى هذا وابتليتهُ، فأجروا له ما كنتم تُجْرُون له قبل ذلك من الأَجْر» [صحيح الجامع الصغير].

* * *

٤٥ - «يا ابْنَ آدَمَ إنكَ لا تَشْتاق إلى ربِّكَ إلا بالاستيحاش مِن خَلْقه» [الحلية: ١/ ٥٩]

● القلوبُ أَوْعيةٌ، وقلبك إن ملأتَه بمحبة الخلق لا يَبقى فيه مكانٌ لمحبة الخالق.. والله غَنِىٌّ عن الشُّركاء. ولا يُقصد بالاستيحاش البُعْدُ عنهم بالكلية؛ فهذا مُخالفٌ لقوانين الحياة، كما أنهم خَلْق الله.. ولكن المقصود هو عدمُ الاستئناس بهم إلى الحَدِّ الذى يَشْغَلُ عن الله ومحبته وطاعته.

وقال الشاعر:

ارْحَمْ بُنَىَّ جميعَ الخَلق كُلَّهمِ وانْظُرْ إليهمْ بعَيْنِ اللُّطف والشَّفَقَةْ
وَقِّرْ كَبِيرَهُمْ وارْحَمْ صَغِيرَهُم وراعِ فى كُلِّ خَلْقٍ حَقَّ مَنْ خَلَقَهْ

● لطيفة: قالوا إن السيدة مريم قبل أن تُرزَق بعيسى عليه السلام كان رزقُها يأتيها من عند ربها

دون أن تبذل في تحصيله جُهْدًا؛ فلما ولدت ابنها وانشغل قلبُها به أمرت أن تأخذ بالأسباب في تحصيل الرِّزْق: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].

وقال الشاعر في هذا المعنى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّه قَالَ لِمَرْيَمٍ ... إِلَيْكِ فَهُزِّي الجِذْعَ يَسَّاقَطِ الرُّطَبْ

ولَوْ شاءَ أحنى الجِذْعَ مِن غَيْرِ هَزِّهِ ... إِلَيْهَا، ولكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبْ

وقَدْ كانَ حُبُّ الله أَوْلَى برزقِها ... كمَا كان حُبُّ الخَلقِ أدْعَى إلى النَّصَبْ

حكى لنا القشيري عن شيخه أبي على الدقاق أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال له: يا رسول الله اعذرني، فإن حب الله شغَلني عن حبِّك. فقال له: يا مبارك، مَن أحبَّ الله فقد أحبَّني.

* * *

٤٦- «مَن ادَّعى حُبَّه فهو طالب، فإذا أحبَّه سكَتَ» [الحلية: ١٠/ ٥٩]

٤٧- «ما ولعَ المرِيدُ بذكْرِ شيءٍ إلا استفاد منه محبةَ ذلك الشيء».

يحث الإسلام على التخلق بالصفات الطيبة ونبذ الرذائل وإحلال الفضائل بدلاً منها، ويتم ذلك برياضة النفس على كل ما هو جميل من الأخلاق، فإن انصاعت النَّفسُ سلمت، وإلا شدد عليها بحرمانها من بعض لذائذها المشروعة حتى تستقيم على الجادّة.

والتخلُّق لغةً: هو تكلُّف أن يُظهر الرجل من خُلُقه خلافَ ما يَنطوي عليه، وليس القصد المراءاة؛ إنما القصد هو التطبع بهذه الأخلاق الفاضلة. روى عن ابن أبي مليكة «تابعي» قال: «جلسنا إلى عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما في الحِجْر، فقال : ابكوا، فإن لم تجدوا فتباكوا، ولو تعلمون العلم لصلَّى أحدكم حتى ينكسر ظهرُه، ولَبكى حتى ينقطع صوته» (الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ٢٣١، وقال: رواه الحاكم مرفوعًا، وقال صحيح على شرطهما).

• وتباكوا: أي كلِّفوا أنفُسكم البُكاءَ قَسْرًا وكراهة، وشيئًا فشيئًا يكون على الحقيقة من غير تصنُّع إذا ما خطر على نفوسهم هيبةُ الله أو عذابهُ أو ذُنوبٌ ارتكبوها.. وهذا التخلُّق ثقيلٌ على النَّفْسِ في أول الأمر ويحتاج إلى عَزْمٍ وإرادة في تكراره حتى يصير طبْعاً وعادةً، وإليك المثال التالي من الإيحاء الذاتي الذي اتبعه محمد بن سوار وكان من علماء القرن الثالث الهجري في تطبيع ابن اخته سهل ابن عبد الله التستري وسوْقه إلى طريق الله، قال له: يا سَهْلُ ألا تذكر الله الذي خَلَقَك؟!

سهل: فكيف أذكُره!!

خاله: قل عند تقلُّبك فى فراشك - ثلاث مرات - من غير أن تحرك به لسانك - الله معى، الله ناظر إلىّ، الله شاهدِى.

وانتظم سهل يقولها عدة ليال، ثم جاء خاله يُعْلمه بذلك، فقال له: يا سهلُ قُلْها كُلَّ ليلة إحدى عشرة مرة.. يقول سهل: فقلتُ كَما أَمَرَ، فوقع في قلبى حلاوةٌ، فلما كان بعد سنة قال لى خالى:

يا سهل مَن كان اللـه معه، وهو ناظرٌ إليه، وشاهده، يَعْـصيه؟! إياك يا سهل والمعـصية.. فكان ذلك أول أمر سهلِ بن عبد الله مع الله. ويقول الشاعر:

لا عُـضْـوَ لِى إلا وفـيــه صَبـابَةٌ ... فـكأنَّ أعْـضـائى خُلِقنَ قُلوبـا
خَطَراتُ ذِكْـرِى تَسْـتَـثِـيرُ مَـوَدَّتِى ... وأُحِسُّ مِنْهـا فـى الفُـؤادِ دَبِيـبـا

ويقول آخر:

فـتَـشَـبَّـهُـوا إنْ لـم تَكُونوا مِـثْـلَهُمْ ... إنَّ التَّـشَـبُّـهَ بالـرِّجـالِ فَـلاحُ

● والإكثارُ مـن ذِكْر الله يورث محبـة الله، والمُريد إذا ادعى محبة الله - فـى أول أمره - رجاءً وطلباً - رزقه الله من فـضله حبَّه.. وعندما يحبه يسكت عن دعـواه ويكتم ذلك لغلبة الحب عليه، وإيثاراً للستر، هذا وإنْ ظهرت عليه آثاره رغمًا عنه - طاعةً ورضا.. ويقول الشاعر:

لاتُـخْـدَعَنْ فَـلِلْمُـحِبِّ دَلائِـلُ ... ولَدَيْه مِن تُحَفِ الحَـبِيـبِ رَسَـائِلُ

وللقصيدة بقية ستجدها بعد قليل فى نهاية الباب.

● روى أبو نعيم والديلمى عن السيـدة عائشة رضى الله تعالى عنها، مرفوعـاً: «من أحب شيئاً أكثرَ من ذكـره» ويقول أبويزيد: أبْعَدُ الخلق من الله أكثرُهم إشـارة إلى الله؛ لأن العارف قد انقطع إلى الله وحصلَ مع الله (أى بروحه وعقله ونفسه) فكيف يشير إلى الله؟!

***

٤٨ - «من نشرَ المحبةَ عند غير أهلها: فهو فى دعواه دَعِىّ»

● عَدّ يحيى بن معاذ الكلام فى التوحيد وذكـر المحبوب من أغلى الكلمـات، وشبَّهـها بالدر والياقـوت، وفضلهمـا معروف على سائـر الأموال.. ولا ينبغى أن يُذكـر الشئ إلا عند من يعرف قدره، ومن يفعل خـلاف ذلك فهـو جاهل بقـدر ما تكلم فيـه، لأنه لو علمه وتيـقنه لضَنّ به على

غيرِ أهله حتى لا يفهمه على غير وجهه الصحيح؛ فيأثم لجهله بفحواه وما يرمى إليه، ولحديث «حدِّثوا الناسَ بما يعلمون، أتحبون أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسوله؟!» ورحم الله الإمام الشافعى، قال:

سأكتم علمى عن ذوى الجهل طاقتى ... ولا أنثرُ الدرَّ النفيس على الغنمْ

فمن منحَ الجهّالَ علمًا أضاعه ... ومَن منعَ المستوجبين فقد ظلَمْ

***

٤٩ - «حبُّكَ للحبيب يُذلُّك، وحبُّه لَكَ يُدلِّلُك» [تاريخ بغداد: ١٤/ ٢١١]

● قال تعالى : ﴿إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣] وقيام المرء بمخالفة نفسه فيما تهواه» والتخفيف من غلوائها وكبح جماح شهواتها حتى تنقاد ذليلة إلى سيدها، فإن ذلك يُورثها عزاً، ولا عزّ فى الحقيقة إلا فى طاعة الله، ولا ذُلَّ إلا فى معصيته.. أما ما تصبو إليه النَّفْسُ من عزٍّ عن غير طريق الله فهى واهمةٌ، وهو مَدْخل لدسائس خبيثة كالعجب والفخر والكبر، ينفث الشيطان فيها فتتورم ذاته ثم لا تلبث أن تلد الموبقات التى يزغرد لها الشيطان ملء شدقَيْه، أما مَن حَجَّم نفسه، وفر إلى ربه، وقد تخلَّص من شوائب النفس، وسعى إلى ربه متذلِّلاً له، ومُفتقراً إليه عزَّت نَفْسُه، وصارت قويّةً بالله ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقوله تعالى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] أى مَن كان يريد العزة لنفسه. - على قول - فإن العزة لله جميعاً، ينالها العَبْدُ منه بطاعته، واللَّجأ إليه، والوقوف ببابه؛ لما ورد فى الحديث: «مَن أرادَ عزَّ الدارَيْنِ فلْيُطع العزيز، ومَن طلب العزةَ من غيره كُسيَ مِن وصفه» أى كُسِي بالذُّلِّ لأنها صفة العبد، ووصفُ الله العزَّةُ، ومَن طلب العز عند غيره ذل؛ لما ورد «مَن استعزَّ بقومٍ أورثه اللهُ ذُلَّهم» (ح ٢٤٠٩ كشف الخفا)؛ وقال الشاعر الحكيم:

أذِلُّ لِمَنْ أَهْوَى لأكسبَ عِزَّةً ... وكم عِزَّةٍ نالها المَرْءُ بالذُّلِّ

إذا كان مَن تَهْوَى عزيزاً ولم تكن ... ذَليلا لَهُ فاقْرَ السَّلامَ على الوصل

وقال آخر:

وإذا تَذَلَّلَت الرِّقَابُ تَواضُعًا ... مِنّا إلَيْكَ فعِزُّها فى ذُلِّها

وقال ابن عربى رحمه الله تعالى: «محبته لك من أجل ظهوره بك بالصفات، ومحبتك له من قوام مرادك بالبركات».

* وُحبُّه لك يُدَلِّلُكَ.. ودلّله فى اللغة: بمعنى تَساهَل فى تربيته أو معاملته حتى جرؤ عليه، والتدليل بمعنى: أغدق عليه أيما إغداق.. وأى تدليل من الله لعبده فى الدنيا فوق أن تكون حركته بالله، يلبى رغباته.. يُحب ما يُحب ويكره ما يكره وغير هذا كثير، تأمل الحديث القدسى: «مَن آذى لى وليًا فقد آذَنْتُه بالحرب، ومَا تقرب إلىّ عبدى بشىء أحَبَّ إلىّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتُه كنتُ سَمْعَه الذى يسمع به، وبَصَره الذى يُبصر به، و يَدهَ التى يبطش بها، ورجْلَه التى يمشى بها، وإذا سألنى لأعطينّه، ولئن استعاذنى لأعيذَنَّه، وما ترددتُ عن شىء أنا فاعلُه ترددى عن نَفْسِ عبدى المؤمن، يكره الموتَ، وأنا أكره مَسَاءتَه».

* * *

٥٠ - «مثقالُ خَرْدلة من الحُبِّ أحبُّ إلىَّ مِن عبادةِ سبعينَ سَنةً بلا حُبٍّ.» [الرسالة القشيرية: ٢٥٢]

• فمَن أَحَبَّ الله لا يرجو من الله سوى الله - كانت عبادتُه أفضلَ بكثير ممن يَعبدُ الله طَمَعًا فى ثوابه أو خَوْفَ عِقابه، والكُلُّ على خَيْر.

* * *

٥١ - نظر يحيى بن معاذ يومًا إلى رجل معه ولدٌ صغير له، فقال: أتُحبُّه؟ قال الرجل: نعم، قال يحيى: هذا حبُّك له، فكيف بِحُبِّ اللَّه إذْ خَلَقه؟!. [الحلية: ١٠/ ٥٢]

• روى الشيخان عن عمر بن الخطاب، رضى الله تعالى عنه قال: «قُدم على النبى ﷺ بسَبْى، فإذا امرأةٌ من السَّبْىِ تسعى إذ وَجَدَتْ صبيًا فى السَّبْىِ، فألصقتْه بطنها وأرضعته. فقال النبى ﷺ. «أترون هذه طارحةً ولدها فى النار؟» قلنا: لا وهى تقدر على أن لا تطرحه؛ فقال النبى ﷺ: «اللهُ أرْحَمُ بعباده مِن هذه بولدها»؛ ولِلّه دَرُّ القائل:

لِمَ لا يُرجَى العفوُ من ربنا ... أم كيف لا نطمع فى حلمه
وفى الصحيحين أتى أنه ... بعبدِه أرأفُ من أمِّه

* * *

٥٢ - أنشد يحيى فى حقيقة المحبَّة:

لَم أُسْلم النَّفْسَ للأسْقام تُتْلفُها ... إلا لعلمى بأنَّ الوَصْلَ يَحْميها
نَفْسُ الُمجدِّ عَلَى الآلام صابرةٌ ... لَعَلَّ سقمها يَوْمًا يُداويها

[طبقات ابن الملقن ٣٢٦]

● إن إجهاد البَدَن وتَرْكَ الراحة فى طاعة الله ومرضاته يُعقبان راحةَ البال فى الدنيا والنعيم فى الآخرة؛ ففى بَذْل النَّفْس لمَرْضاة المحبوب عزُّها، وفى الوصل حياتُها. وقد تمثل بهذين البيتين الحَلاّجُ عندما قطعوا يديه وهم يُقدِّمونه للقَتْل سنة ٣٠٩هـ.

* * *

٥٣- ومن شعره فى المحبة:

نَفْسُ الُمحبِّ إلى الحبيب تَطَلَّعُ ... وفُؤادُه من حُبِّه يَتَقطَّعُ
عِزُّ الحبيب إذا خلا فى لَيله ... بحبيبه يشكو إليه ويَضْرَعُ
ويَقُومُ فى المحرابِ يَشكو بَثَّهُ ... والقَلْبُ منه إلى المَحبَّةِ يَنْزِعُ

[الحلية : ١٠/ ٦١]

* * *

٥٤- أمُوتُ بدائى لا أُصيبُ دَوائيا ... ولا فَرَجًا مِمّا أرَى من بَلائيا
يقولون:يَحْيَى جُنَّ من بَعْد صحَّة ... ولا يَعْلَمُ العُذّالُ ما فى حَشائيا
إذا كانَ داءُ المَرْءِ حُبَّ مَلِيكه ... فَمَنْ غيْرُهُ يرْجُو طَبيبًا مُداويا
مَعَ الله يَقْضِى دَهْرَهُ مُتلذِّذًا ... تُراه مُطيعًا أو كان عاصيا
ذَرُونى وشأنى لا تَزيدُونَ كُرْبَتى ... وخَلُّوا عِنانى نحو مَوْلَى المَواليا
ألا فاهْجُرونى وارغبوا فى قطيعتى ... ولا تكْشفُوا عَمّا يجن فؤاديا
كِلُونى إلى المَوْلَى وكُفُّوا مَلامَتِى ... لأَنسَ بالمَوْلَى على كُلِّ ما بِيا

[الحلية : ١٠/ ٦٢] و [اللمع: ٣٢٣]

٥٥- رَضيتُ بسَيِّدى عوَضًا وأُنسًا   منَ الأشْيـاء لا أبْغى سِواهُ
فيـاَ شَوْقًا إلى ملك يَرانى   عَلَى مـا كُنْتُ فيـه ولا أراهُ
خَلا يَسْتمْطِرُ النَّجْمَ العطايا   فيُعطى منه أكثر ما رَجاهُ

[الحلية : ١٠/ ٦٢]

* * *

٥٦- طَرَبُ الحبِّ على الحُبِّ   مع الحب يدومُ
عَجَبًا لمَنْ رأيناه   على الحب يَلومُ
حول حبِّ الله ما عشت   مع الشوق أحُومُ
وبه أقعد ما عِشْتُ   حياتى وأقومُ

[الحلية : ١٠/ ٦١]

* * *

٥٧- دعنى أدارى الحب من كل جانب   فليس لها من سبيل ومهرَبُ
وحمَّلتنى ما لا تطيق جوارحى   فسِرُّك فى الأحشاء منِّى مغيَّبُ

[طبقات ابن الملقن: ٣٢٦]

* * *

٥٨- حَسُنَ عبدٌ أحب مولاه   وحسن قلب يصيد معناه
طوبى لمن كان عاشقًا دَنِفًا   يشكو إلى ذى الجلال بَلْواه
يا ذا المعانى عليك معتمدى   طوبَى لمن كنتَ معناه

* * *

٥٩- ذَكر أبو طالب المكى فى القوت (٢/ ٦٣) أبياتًا عن أبى تراب النخشبى ت ٢٤٥ ثم أردفها بأبيات ليحيى بن معاذ. وكلُّها فى أوصاف المحبين، ولقد آثرنا آن نورد الأبيات التى للشيخين وذلك لوحدة الموضوع، كما يعد ما قاله يحيى تكملةً لما قاله أبو تراب:

لا تُخْدَعَنْ فللمحب دلائلُ ... ولَدَيْه من تُحَفِ الحبيب رَسائلُ
منْها تَنَعُّمُه بمُرِّ بَلائه ... وسُروره فى كُلِّ ما هُوَ فاعِلُ
فالمَنْعُ منْه عَطيّةٌ مَقْبولَةٌ ... والفَقْرُ إكْرامٌ ولُطْفٌ عاجِلُ
ومِنَ اللَّطائف أَنْ يُرى مِن عَزْمِه ... طَوْع الحبيب وإنْ أَلَحَّ العاذل
ومِنَ الدَّلائل أَنْ يُرَى مُتَبسِّماً ... والقَلْبُ فيه مِنَ الحبيب بَلابِلُ
ومن الدلائل أن يُرى مُتفهِّماً ... لكلامِ مَنْ يَحْظى لَدَيْه السّائلُ
ومن الدلائل أن يُرى مُتقشِّفا ... مُتحفِّظًا من كُلِّ ما هُوَ قائلُ

وقال أبو طالب المكى: والذى رُويناه عن يحيى بن معاذ:

ومِنَ الدَّلائل أن تَراهُ مُشَمِّراً ... فى خرقتين على شطوط الساحِلِ
ومن الدلائل حُزْنُهُ ونَحيبُه ... جَوْفَ الظَّلام فما لَهُ مِن عاذلِ
ومن الدلائل أن تراه مُسافِراً ... نَحْوَ الجهاد وكُلِّ فِعْلٍ فاضلِ
ومِن الدلائل زهْدُهُ فيما يَرَى ... مِن دَارِ ذُلٍّ والنَّعيم الزّائلِ
ومن الدلائل أن تراه باكِيًا ... أَنْ قَدْ رآه على قَبيحٍ فاعِلِ
ومن الدلائل أن تراه مُسَلِّمًا ... كُلَّ الأمور إلى المَليك العادلِ
ومن الدلائل أن تراه راضِيًا ... بمَليكه فى كل حُكم نازلِ
ومن الدلائل حِلْمُهُ بيْنَ الوَرَى ... والقَلْبُ مَحزونٌ كقلْبِ الثاكلِ

وقال أبو طالب المكى مُعقِّبًا: «والذى رويناه عن أبى سعيد الخراز دخل فيما ذكرناه عنهما، وأحسب أنه أخذ منهما لأنهما أَقْدَمُ منه، إلا أن قوله كان أحد عشر بيتًا فقط». انتهى

وكلُّ محب لله فعن مَحبة الله له؛ فوجودُ العبد لمحبته لله علامةٌ غيب تدل على محبة الله له..

* * *

الباب الخامس

الإخْلاصُ

قال يحيى بن معاذ رحمه الله:

٦٠- «اتقوا الله الذى إليه مَعادُكم، وانظروا ألاّ تكونوا ممَّن يَعرفهم جيرانُهم وإخوانُهم بالخير والإرادة، والزَّهادة، والعبادة، وحالُكم عند الله خلافُ ذلك؛ فإن الله إنما يجزيكم على ما يَعرف منكم، لا على ما يَعرفه النّاسُ عنكم» [الحلية:١٠/ ٥٥].

● يُعرِّف الراغب الأصبهانى الإخلاص: أنْ يَقصد الإنسانُ فيما يَفعله وَجْهَ الله تعالى، مُتعرياً عن الالتفات إلى غيره؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥]؛ ولقلَّة وجود ذلك قال تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦] أى شِرْك رياء، وإياه قصد النبى ﷺ يقول «الشِّرْكُ أَخْفَى فى أُمَّتى من دَبيبِ النَّمْل على الصَّفا فى الليلة الظَّلْماء» وقال رُوَيْم: «الإخلاصُ هو ارتفاعُ رؤيتك مِن الفِعْلِ» أى كأن لم تفعل شيئاً.

وقالوا: الخالصُ مِن الأعمال ما لم يَعلم به مَلَكٌ فيكتبه، ولا عَدُوٌّ فيُفْسده (أى الشيطان)، ولا النَّفْسُ فتعجب به.. ومعناه انقطاعُ العبد إلى الله عَزَّ وجل، والرجوع إليه من فعْله.

فالعبادة نيَّةٌ وعَمَلٌ وعليهما يكون الحِسابُ والجزاءُ، ولا تَخفى على الله خافيةٌ.

* * *

٦١- «لا تكونوا ممَّن يُولعُ بِصَلاح الظاهِر، الذى إنما هو للخَلْق، ولا ثَوابَ له، بل عليه العِقابُ؛ ويَدَعُ الباطِنَ الذى هو لله، وله الثَّوابُ، ولا عِقابَ عليه» [الحلية: ١٠/ ٥٥]

● روى مسلم وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه يرفعه: «إنَّ الله تعالى لا يَنْظر إلى صُوَرِكم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» صدق رسول الله ﷺ؛ فالحساب على

العمل والنية.. والعمل له شُروط صِحَّة عُنِي الفقهاءُ باستنباطها لكل عبادة. والنية لابد أن تكون خالصةً لله وحده.

* * *

٦٢- «رؤيةُ الناس بساطُ الرِّياء.» [سراج الطالبين: ١/ ٢٣٢].

• الرِّياءُ: طَلَبُ المنزلة فى قلوب الناس بإيرائهم خِصالَ الخير والعبادة، فيظنون به خيراً ويُكرمونه من أجل ذلك بالفعل أو بحُسْنِ الأحْدوثة.

ولا يَلجأ العبدُ إلى إظهار عبادته بقصد طلب المنزلة عند الخَلْق إلا إذا كان فى غَفْلة عن الخالق وعَمَاية عنه؛ فهو لم يَر الله، ولكنه رأى الناسَ فعمل لهم، ونَسىَ أن الله يَراه والأمر كله بيده.

• الرِّياءُ؛ هو الشِّرْكُ الأصْغَرُ، يقول رسول الله ﷺ: «إنَّ أخوَف ما أخافُ عليكم الشِّرْكُ الأصْغَرُ: الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناسَ بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُراءون فى الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً» [صحيح الجامع الصغير] وروى مسلم من الحديث القدسي: «أنا أغنَى الشُّركاء عن الشِّرْك، مَن عَمِل عَملاً أشْرَكَ فيه مَعِى غَيْرِى، تركتُه وشِرْكَه».

• إن كان ثَمرَةَ الإسرار فى العمل الإخلاصُ والنجاةُ من الرياء؛ ففى إظهار العمل وَقْتَ فعْله، أو التحدث به بَعْدَ وقوعه خيْرٌ إنْ صدقت النيَّةُ وبقصد الاقتداء والترغيب فى الخير، قال تعالَى: ﴿إن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١]. ويقول الرسول الكريم ﷺ : «الدالُّ على الخَيْرِ كفاعله».

• وإذا كان الرجلُ معتاداً على وِرْد، والوِرْدُ ما يُرتِّبه الشخص على نفسه من صلاة أو ذكْر أو قراءة قرآن أو نظام فى عبادته كإطالة السجود أو الركوع مثلاً.. فإذا اجتمع بالنَّاس تَرك ذلك، خَوْفاً أن يكون مُرائياً بعمله، أو خَشْيَةَ أن يظن الناسُ فيه أنه مُراء.. فهذا كله من دَسائس الشيطان يريد أن يجره إلى البَطَالة مع ربه، وقال الفضيل بن عياض: تَرْكُ العمل لأجل النَاس هو الرِّياءُ، والعَمَلُ لأجل الناس شِرْكٌ».

• ومن صحيح ابن حبان أن النبى ﷺ قال: الشِّرْكُ فى هذه الأمة أخْفَى من دَبيب النَّمل» فقال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه: فكيف الخَلاصُ منه يا رسول الله؟ قال: أن تقول: اللَّهُمَّ إنى أعوذ بك أن أُشْرِكَ بِكَ وأنا أَعْلَمُ، وأستغفِرُكَ لما لا أعْلَمُ»... وهذا استغفار مما يعلمه الله أنه ذنب، ولا يعلمه العبد أنه ذنب.

وروى الشيخان أن النبى ﷺ كان يدعو فى صلاته: «اللهمَّ اغفِرْ لى خطيئتى، وجَهْلِى، وإسرافى فى أَمْرِى، وما أنت أعْلَمُ به مِنِّى، اللهم اغفر لى خطَاى وعَمْدِى وَهَزْلِى وجِدِّى، وكُلُّ ذلك عندى،

اللهم اغفر لى ما قَدَّمْتَ وما أَخَّرْتُ، وما أسررتُ وما أَعْلَنْتُ؛ أنت المُقدِّم، وأنت المُؤخِّرُ، وأنت على كل شيء قَديرٌ».

* * *

٦٣- سُقوطُ العبد مِن دَرجة: ادِّعاؤها.» [الحلية: ١٠/ ٦٧]

● الدَّعْوَى كَذِبٌ على الناس، ومَن ادَّعَى كَذِبًا أنه وصل إلى درجة ما عند الله ،حجبها اللهُ عنه ومقَتَه لأنه يَكذبُ على الله... ذَكر صاحبُ نفحاتِ الأُنس أن رجلاً قال عند يحيى بن معاذ: إن قوماً يقولون نحن واصلون وليس لنا حاجَةٌ بالصلاة. فقال يحيى: قولوا لهم: أنتم واصلون إلى النار؛ وهكذا فى كل حين يَمْرقُ أُناسٌ من الدِّين.. ولهم مَنطقٌ غَريبٌ؛ فيقول لك أحدُهم: إنه سقطت عنه التكاليفُ فلا صَلاةَ ولا صَوْمَ ولا غير ذلك من العبادات؛ لأنه أتاه اليقينُ ويَحتَجُّ بقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩]. واليَقينُ فى الآية الكريمة هو المَوْتُ، وهل هذا المُدَّعِى خَيْرٌ من رسول الله ﷺ الذى ظل يعبد الله حتى فاضت رُوحُه الطاهرةُ إلى الملأ الأعلى فى نصف نهار يوم الاثنين، وقَبْلَها بساعات خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الصُّبح عاصبًا رأسه، وصَلَّى قاعداً عن يمين أبى بكر، ثم أقبل على الناس بعد الصلاة فوَعَظَهم وذَكَّرهم.

يقول السرى السقطى: «من تَزيَّن بما ليس فيه سَقَطَ مِن عَيْنِ الله عز وجل، ومَن سقط مِن عين الله مَقَتَه، ولا يُرْجَى منه خَيْرٌ».

* * *

٦٤- «مَن خانَ اللهَ فى السِّرِّ، هُتِكَ سِتْرهُ فى العلانيَة» [الرسالة:٢٧]

● يَحْتال بعضُ الناس بالدِّين للوصول إلى أغراض دُنيوية؛ نحو مال، أو جاه، أو مَنصب، أو زَواج مِن امرأة ذات شرف أو مال، وأحيانا لارتكاب ما حَرَّمَ الله، أو نَهْب أمْوالٍ. والوسيلةُ فى ذلك إظهارُ الوَرعِ والتقوى ما دام فى مَشْهَد من الناس، ولو تُرِكَ مُنْفَرداً ما صَلَّى ولا صامَ، إلى بقية الأساليب التى يخدع بها الناس، ومنها خَفْضُ الصوت، والإطْراق برأسه، ولبْسُ البَيَاض، وتقصير الثياب، وإطالةُ اللِّحْيَة، والكلامُ فى الدِّين، وإظهارُ السُّخْط وعدم الرِّضَا عن كُلِّ ما حَوْلَه، وتَرديدُ الحَوْقَلة والاسترجاع ليُوهِمَ الناسَ بتبرُّمه من سُلوكيّات الآخرين، وأنه رَجُلٌ صالِحٌ، قال رسول الله ﷺ: «إذا سَمعتُم الرجلَ يقول هَلَكَ الناسُ، فهو أَهلكهم».

هذا المتظاهرُ بصَلاحه للناس وهو على خلاف ذلك فى باطنه وحياته الخاصّة بعيداً عن أعين الرقباء يخون اللهَ فى السِّرِّ، وعقوبتُه: سَيفْضحه اللهُ فى العلانية، فمن حديث ابن عباس رضى الله

تعالى عنهما فيما رواه أحمد ومسلم عن النبى ﷺ قال: «مَن سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ به، ومَن راءَى راءَى اللهُ به» أى إنْ كان كلامُه أو فعلُه الذى يُظهره للناس مُطابقاً لعمله سَمَّعَ الله به الناسَ بالخير يوم القيامة، وإن كان غير مطابقٍ لعمله أو بقصد كسب ودِّ الناس أو نَيْلِ غرض من أغراض الدنيا سمَّع الله به الناسَ يوم القيامة وفضحه ويُدخله النار إنْ لم يَعْفُ عنه، وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: «مَن تَخلَّق للناس بغير ما فيه فَضَحه الله عز وجل».

* * *

مكرر- «لا تَطلُبِ العِلْمَ رِياءً، ولا تَتْرُكْه حَياءً.»

● سبق أن وردت فى الباب الثانى، باب العلم، عبارة رقم (١٢).

* * *

٦٥- «الوَلِىُّ لا يُرائِى ولا يُنافِقُ، وما أَقَلَّ صِدْقَ مَن هذا خُلُقُه.» [الرسالة: ١/ ١٨٢]

● قال الزمخشرى يُعَرِّف الولى:

«هو من تولى الله بالطاعة فتولاه اللهُ بالكرامة». وقال تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦]، وقال: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢، ٦٣]. ومن كانت هذه شمائله فهو بالضرورة لا يرائى ولا ينافق.. والصديق الحق من لا يرائى ولا ينافق صديقه، وقليلٌ ما هم.

* * *

٦٦- قال يحيى بن معاذ: «قال بعض الحكماء: مَن أَصْبَحَ لَمْ يَكُنْ معه هذه الخِصالُ الثلاث لم يُصِبْ طَرِيقَ العَزْمِ:

أولها: كما أن الله لم يُعْطِ رِزْقَكَ اليومَ غَيْرَكَ، فلا تَعْمَلْ لغيره.

ثانيها: وكما أن الله لَمْ يُشْرِكْ فيما أعطاكَ أحداً، فلا تشارك فى العمل الذى تعمل له؛ يعنى الرياء.

ثالثها: وكما أنه لم يُكلِّفْكَ اليوم عَمَلَ غَدٍ، فلا تَسْأَلْ رِزْقَ غَدٍ على جَوْرٍ؛ بمعنى إذا لم يُعْطِكَ شكَوْتَه.» [الحلية:١٠/ ٦٧].

● ....

* * *

الباب السادس

الخَوْفُ

٦٧- قال شيخنا يحيى بن معاذ رحمه الله:

«لا يَقَع من المؤمن سَيئةٌ إلا وهو يخاف أن يؤخذ بها، والخَوْفُ حَسَنَةٌ، ويَرْجُو أن يُعفَى له عنها، والرجاءُ حَسَنةٌ.» [صفة الصفوة ٤/ ٩٧].

بدايةً نُعرِّف الخَوْفَ وأنواعه:

• الخَوْفُ: توقُّعُ مكروه لسبب، وفائدته إن كان من الله: الكَفُّ عن المَعاصى، وبه تتحقَّقُ التقوى.

• الخَشْيَةُ: خَوْفٌ يَشوبه تعظيمُ المَخْشِيِّ منه مع المعرفة به ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨].

• الرَّهْبَةُ: خَوْفٌ مع تحرُّزٍ ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠].

• الهَيْبَةُ: رَهْبَةٌ مع خُضوعٍ للتعظيم.

• الوَجَلُ: استشعارٌ عن خاطر غير ظاهر، وليس له أَمارةٌ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠] أى يخافون أن لا تُقبل أعمالُهم الصالحة لما قام بقلوبهم من جلال الله وهيبته وعزَّته واستغنائه.. ومثله ما ورد عن أبى بكر: «لا آمَنُ مَكْرَ الله ولو كانت إحدى قَدَمَيَّ داخل الجنةَ والأُخرى خارجها».

• والخوف عند الحكيم الترمذى على أربعة أوجه: خوفُ العقاب، وخوفُ المخلوقين، وخوف الهيبة، وخوف التعظيم... فأما خوف العقاب والمخلوقين، إذا صح له التوكل، ووجد الحق على الحقيقة: زال عنه هذا الخوف... وأما خوف الهيبة والتعظيم فلا يزولان عنه أبداً، وتكون حالته بين حالتين: الهيبة، والأنس؛ أنسه من الكرم، وخوفه وهيبته من الإجلال.

• تنبيه: ليس الخوف من الله كالخوف من أمر تخافه النفس وتَخْشاه، كالخوف من الحريق أو الخوف من الأسد مثلاً، ولكنه كخوف الخطأ فى حضرة عظيم.

• لا يقع من المؤمن سيئة إلا وهو يخاف أن يؤخذ بها، والخوفُ حَسَنةٌ.. ويكون خوفه من ثلاثة أمور: أحدها: خوفه من العقوبة التى تترتب على هذه المعصية، ثانيها: خوفه من غضب الله،

ثالثها: خوفه أن تجره هذه السيئة بعيداً عن طاعة مولاه؛ لأن السيئة لا تَلد إلا سيئة مثلها. والخوف حسنةٌ لأن الأعمال الصالحة مدارها عليه، قال تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

● ويرجو أن يُعفَى له عنها: والرجاء حَسَنَةٌ، والكلام عن هذه النقطة سيَرِد فى باب الرجاء عقب هذا الباب مباشَرةً.

* * *

٦٨- قال يحيى بن معاذ: «يتولد الخوف من القلب من ثلاث خصال:

إدامةُ الفكْرِ مُعتبِراً، والشَّوْقُ إلى الجنة مُشْفِقًا، وذِكْرُ النار متخوِّفاً.» [الحلية ١٠/٦٧].

● قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالى رحمه الله - فى منهاج العابدين: «النَّفْسُ أَمّارةٌ بالسُّوء، ميّالة إلى الشَّرِّ، طَمّاحة إلى الفتنة، فلا تنتهى عن ذلك إلا بتخويف عظيم وتهديد بالغ، وليست هى فى طَبْعها حرة يهمها الوفاء، ويمنعها الحياءُ عن الجفاء، إنما هى كمّا قال القائلُ:

العَبْدُ يُقرَع بالعَصا والحُرُّ تَكفِيه الإشارَةْ

● إدامةُ الفكْرِ معتبراً من مولِّدات الخوف: أى باحثاً عن العبرْة والعظَة فيما يُجريه القَدَرُ عليه وحواليه؛ كموتَ مَن هو فى سنِّه من أهْله ومَعارفه، ومَن يكون أصغر منه سنّا.. بعد مرض أقْعدَه، أو فجأة فى حادث أو بَسكْتة قَلبِيَة - كما يسمونها - واسمها على الحقيقة: الموت.. ومَن أراد واعظاً فالموت يَكْفيه. والخوفَ من الموت لذاته فإنه هاذم اللذات، ومن الموت لما بعده من حساب وجزاء.. فعند ذلك يتعجل التوبة، ويقبلَ على العبادة، والحديث الشريف «.. صَلِّ صَلاةَ مودِّع» ويقول أبو على الدقاق: الخوفُ أن لا تعلل نَفْسَك بعَسَى وسَوْفَ. ومن حديث أبى هريرة يرفعه «بادروا بالأعمال سَبْعاً: هل تنتظرون إلا فَقْراً مُنْسِيًا، أو غنًى مُطغيًا، أو مَرضًا مُفسداً، أو هَرمًا مُقْعداً، أو مَوْتًا مُجْهِزاً، أو الدَّجّال، فشرٌّ غائب يُنْتَظَر، أو الساعةَ، فالساعة أدْهَى وأمَرُّ» (رياض الصالحين). كما أن فى كوارث الطبيعة - كالزلازل وغيرها - تذكرة للنَّفسِ وتخويفًا لها.

● «الشوق إلى الجنة مُشْفِقًا» فهو يَشتاق إلى الجنة ويُشْفِقُ أن يُزَحْزَحَ عنها إلى النار، كما أن الخوف متى كان لفوت محبوب أو مرغوب فهو الإشفاق، قال تعالى على لسان أهل الجنة: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور:٢٦، ٢٧].

● «وذكر النار متخوفاً» قال أبو حفص: الخَوْفُ سَوْطُ الله يُقوِّم به الشاردينَ عن بابه. قال رسول الله ﷺ: «شيبتنى هُودٌ وأخواتُها قَبْلَ المَشيب» لما ورد فى آياتها من ذِكْر النار، وكان خوفُه ﷺ على

أمَّته، وليس على شخصه الكريم كما هو معلوم.

* ولو شاء شيخنا لأضاف إلى أسباب التخويف ما جاء في كتاب الله من آيات الإنذار والترهيب، وكذلك ما جاء في الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ في عذاب القَبْر والنار، وكذلك لأشار إلى وسائل التخويف العملي التي مارسها بعضُ الصحابة والصالحين؛ فقد روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: أنه كان يجمع قِطَعَ النقود - غير الصالحة للتداول - من بيت المال، ويوقد تحتها في كوز حتى تذوب، ثم يخرج إلى الناس ويَصُبُّ ذلك على الأرض أمامهم، وهو يقول لهم: هذا هو المُهْلُ؛ مُشيراً إلى الآية الكريمة: ﴿وإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩].

ومن كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل ما ملخَّصه أن جماعة من الفَسَقة أغرَوْا ساقطةً أن تُغْوى عابداً في صومعة؛ فطرقت بابه في ليلة شتاء مُظْلمة مَطيرة، واستعطفته أن يأويها إلى الصباح، وأمام إلحاحها أدخلها، وقام يصلى فاضْجعت علىَ الفراشَ تتقلب لتريَه مفاتنها، فدعتْه نَفْسُه إليها؛ فقال يحدث نفسه: لا والله حتى أنظر كيف يكون صبرك على النار؛ ووضع إصبعه في لهب المصباح حتى احترقت، وعاد إلى الصلاة، ودعته نَفْسُه ثانياً فتقدم إلى المصباح بإصبعه الثانية والمرأةُ تنظر، وتكرر هذا حتى احترقت أصابعُه كلها فصُعقت المرأةُ مما ترى وماتت. وفي الصباح جاء الفَسَقةُ فوجدوها ميتة فقالوا: يا مرائي وقعتَ عليها ثم قتلتها حتى لا تفضحك، وجرّوه إلى الملك فحكم بقتله، فاستأذن أن يصلى ركعتين، فصلى ودعا فقال: أي ربِّ، أعلمُ أنك لم تكن تؤاخذني بما لم أكن أفعل، ولكن أسألك أن لا أكون عاراً على القرّاء بعدي، فرد الله عزَّ وجل الروحَ إليها وقالت: انظروا إلى يده، وعادت ميتة.

* * *

٦٩- مسكينٌ ابنُ آدمَ؛ لو يخاف النار كما يخاف الفقرَ: دخل الجنة. [الرسالة: ١٠١].

• الفقر الشبح الذي يُرعب البشر جميعاً، فلولاه ما احتمل الناس مشقة الأعمال لتحصيل المال، ولولاه ما تنوعت الحرف والمهن، وهو الباعث وراء تدبير الفقير، وحرص الغني، وقد يصل الخوف منه ببعض الأغنياء إلى العيش على الكفاف، مع أنه لو افتقر ما عاش دون المستوى الذى رسمه لحياته خوف الفقر، وقالوا فيه: يعيش عيش الفقراء ويحاسَب حسابَ الأغنياء، ويقول الشاعر:

أمِن خوف فقر تعجلتَه	وأخَّرتَ إنفاقَ ما تَجْمَعُ
فَصرتَ الفقيرَ وأنت الغنى	وهل كنتَ تعدو الذى تصنعُ

• وينْعَى شيخنا على الناس عَدَمَ خوفهم من النار كخوفهم من الفقر.. فلو خافوها كما يخافون الفقر لاستقامت حياتُهم على منهج الله، وزُحزحوا عن النار، وأدخلوا الجنة.

* * *

٧٠- «أَعْلَمُ الناسِ بالله أخْوفُهم لَهُ.»

• قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]. والخشية: خَوْفٌ مع تعظيم، وخشيةُ الله شرطُها العلمُ والمعرفةُ به، وكلما زادت معرفة العبد بربه كلما ازدادت خشيتُه له. والحديث الشريف: «والله إني لأرْجو أن أكون أَخْشاكم لله» (صحيح الجامع الصغير) ومَن أعلم بالله – أكثر من سيد الأنبياء والمرسلين، صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين؛ فهو أعلم الخلق قاطبة بالله وأخشاهم له.

* * *

٧١- « لو سَمِع الخَلْقُ صَوْتَ النياحة على الدنيا في الغيب من أَلْسنَة الفَنَاء، لَتَساقَطَتْ القلوبُ منهم حُزْناً، ولو سمعت الخليقةُ دَمْدَمةَ النار على الخَليقة لَتَصدَّعت القلوبُ فَرَقًا.» [الحلية: ١٠/ ٥٦]. وأظنها «على الحقيقة» أفضل.

• من رحمة الله بعباده أنْ ستر عنهم دمدمةَ النار، وألهاهم بالوَصْف عن حقيقتها وهي شيءٌ مُخيفٌ – مما جاء عنها في القرآن والحديث الشريف... ومن رحمته بنا أيضًا أنْ ستَرَ عذابَ القبر عنا؛ فلا نسمعه بينما تسمعه البهائمُ، ولو سمعناه ما أطَقْنا دَفْنَ موتانا كما جاء في الحديث الشريف؛ فقد روى عن ابن أبي شيبة ومسلم عن زيد بن ثابت رحمه الله تعالى عنه، قال: «بينما النبي ﷺ في حائط (حديقة) لبني النجار، على بَغلة له، ونحن معه، إذ حادَتْ به فكادت تُلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة، فقال: «مَن يَعرف أَصحابَ هذه الأقبر؟ فقال رجل: أنا، فقال: متى مات هؤلاء؟ فقال: ماتوا في إشراك. فقال: «إن هذه الأمة تُبْتَلَى في قبورها؛ فلولا أن لا تدافنوا لَدعوتُ الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذي أَسمعُ منه» وروى أحمد والطبراني قالَ رسول الله ﷺ: «استعيذوا بالله من عذاب القبر، إنهم يُعذَّبون في قبورهم عذاباً تسمعه البهائمُ» وقال ابن عربي يرحمه الله: «ما الدِّين لَذةَ صَوْمٍ وصلاة، إنما الدِّينُ خَوْفٌ من الله في كل الأوقات».

* * *

٧٢- « على قَدْر خَوْفكَ من الله يَهابُكَ الخَلْقُ» « على قدر حُبِّك لله يحبك الخَلْقُ» «وعلى قدر شُغْلَك بالله يشتغلُ الخلقُ بأمرك.» [صفة الصفوة: ٤/ ٩٥].

● على قدر خَوْفك من الله يهابك الَخْلقُ.. جاء فى الفوائد المجموعة ص: ٢٥٠ الحديث: «مَن خاف الله خاف منه كلُّ شىء» وقال فى الذيل: فى الباب عن جماعة يقوى بعضُها بعضًا. وعلى قدر خوف العبد من الله يكون التزامه بشرعه فى افْعَلْ ولا تَفْعَلْ، ومَن التزم بشرع الله فى كل أحواله خلع الله عليه من عنده عِزَّةً وهَيْبَةً.. والهيبةُ رهبةٌ مع خضوع للتعظيم، والمثال سبعة فتيان تمسكوا بعقيدة الحق وخالَفوا عقيدةَ الملك الباطلة، وفرّوا بدينهم، وآووا إلى الكهف ودَعَوا الله فقالوا: ربنا آتنا من لدنك رحمةً وهَيِّئْ لنا مَن أمرنا رشدًا. فحباهُم. ربهم بكثير من النعم منها: ألقى عليهم النَّوْمَ وعيونهم مفتوحةٌ فتحسبهم أيقاظًا وهم رُقودٌ وكذلك كان حال كلبهم؛ حتى إن الإنسان لو اطلع عليم لأصابه الرُّعبُ من منظرهم وفَرَّ هارباً.

وهذا الفاروق عمر رضى الله عنه، وسيرتُه فى العدل والحق لا تحتاج إلي بيان.. يروى عنه أبو نُعيْم فى الحلية قوله: لو نادَى مناد من السماء: أيها الناس، إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلا رجلاً واحداً لخفت أن أكون هوَ؛ ولو نادى مناد أيها الناس إنكم داخلون النار إلا رجلاً واحداً لرجوتُ أن أكون هو.. هذا وقد قارب الغاية من الخوف والرجاء فكساه الله عزاً وهيبة.. يقول ابن عباس رضى الله عنهما: لّما وَلِى عمرُ (أى الخلافة) قيل له: لقد كاد بعضُ النَاس يحيّد هذا الأمر عنك (أى يبعدك عن الخلافة) . قال: وما ذاك؟ فقيلَ له يزعمون أنك فَظٌّ غَليظٌ. قال: الحمد لله الذى ملأ قلبى لهم رُحْماً، وملأ قلوبهم لى رُعْبًا... وقال له واحدٌ من أصحابه يومًا: لقد أَرْعبتَنا بهيبتك. فقال عمر: أَمِن ظُلْمٍ؟ قال الرجل: لا، فقال عمر وهو يرفع يديه إلى السماء: اللهم فزدْنى هَيْبَةً.

وبقية عبارة الشيخ سبق التعليق عليها فى العبارة رقم (٤٠)

* * *

٧٣- مَن أكثر من ذكْرِ الموت لم يمتْ قَبْلَ أَجَله ويدخلُ عليه ثلاثُ خصال من الخير: أولها: المبادرة إلى التوبة، والثانية: القَناعةُ بِرزْقٍ يَسيرٍ، والثالثة: النَّشاطُ فى العِبادة» [الحلية: ١٠/ ٦٦]

● ولماذا الإكثار من ذكر الموت.. لأن النَّفْسَ تكرهه، وكثرة ذكره وترداده يجعلها تنتظره وإن كان على كُرْه منها، ومن الهدى النبوى: «أَكْثروا من ذِكر هاذمِ اللَّذات: الموت» صحيح الجامع الصغير. وهذمٌ (بالذال) أى قطع؛ غير هزم (بالزاى) أى انتصر. ولكثرة ذِكره فوائدُ جمعها شيخنا يحيى فى ثلاث:

● المبادرة إلى التوبة: ولأن الموت يأتى فجأةً فقد قصّر الأمل، ومَن كان فى انتظار الموت لما بعده سارع إلى التوبة، وهى باب الولوج إلى رضوان الله. روى ابن أبى الدنيا بإسناد ضعيف: «أكثروا ذِكْرَ الموت؛ فإنه يُمَحِّصُ الذُّنوبَ ويُزهِّدُ فى الدنيا».

● القناعة بالرزق: مَنْ أكثر من ذكر الموت غلب على فكره هَمُّ رزق اليوم فقط، ثم الرضا بما قسم الله به؛ لأنه لا يَدرى إنْ أصبح هل يُمسى وإنْ أمْسىَ هل يُصبح.. والحديث الصحيح: «أكثروا ذكرَ هاذم اللذات: الموت، فإنه لم يَذكره أحد فى ضيق من العَيْش إلا وسّعه (أى بالقناعة) ولا ذَكره فى سَعَة إلا ضيق عليه» أى أحالَ سعادته إلى غَمٍّ لهَم ما بعده؛ لأنه لا يعرف متى ينفد العدد، ولا متى ينتهى المَددُ.

● النشاط فى العبادة: فانتظار الموت يجعل العبد نشيطاً للقيام بصالح الأعمال ويحسنها؛ حتى يضيف إلى رصيده فى الآخرة ما فى وسعه. الحديث «اذكر المَوتَ فى صلاتك؛ فإن الرجُلَ إذا ذَكر الموت فى صَلاته لَحرىٌّ أنْ يُحسن صلاته، وصَلِّ صلاةَ رجلٍ لا يظن أنه يُصلِّى صلاةً غيرها، وإياك وكُلَّ أمر يُعتذَرُ منه» صحيح الجامع الصغير وقال البوصيرى رحمه الله.

وإذا حَلَّت الهِدايَةُ قلبـاً نَشِطَتْ للعِبَادَة الأعْضَاءُ

ولعل هذه الفوائد - التي ذكرها شيخنا - يحيي بن معاذ، وغيرها لتذكر الموت تفسِّر لنا جانباً من معني الآية الكريمة ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧، ٢٨].

● أما كيف نتذكر الموت؟ فأساليبُ ذلك كثيرةٌ منها:

- نتذكر أناساً بأسمائهم وأعيانهم وأمانيهم، قد سبقونا إلى حياض الموت؛ وكانوا أصغر سناً وأحسن صحة.

- زيارة القبور وقراءة اللافتات التى تعلوها.. فتجد أنه قد تَساوَى تحت التراب الخفيرُ مع الوزير، والزَّرى مع الثَّرى، والأُمِّىُّ مع المفكِّر الألْمَعىِّ.. فلا بَيارقَ ولا شارات ولا حراسة ولا تشريفات، تَساوَى الجميعُ فى الظاهر.. وإن كان كل منهم رهينُ عَملِه فى باطن الأرض.

- سماع القرآن والعظات. وقراءة ما ورد فى كتب الحديث والمواعظ عن عذاب القبر والقيامة وأهوالها والآخرة والجزاء فيها. قال أبو العتاهية:

لَيْتَ شِعْرى فإنَّنى لَسْتُ أدْرى أىَّ يَوْمٍ يكونُ آخِرُ عُمْرِى
وبِأىِّ البِلاد تُقْبَضُ رُوحى وبِأىِّ البِلادِ يُحْفَرُ قَبْرِى

* * *

٧٤- سُئل يحيى بن معاذ: «مَن آمَنُ الخَلْقِ غداً؟ قال: أشَدُّهم خَوْفًا اليَوْمَ» [الإحياء٥/ ١٦٢]

● مَن خَاف الله فى الدنيا، وتقرب إليه بالطاعات واجتنب السيئات؛ أمَّنه اللهُ عذابَ النار،

وأَدْخَله الجَنَّة، قال تعالى فى الحديث القدسى: «.. وعزتى وجَلالى لا أجمع له أمْنَيْنِ؛ فمن أَمَّنته فى الدنيا أَخفته يوم القيامة، وإن خافَنى فى الدنيا أَمَّنْتُهُ يوم القيامة».

● وقال رجل من أهل الدنيا يسأل عالماً: كيف نصنع بمجالس أقوام يُخَوِّفوننا حتى تكاد قلوبنا تَطير؟.. فقال له العالمُ: إنك والله إنْ صَحِبتَ قوماً يُخَوِّفونك حتى يُدركك الأمنُ، خَيْرٌ لك من أن تصحب قومًا يُؤمِّنونَك حتى يدركك الخَوْفُ.

قال طاووس: رأيت رجلاً يصلى فى المسجد الحرام تحت الميزاب، وهو يدعو ويبكى، فجئته وقد فرغ من الصلاة، فإذا هو علي بن الحسين رضى الله عنه، فقلت: يا بن رسول الله رأيتك على حالة كذا وكذا ولك ثلاثة أرجو أن يؤمنك من الخوف أحدها: أنك ابن رسول الله ﷺ، والثانى شفاعة جدك، والثالث رحمة الله؛ فقال: يا طاووس، أما أنى ابن رسول الله، فلا تؤمننى وقد سمعت الله يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١] وأما شفاعة جدى فلا تؤمننى لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨] وأما رحمة الله فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] ولا أعلم أنى محسن.

* * *

الباب السابع

الرَّجاء - حسن الظن بالله

٧٥- قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: «لا يَقع من المؤمن سيئة إلا وهو يخَافُ أنْ يُؤْخَذَ بها، والخَوفُ حَسَنَةٌ، ويرجو أن يُعْفَى له عنها، والرَّجاءُ حَسَنَةٌ» [المختار:٢٣٩]

● الرَّجاء: تعلُّق القلب بشيء مرغوب ممكن، مع الأخذ بالأسباب.. وهو على ثلاثة أقسام: رجاء في الله، ورجاء في سعة رحمة الله، ورجاء في ثواب الله.

وقال أبو بكر الوراق: «الرجاءُ ترويحٌ من الله لقلوب الخائفين، ولولا ذلك لَتلفتْ نُفوسُهم وذَهَلتْ عُقولُهم».

ومن حديث أنس رضى الله تعالى عنه فيما يرويه عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن الله جل وعلا: «يا ابن آدَمَ، إنك ما دعوتَنى ورجوتَنى غفرتُ لك علَى ما كان منكَ ولا أُبالى، يا ابن آدم لو بلغتْ ذنوبُك عَنانَ السماء، ثم استغفرتَنى غَفرتُ لك ولا أُبالى، يا ابنَ آدم لو أنك أتيتنى بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتُك بقرابها مغفرة».

* قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:١٦] وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر:٩]. والعبد فى فراره إلى الله تعالى يحتاج إلى الخوف والرجاء معاً، ولا غِنَى له عن واحد منهما، كما لا غنى للطائر عن أحد جَناحَيه فى الطيران.. وذلك لأن الخوف وحده يدعو إلى اليأس وتثبيط الهمَّة قبل الوصول إلى الغاية، وذلك لرؤية التقصير فى الأعمال؛ فإن لم يَلْحَقْه الرَّجاءُ وحُسنُ الظَنِّ بالله توقفت المسيرة؛ كما أن الرجاء وحده يميل بصاحبه إلى الكسل عن العمل والتسويف فيه، ولا يستحثه على العمل إلا الخوفُ... وقال سهل: الخوفُ ذَكَرٌ، والرَّجاءُ أُنثى؛ أى أنه منهما يتولَّد الإيمانُ، وقال: إذا خاف العبدُ غير الله ورجا الله تعالى، أمَّن الله خوفه وهو محجوب.

فائدة: يقدمها لنا ابن عطاء الله السكندرى قال: إذا أردت أن يُفتح عليك بابُ الرجاء (أى يغلب عليك حال الرجاء) فاشهد مامنه إليك (أى تذكر ما أفاضه الله عليك من فضل ونعم وإسعاف وألطاف) وإذا أردتَ أن يفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك إليه (أى يتذكر العبد المعاصى التى ارتكبها وسوء الأدب بين يديه).

● وهكذا شأن المؤمن، له فى كل أمر خَيْرٌ.. حتى السيئة إنْ خافَ أن يؤخذ بها كسب حسنةً،

وإنْ رجا عَفْوَ ربه عنها كسب أخرى.. وعن صُهَيْب رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال: «عَجبًا لأمْرِ المؤمن، إن أمرَه كلَّه له خَيْرٌ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إنْ أصابته سَرّاءُ شكَرَ، وكان خيراً لَه، وإن أصابته ضَرّاءُ صَبَرَ، فكان خيراً له» رواه أحمد ومسلم.

* * *

٧٦- «أَوْثَقُ الرَّجاءِ رَجاءُ العَبْدِ بربِّه، وأَصْدَقُ الظُّنون حُسْنُ الظَّنِّ بالله» [الحلية ١٠/٥٨].

● أوثق الرجاء رجاء العبد بربه، ففى الحديث القدسى: «أنا عند ظَنِّ عبدى فلْيظُن بى ما شاء» (صحيح الجامع الصغير). قال القرطبى فى المفهم: معنى ظن عبدى: ظن الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار، وظن المجازاة عند فعل العبادة بشروطها تَمسُّكًا بصادق وعده.

● وأصدق الظنون حسن الظن بالله، والحديث القدسى: أنا عند ظن عبدى بى؛ إنْ ظَنَّ خَيْراً فله وإنْ ظن شَرّاً فله» ويفهم من هذا الحديث أن المعاملة تدور مع الظن، فإذا حسَّن العبدُ ظَنَّه بربه، وفىّ له بما أَمَّل وظَنَّ.. وإنْ ظن شراً فالعقوبة إليه سريعة والمقت له كائن. وذلك لأن أعظم الذنوب عند الله إساءةُ الظنِّ به؛ فقد ظن به خلافَ كماله المقدَّس، وظن به ما يُناقض أسماءه وصفاته؛ قال تعالى مخاطباً مَن أنكر صفةً مِن صفاته: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٢، ٢٣].

● حسن الظن لا يتولد من فراغ؛ بل هو نتيجة لحسن العمل، فإن العمل الصالح يزيد الإيمان، فى القلب؛ فإذا عرض للعبد الصالح أَمْرٌ وهجست له النفسُ؛ تحرك فى القلب نورُ الإيمان يرفع راية التوحيد للحق الكريم القادر فتهدأ النَّفْسُ ويطمئن القلب ويحسن الظن بالله.. وعلى النقيض من ذلك، مَن ساء عملهُ ساءت نفسه وأظلم قلبه.. وقالوا: إنّ حُسْنَ الظن من حسن العمل، وأيضاً: فإن حسن العمل من حسن الظن بالله؛ فمنَ حَسُنَ ظَنُّه بربه حسن عملهُ.

* * *

٧٧- «مَن لم يَحْسُنْ بالله ظَنُّه لم تَقَرَّ بالله عَيْنُه» [التعرف: ٣١].

● لا تَقَرُّ للعبد عينٌ إلا إذا كان الله عنه راضياً؛ فإنه لا مَلْجأ ولا مَنْجَى منه إلا إليه، وكيف تقر عينُ العبد وقد أساء الظنَّ بربه، ولم ينزهه التنزيه الكامل - سبحانه - بل اتهمه فى بعض صفاته،

ونسبه إلى مالا يليق به، وكان ابن مسعود رضى الله تعالى عنه يحلف بالله أنه ما أحسن عبدٌ بالله ظنه إلا أعطاه الله ذلك؛ لأن الخير كله بيده. وقال ﷺ منبهاً ومحذراً: «لا يموتنَّ أحدٌ منكم إلا وهو يُحسنُ الظنَّ بالله تعالى» (صحيح الجامع الصغير) وكان صحابة رسول الله ﷺ ومن بعدهم السَّلَفُ الصالح إذا حضر مريضَهم الموتُ، ذكَّروه بأفعاله الطيبة وبسعة رحمة الله تعالى حتى يحسن ظنه بربه، ويقبل على الرجاء فى عفوه وواسع مغفرته ويكون هذا حاله حتى يُقبض عليه.. ودخل رسول الله ﷺ على رجل وهو فى سياق الموت، فقال: «كيف تجدُكَ؟ فقال: «أجدنى أخاف ذنوبى وأرجو رحمة ربى»، فقال ﷺ «ما اجتمعا فى قلب عبد فى هذا الموطن، إلا أعطاه الله تعالى ما رجاه وأمَّنه مما يخاف».

* * *

٧٨- «منْ أعْظَم الاغترار عندى التَّمادى فى الذنوب على رجاء العفو من غير ندامة، وتَوقُّعُ القربِ من الله تعالى بغير طاعة، وانتظارُ زرع الجنة ببَذْر النار، وطلبُ دارِ المطيعينَ بالمعَاصى، وانتظارُ الجزاء بغير عمل، والتمنِّى على الله عز وجل مع الإفراط».

تَرْجُو النَّجاةَ ولم تَسْلُكْ مَسالكَها ... إنَّ السَّفينَةَ لا تَجْرِى علَى اليَبَسِ

[الإحياء ٥/ ٤٤]

● هكذا فى الإحياء بدون فاصل بين العبارة وبيت الشعر وهو من إنشاء عبد الله بن المبارك ويسبقه بيت آخر هو:

ما بال دينك ترضى أن تدنسه ... وثوبُك الدهر مغسول من الدنس

وحيث أن ابن المبارك من وفيات ١٨١هـ وهو أقدم من يحيى، فقد يكون يحيى استشهد ببيت الشعر، وقد يكون الغزالى استشهد به.

● حسن الظن المحمود.. يكون مع انعقاد أسباب النجاح، أما إهمال أسباب النجاح ثم تمنِّى الخير والفلاح فهذا حُمْقٌ واغترارٌ.. والحديث الشريف «المؤمنُ القوىُّ خَيْرٌ عند الله من المؤمن الضعيف وفى كلٍّ خَيْرٌ، احرصْ على ما يَنْفعكَ، واستعن باللهولا تَعْجزْ..» رواه مسلم، فإذا اختار المرءُ أمْراً ينفعه وأخذ بالأسباب المؤدِّية لتحقيق الأمر، والتى فى طاقته، وداخلةٌ فى اختياره واستعان بالله وحسَّن ظنَّه به فى صرف الموانع والمفسدات، وفهذا من فَضل الله وتوفيقه.. ولنأخذ طالبَ العلم كمثال: يجتهد فى طلب العلم من سَعْى وإنصات، وتسجيل ملاحظات، واستذكار واستظهار، ومدارَسته مع غيره ثم يرجو من الله التوفيق فى الامتحان، وفهم الأسئلة، وتوفية

الإجابة، وأن يجنِّبه أخطاءَ مقدِّرى الدرجات وسقطات (الكنترول).. فهذا الطالب بذل جُهدَه ورجا الخير وهو المطلوب، أما الطالب الذى ينتظر النجاح ولم يأخذ للامتحان أُهبَته فهو مُغترٌّ أحمقُ.. وهذا حال مَن يَتمادَى فى الذنوب على رجاء العفو من غير استغفار وتوبة. ومثله أيضاً الذى يتوقع القربَ من الله من غير اجتهاد فى العبادة كالزارع الذى يبذر الحسك والسَّعْدان وينتظر أن يجنى ساعة الحصاد فاكهةً وريحاناً، والحديث القدسى «ما أقلَّ حَياءَ مَن يَطمع فى جنَّتى بغير عمل، كيف أَجودُ برحمتى على مَن بَخل بطاعَتى؟!!». وعن شداد بن أوس رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله ﷺ: «الكيِّسُ مَن دانَ نَفْسَه، وعمل لما بَعْدَ الموت، والعاجزُ مَن أَتبع نَفْسَه هواها، وتمنَّى على الله الأمانى».

* وعلامات الرجاء هى:

١- انشراح الصدر بأعمال البر، والمسارعة بها خوف الفوت.

٢- الأنس بالله فى الخلوات وأيضاً عند الاجتماع بأهل العلم والطاعات.

٣- التلذذ بدوام حسن الإقبال على صالح الأعمال.

* * *

٧٩- «إذا قال لى ربى: عَبْدِى ما غرَّكَ بى؟ قلتُ: إلهى، بِرُّكَ بى» [الصفوة: ٤/ ٩٥].

• السؤال والجواب حوارٌ تخيَّله شيخنا يحيى بن معاذ.. وتعكسُ هذه العبارة نَوْعاً عالياً من حُسن الظنَّ بالله لا يعرفه إلا القليلُ.. فقومٌ حسَّنوا الظنَّ بالله لعلمهم أن الأمر له وهو الفَعَّال لما يريد فلماذا المنازعَةُ.. وجماعة حسَّنوا الظن فيما يستقبلون من أُمور اعتماداً على ما تعوَّدوه من سابق لطفه فيما مضى. ولسان حالهم يقول: اللهُ عوَّدك الجميلَ فَقِسْ على ما قد مضى، وآخَرون كان حسن ظنهم ليكون الله لهم عند ظنهم، للحديث القدسى: «أنا عند ظن عبدى بى» وهم خيرٌ من سابقيهم؛ لتسليمهم المطلق ويقينهم الكامل فى عظمة ألوهيته وصفات ربوبيته، وكذلك فهو غير معلول بأنه لا ينفع مع تدبيره تدبير كما فى الأول؛ ولا معلولٌ بما قد عوَّده عليه من سوابق الفضل كما فى الثانى (عن التنوير فى إسقاط التدبير بتصرف).

* * *

٨٠- «سبحان الله، فلعلَّ لا إله إلا الله تستوهبه من أهل لا إله إلا الله، فليس ما أتى به من الذنب عصْياناً، أكثر مما أتى به من التوحيد إيماناً» [الحلية: ١٠/ ٥٨].

• لا نعرف لهذه العبارة سبباً: فلم تذكر الكتبُ التى بين أيدينا شيئاً عن مناسبتها، ولكن.

نستطيع تخمينه؛ فلعلَّ رجُلاً أسْرَفَ على نفسه فلما مات سألوا يحيى فيه، فقال لها معتمداً على معنى الحديث القدسي.. ومنه «يا ابن آدم لو أنك أتيتَنى بقُراب الأرض خطايا، ثم لَقِيتَنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقُرابها مَغْفرةً» والحديث بطوله فى شرح العبارة: ٧٥. وعن أبى ذر رضى الله تعالى عنه فيما رواه الشيخان قال: أتيت النبى ﷺ وعليه ثوب أبيض، وهو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فقال: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال «وإن زنى وإن سرق؟» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق؟ قالت وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق رغم أنف أبى ذر».

* * *

٨١- وكان يحيى بن معاذ يقول فى الرجاء: «إذا كان شِرْكُ ساعةٍ يُحبط حَسنات خمسين سنةً فتوحيد خمسين سنة ماذا يصنع بالذُّنوب؟!» [سراجَ الطالبين: ٢/ ٢٥٢].

٨٢- «التوحيد نور، والشك نار؛ ولنورُ التوحيد أحرقُ لسيئات الموحدين من نار الشك لحسنات المشركين» [الكواكب الدرية: ١/ ٢٧٣].

• العبارتان فى معنى العبارة التى قبلهما.. وقال بعض العارفين: للتوحيد نورٌ، وللشرك نارٌ، ونور التوحيد أحْرَقُ لسيئات المؤمن من نار الشِّرك لَحَسنات المُشرك.

* * *

٨٣- «مَن عبد الله بمَحْض الخوف، غَرق فى بحار الأفكار، ومَن عبده بمحض الرجاء، تاه فى مفازة الاغترار، ومَن عبده بالخوف والرجاء، استقام فى مَحَجَّة الإدكار» [الإحياء: ٥/ ١٦٦].

• مَن عبده تعالى بمحض الخوف وحده غرق فى أفكار اليأس والقطيعة وسوء الخاتمة.. ولكل عبد مَخاوفُه: فالمُذْنبُ يعبد ربه وتعذبه فكرة هل قبلت توبته أم لا، والعابد يفكر هل قُبلت عبادتهُ أم رُدَّت عليه، والعالِمُ يفكِّر هل خلصت نيته أم لا، والعارف يعبد الله وهو يخشى السابقة التى هى فى الواقع الخاتمة.

• ومَن عبده بمحض الرجاء تاه فى مفازة الاغترار.. والمفازة الصحراء المهلكة لخلوها من أسباب الحياة، ومَن سلكها وخرج حياً فقد فازَ.. والاغترار: الإنهماك فى المعاصى والخطايا مع رجاء المغفرة... وذلك اغتراراً منهم بسَعَةِ رحمته تعالى، وبستره عليهم وعدم كشف حقيقتهم، أو

بكثرة النعم التى أفاضها عليهم، أو بالعافية التى ألبسهم إياها.. فيستر سلون فى المعاصى والمخالفات، ويُسوِّفون فى التوبة، وما يدرون أنهم مستدرجون فى مفازة الاغترار حيث الهلاك والبوار.

ولا يحسن للعبد أن يلجأ إلى الرجاء وحده دون الخوف إلا لضرورة، وذلك متى أحس باليأس يملأ صدره، ويملك عليه لُبَّه، عند ذلك يجدُ فى الرجاء ما يستروح به، فالرجاء فى الله مأمور به، واليأس من رحمة الله منهى عنه.. والرجاء عند الموت ضرورة، وسبق أن ذكرنا أن الصحابة رضوان الله عليهم ومَن جاء مِن التابعين والسلف إذا حضر أحدَهم الموتُ ذَكَّروه بفضائل أعماله؛ حتى يُغلّب عليه الرجاء وحسن الظن بالله فى هذه الساعة، ومن حديث جابر فيما يرويه أحمد ومسلم قال رسول الله ﷺ: «لا يموتنَّ أحدٌ منكم إلا وهو يُحسِن الظنَّ بالله تعالى». وهذا الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله لمّا احتُضر قال لابنه: اذكر لى الأخبارَ (أى الأحاديث) التى فيها الرجاء وحسن الظن بالله، ولما احتُضر سَليمان التَّيْميُّ قال لابنه: حدِّثنى بالرخص، واذكر لى الرجاء؛ حتى ألقى الله تعالى على حسنِ الظن به».. ولذا قالوا: «الخَوْفُ أفضلُ للمرء مادام قويّا، حتى إذا حضره الموتُ كان الرجاء أفضل».

● ومَن عبد الله بالخوف والرجاء استقام فى محجة الأذكار، أى سلك الطريق المستقيم للذِّكر والعبادة، وذلك لأن الراجى قد ينسى مهامَّ التكليف للإفراط فى الرجاء، فيتدنَّى إلى البطالة فى العمل والتسويف فيه، ولا يَردُّه إلى الصواب إلا التخويف، فالخوفُ سوطُ الله يرد به عباده عن المعاصى.. وكذلك فإن الإفراط فى جانب الخوف قد ينحدر بصاحبه إلى مزالق اليأس مِن صَلاح النَّفْس وبلوغ المقصد، ولا يجيره من هذا التيه إلا الرجاء فى الله وسعة رحمته.. وقد أفرط الخوارج فى الخوف؛ فقالوا بكُفر مرتكب الذَّنْب، وكذلك أفرط المرجئة فى الرجاء فقالوا: إنه لا تضرُّ مع الإيمان معصيةٌ كما لا ينفع مع الكفر طاعةٌ..وكلاهما جانَبه الصَّوابُ.

● عينُ الصواب أن يجمع العبد بين الخوف والرجاء فى علاقته بربه، ويكون على يقظة مع نفسه فإذا استرسلت فى الرجاء شدَّ علهيا بسياط الخوف، وإذا هى تمادت فى الخوف أرخى لها عنانَ الرجاء.. وحقيقة الأمر أن الخوف يحتوى على رجاء، وكذلك الرجاء يحتوى على خوف.. فالخائف من شىء راج للنجاة منه، والراجى لشىء خائف أن يفوته تحصيلُه. وقال ابن عربى رحمه الله «مَن أراد طريقَ النجاة يلاحظ فى المخالفة الخوفَ، وفى الطاعة الرجاء».

●● لا يمنعنا علْمُنا بأن الله قد فرغ من مقادير العباد من العمل حسب شريعته فى الامتثال بأمر عبوديته عاجلاً، والاستسلام وتفويض الأمر إليه آجلاً.. وذلك لجهلنا بما قدره لنا، والحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: «اعملُوا فكلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلق له» وقصة الحديث يرويها لنا على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال: «كنّا فى جنازة فى بَقِيع الغرْقَد، فأتانا النبىُّ ﷺ فقعد وقعدنا حَوْله

ومعه مِخْصَرَةٌ (عصا) فنكس وجعل ينكت بمِخْصَرَته، ثم قال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة! فقالوا: يا رسول الله ﷺ، أفلا نَتَّكِل على كتابنا؟ فقال: «اعملوا، فكلٌّ ميسَّر لما خُلق له».. وفي رواية أخرى قال رجل: يا رسول الله أنعمل فيما جرت به المقادير وجفَّ به القلمُ أو شيءٌ نستأنفُه؟ قال: «بل بما جرت به المقادير وجف به القلم». قال الرجل: ففيم العملُ؟ قال ﷺ «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

•• ليس معنى الرجاء في رحمة الله أن تسقط شيئاً من أوامره.. كما أن الرضا بأفعال الله غير الرضا عن رعونات النفس فيما تميل إليه من المعاصي اعتماداً على الرجاء.. فحاذِرْ أن تخلط بين الرضا والرجاء.

* * *

٨٤- «يكادُ رجائي لك مع الذنوب يغلبُ رجائي لك مع الأعمال؛ لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروفٌ؟! وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟!» [الرسالة: ١٠٦].

• تطرح هذه العبارة موازنة بين أمرين للاختيار بينهما في كلمتين: أيهما نعتمد عليه؟... هل يكون اعتمادنا على الله أو على غيره؟ .. هل نعتمد على حسن الظن في الله ورجائنا في سعة فضله وهو بالجود موصوف؟.. أو يكون الاعتماد على أعمالنا في مرضاة الله، وهذه الأعمال لها من الآفات ما يحول دون قبولها كالرياء وحب الظهور والتقصير في حسن الأداء.. ولهذه الأسباب وجدنا شيخنا يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى، وجدناه يرجح رجاءه مع الذنوب على رجاءه مع الأعمال لسعة فضل الله.

واستهلال عبارته بلفظ «يكاد» التي تفيد مع الفعل المضارع مقاربة فعل الفعل، أو نفي هذه المقاربة عند بعض النحويين محدثين وقدامى، وذلك حتى يوازن رجاءه مع خوفه، فلا يغلب رجاؤه خوفه، ولا خوفُه رجاءه.

قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه لأُويس القَرْنيّ: «عظْني»، فقال أُوَيسُ: ابْتَغِ رحمةَ الله عند طاعته، واحذَرْ نُقْمَتَه عند مَعْصِيَتِهَ، ولا تَقْطَعْ رجاءَك عنه خِلالَ ذلك.»

* * *

الباب الثامن

التَّوْبَةُ - الندم

٨٥- كان الشيخ يحيي بن معاذ رحمه الله يقول في دعائه: «إلهي، لا أقوى على شُروطِ التوبة، فاغفرْ لي بلا تَوْبةٍ» [طبقات الشعراني: ١/ ١٨٣].

● شروطُ التوبةِ من معصية تتعلق بحق الله: ثلاثةُ أمور مجتمعة:

١ - الإقلاعُ عن المعصية في الحال، وإن كانت المعصية تفريطًا في حقٍّ يمكن تداركُه كالصلاة، كان عليه تدارك ما فاته قضاءً، وهذا قول الأئمة الأربعة وغيرهم.

٢ - النَّدمُ على فعل المعصية، والحديث الصحيح: «النَّدمُ تَوْبَةٌ» أي رُكنه الأكبر؛ كالحج عرفة.

٣ - العَزْمُ على عدم العودة إلى الذَّنْبِ أبدًا، ويكون ذلك باتخاذ الأسباب المُعِينَةِ على ذلك ومنها:

أ - الدُّعاء بطلب العَوْنِ من الله.

ب - البُعْدُ عن كل ما يُثير الرغبةَ لِمُقارفة الذَّنْب أو يُذَكِّر به مَرَّةً أخرى.

جـ - حضور جلسات العِلْمِ.

د - مجالَسَةُ الصالحينَ، وتجنُّب إخوان السُّوء.

* شروط التوبة عن معصية تتعلق بحق آدَميٍّ أربعة:

١، ٢، ٣- الشروط الثلاثة التي ذكرناها آنفًا؛ بالإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها.

٤ - الشرط الرابع هو أن يَبْرأ من حقِّ صاحبها؛ فإن كان مالاً أو نحوه ردَّه إليه إنْ كان مُستطيعًا وإلا طلب عَفْوَه، وإنْ كانَ حَدَّ قَذْفٍ ونحوه مكَّنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحلَّه منها؛ واختيارُ أبي العباس ابن تيميةَ أن القاذف والمغتاب يكفيه توبته بينه وبين الله، وأن يثني عليه مكان ما اغتابه أو قذفه، ويستغفر له بقدر ما اغتابه.

وقد نظم هذه الشروط الشيخ قائد بن عثمان الحنبلي فقال:

شُروطُ تَوبتهم - إن شئْتَ عدَّتها - ثلاثةٌ عُرِفت فاحْفَظْ على مَهَلْ

إقلاعُه، نَدَمٌ، وعَزْمُه أبدًا أن لا يَعودَ لما منه جرى، وقلْ

إنْ كان توبتُه مِن ظُلم صاحِبِه لا بد مِن ردِّ الحقِّ على عَجَلْ

* وشيخنا يحيى قد أعلن - فى عبارته - توبته بقوله: فاغفر لى بلا توبة، وهذا يصح عند من قال: اللهم اغفر لى، اللهم تُبْ علىّ، ولا تقل: أستغفر الله وأتوب إليه، فإنك قد تعود وتُصبح غير صادق فى استغفارك وتوبتك، وهذا القول يردُّه حديثُ أبى داود: «مَن قال أستغفر الله العظيمَ الذى لَا إله إلا هو وأتوبُ إليه، غُفرت ذُنوبه، وإنْ كان قد فرّ من الزَّحْف» فصيغة: «أستغفر الله» لا شيء عليها، إنما التوقف عند البعض فى «وأتوب إليه» إلا إذا كان قد أخذ فى أسباب التوبة المعروفة؛ من إقلاع عن الذَّنْب، والنَّدَم على فعله، والعَزْم على عدم العَوْدة إليه أبداً.

* * *

٨٦- «إلهى، لا أقول: تُبتُ ولا أعودُ؛ لما أَعْرفُ من نفسى منْ نقْض العهود، ولكن أقول: لا أعود، لَعلِّى أموتُ قبل أَن أعود.» [الوفيات: ٦/ ٧٦٦].

• هذه مُناجاةٌ لشيخنا يحيى بن معاذ رحمه الله، فيها معنى العبارة التى سبقتها؛ وفيها يعلن شيخنا عن ضَعْفه وافتقاره إلى عَفْو مولاه، إنه ربٌّ غَفُورٌ.

* * *

٨٧- «زَلَّةٌ واحدةٌ بَعْدَ التَّوْبَة أَقْبَحُ من سَبعينَ قَبْلَها.» [الرسالة: ٨١].

• وهذه العبارة تتفق مع رأى المعتزلة الذين يرون أن التائب إذا أذنب فقد نقض عهدَ التوبة مع ربه التى من شروطها عَدمُ العوْد إلى الذَّنْب، بينما أهلُ السُّنَّة لا يعدُّون هذا نقضًا للتوبة، ويقولون: عليه أن يُجدِّد التوبةَ كلما استجد ذنب .

ومن حديث أبى هريرة يرفعه: «إنّ عَبْدًا أصاب ذَنْبًا فقال: ربى أذنبتُ ذنبًا فاغفره، فقال ربه: أَعَلم عبدى أنّ له ربّاً يغفر الذنبَ ويأخذ به!؟ غفرتُ لعبدى، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذَنْبًا فقال: ربى أذنبتُ آخر، فاغفر لى، قال: أَعَلم عبدى أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به؟! غفرتُ لعبدى، ثم أصاب ذنبًا فقال: رب أذنبت آخَرَ، فاغفرْ لى، قال: أعلمَ عبدى أنَّ له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به؟ قد غفرتُ لعبدى فليعمل ما شاء» رواه أحمد والشيخان.

وليس معنى ذلك أن اللهَ جل جلاله قد أَذن له فى فعلِ المَعاصى كما يشاء، ولكن معناه أن يغفر له ما دام على حاله التى علمها منه.. وهى عدم الإصرار على الذنب وأنه يشفع الذنبَ بتوبة، كما هو الشأن فى أهل بدر فى قوله ﷺ لعمر بن الخطاب: «إنه قد شهد بَدْرًا، وما يُدريك يا عمر أنّ الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتُم فقد غفرتُ لكم» وكان ذلك لما أراد عُمرُ ضَرْبَ عُنُق حاطب بن أبى بَلْتَعَة لإخباره أهل مكة بأن النبى ﷺ يُعدُّ لفتح مكة. ويُحكَى أن بعض المريدين تاب ثم وَقعت له فَتْرةٌ، وكان يفكر وقتها: لو عاد إلى التوبة ما حُكْمُه؟ فهتف به هاتفٌ: «يا فلانُ،

أطعتَنا فشكرناك، ثم تركتنا فأمهلناك، وإن عدتَ إلينا قبلناك، فتاب وعاد».

وقيل فى عبارة شيخنا - يحيى - إنه يحكى عن حاله؛ فزلَّةُ العالم أقبح من زلة الجاهل.

* * *

٨٨- «هو ألقاهُمْ فى الذَّنْبِ يَوْمَ سمَّى نَفْسَه العَفُوَّ الغَفُورَ.» [صفة الصفوة: ٤/ ٩٢].

● لعل شيخنا يشير فى هذه العبارة إلى قصة أبينا آدم عليه السلام، وأكله من الشجرة وتوبته، يقول تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وهو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. تَلَقَّى كلمات: أى استقبَلها بالأخْذ والقَبول والعمل بها. وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال: «إنَّ أحَبَّ الكلام إلى الله تعالى ما قاله أبونا آدم حين اقترف الخطيئة: «سُبحانك اللهمَّ وبحمدك، وتبارك اسمُك، وتعالى جَدُّك (أى عَظَمَتُه وفَضْلُه تعالى)، ولا إله إلا أنت، ظلمتُ نفسى فاغفر لى؛ إنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت».

والحقيقة أن ذات الله وصفاته وأسماءه كلها قديمةٌ، وأنه جَلَّ جلالُه كان ولا شىء معه، ولما أمَرَ الحقُّ القلم أن يكتب مقادير الخلائق كان ذلك قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، كما أن اسمَهُ العَفُوُّ الغَفورُ كبقية أسمائه قديمٌ قدَم الذات، ولا يَصِحُّ أن نقول إنه جل جلاله لا يستحق هذا الاسم إلا بَعْدَ أن وقع عبادُه فى الذَّنْب، كما لا يستحق اسمَ الخالق إلا بعد إيجاده الخَلْقَ، ولو كان كذلك - سبحانه - لكان ناقصًا فيما لم يزل، وتَمَّ بالخَلْقِ، تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً..

كما لو أن الله استوجب أنه خالقٌ بالخَلْق، واستوجب أنه عَفوٌّ غفورٌ بوقوع الناس فى الذّنب وتوبتهم منه لكان محتاجًا إلى الخلق، والحاجة أَمَارةُ الحدَث، تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً؛ كما أن ذلك معناه أنه لم يكن خالقًا قَبْلُ ثم كان، ولم يكن عفواً غفوراً ثم كان.. وتغيُّرُ الحال على الله من المحال... وبذلك ينتفى أن اسمه العفو الغفور حادث يرتبط وجوداً مع وقوع المعصية الأولى ولكن نستطيع أن نقول إنه ارتبط بها عَمَلاً: معصية، فاستغفار، فعفو... كما نقول أيضًا إن هذا كان فى علم الله، وعِلْمُ الله قديم.. خَلْقٌ يذْنبون وربٌّ غفورٌ.

* * *

٨٩- «لَوْلا أنَّ العَفْوَ من أَحبِّ الأشياء إليه، ما ابتَلَى بالذَّنْبِ أكْرَمَ الخَلْقِ إليه.» [صفة الصفوة: ٤/ ٩٢].

وردت هذه العبارة بصيغة أخرى فى تاريخ الإسلام للذهبى (١٦/ ٣٧٤) بلفظ:

«لو لم يكن العَفْوُ مِن مُراده، لم يَبْتَلِ بالذَّنْبِ أكرمَ عِباده»

• بدايةً نَتساءل: ماذا يَقصد شيخُنا بأكرَمِ الخَلْق إلى الله.. هل يقصد بها البشر بنى آدم، فهذا له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].. أم هل يقصد بها أنبياءَه ورسله بَدْء من نبى الله آدم حتى خاتمهم نبينا ﷺ وهو أكرم عباد الله على الله.. وبخصوص الأنبياء والرسل - فى اختصار - أنهم معصومون عن ا لوقوع فى المَعْصية؛ لأنهم قُدوةٌ لنا وأُسوةٌ، وقد أُمرنا باتباعهم، ولو صدق عليهم الوقوعُ فى المعصية لصدق عليهم تشريعُ المعاصى؛ لذلك فهم لا يفعلون الحرام مطلقًا، كما أنهم لا يفعلون المكروه إلا لبيان الجواز.. أما بخصوص ما نُسب إليهم من أفعال، وسَمّاها البعضُ معصيةً.. فهى ليست كذلك، بل إنهم فعلوا الصواب - وهذا اجتهادهم - بينما كان هناك الأَصْوَبُ، وإنما سُميت معصية ؛ لأن حسنات الأبرار سيئاتُ المُقرَّبِين.

وبخصوص أكلِ آدم عليه السلام من الشجرة.. قيل: إنه لم يكن له نية فى الأكل ونسى، والنوايا مدار المؤاخَذَة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].. وقيل: إنه ظَن أن النَّهْى قاصر على شجرة بعينها، ولا يشمل النهىُ تحريمَ جنسها.. وقيل: إنه نَسِى النهىَ عنها، أو نَسى تهديدَ إبليس له فصدّق قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] ونتيجة ذلك سَنَّت التوبةُ لخلق الله حتى طلوع الشمس من المغرب فى آخر الزمان.. قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

***

٩٠- «عَلامةُ التائب: إسْبالُ الدَّمْعَة، وحُبُّ الخَلْوَة، ومُحاسَبَةُ النَّفْسِ البعيدةِ عن الصفوة عند كل همَّة.» [صفة الصفوة: ٤/ ٩١].

• إسبال الدمعة: من علامات الخَشْية من الله وخَوْف عذابه. روى الشيخان عن أنس رضى الله عنه قال: «خطب رسولُ الله ﷺ خُطْبَةً ما سمعتُ مثلها قطُّ، فقال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتُم قليلاً ولَبكيتُم كثيراً، فغطَّى أصحابُ رسول الله ﷺ وجوهَهم ولهم خنين». والخنين: نوعٌ من البكاء دون الانتحاب. وروى الترمذى عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «عيْنان لا تُصيبهما النارُ: عَيْنٌ بكتْ من خشية الله، وعَيْنٌ باتت تحرس فى سبيل الله» [صحيح الجامع الصغير]. وقيل: ليس الخائفَ مَن يَبكى فيمسح عينيه، ولكن الخائف ما يخاف ما يُبعده عن الله فيما يتعاطاه، أو ما يعذِّبه الله به حين يلقاه.

• حبُّ الخلوة مِن علامات التائب: وذلك لِتَجَنُّب المعاصِى التى يتعرَّضُ لها الإنسان

بالمخَالَطَة؛ كالرِّياء والغيبة والسُّكوت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد تغلبه غريزة القطيع فى وسط إخوانِ سوء، فيرتكب من الحماقات ما يَنْدَم عليه بَعْدُ. كما أن فى الخلوة فُرْصَةً لتذكُّر الذَّنْب والندم عليه، وكذلك القيام بالطاعات، وإن الحَسنات يُذْهِبْنَ السيئات.. وليس معنى ذلك أن الاجتماع بالناس مَضَرَّةٌ دائمًا، لا، إنما للمخالطة فوائد عظيمة لا تتحقق فى العُزْلة، منها: التعليمُ والتعلُّم، والنَّفْعُ والانتفاع، والتأدُّب والتأديب، والقيامُ بحقوق الآخرين، بشرط أن تكون الصُّحبةُ صالحةً، أما إنْ كانت غير ذلك فيكون الاجتماع بهم بقدر قضائك حاجَتك، والسلام.

* محاسبة النفس فضيلة: يجب على المُسلم التحلِّى بها.. وكان السلف الصالح لا ينام أحدهم حتى يُحاسبَ نفسه عن أفعال يَوْمه؛ فإذا رأى سيئة استغفر الله منها إذا كانت متصلة بحقوق الله، أما إذا كانت تتصل بحقوق العباد استَغْفَرَ منها، ورتب نفسه فى صباح اليوم التالى لردِّ الحقِّ إلى صاحبه أو يمكنه من القصاص منه أو استعفائه. وإذا رأى حسنةً حَمدَ الله عليها، وهذه العملية تشبه فى الأعمال التجارية تقفيلَ حساب اليوم (له / عليه). ومن أقوال الفاروق عمر رضى الله تعالى عنه: حاسبوا أنْفُسكم قَبْلَ أَنْ تُحاسَبُوا، وزنُوا أنفُسَكم قَبْلَ أَنْ تُوزنُوا، وتزيَّنوا للعَرْضِ الأكبر، يومئذ تُعرَضون لا تَخْفَى منكم خافية. وقال المحاسبى: أى يزنها وزن من لا يَدَعُها تميل إلى الباطل وزن مثقال ذرة. ومَن واظَبَ على مُحاسَبة نفسه كل يوم رزَقه الله من فضله اليقظة عند كل همة للنفس البعيدة عن الصفوة، فيزجرها عن المعاصى حتى تستقيم حالُها مع منهج باريها.

* * *

٩١- «سُئل يحيى بن معاذ رحمه الله: كيف يصنع التائبُ؟

قال: هو مَنْ عُمْرُهُ بَيْن يَوْمَيْن: يَوْمٌ مَضَى، ويَوْمٌ بَقِيَ، فيُصلحهما بثلاث:

أما ما مَضَى: فبالندَم والاستغفار، وأما ما بقى: فيترك التخليطَ وأَهْلَه، ولُزوم المُريدينَ، ومُجَالَسَة الذاكرينَ، والثالثة: لزوم تصفية الغذاء، والدؤوب على العمَل».

● هذه العبارة فى معنى العبارات التى سبقتها.. وجَدٌّ فيها كلمتان: «التخليط وأهله»: أى الأصدقاء الذين يخلطون عملاً طيبًا وآخر سيئًا وما أكثره، والكلمة الثانية «تصفية الغذاء»: أى أن يكون من حَلال.

* * *

٩٢- «عَلامةُ صِدْقِ التَّوْبَة: رِقَّةُ القَلْب، وغَزارةُ الدَّمْع»

● القَلْبُ مالكٌ للجوارح وأميرٌ عليها، ومتى ما رَقَّ القلبُ مِن خَشْيَةِ الله بعد الذنب سارَعَتِ العينُ بدمُوعها تُعلِن أَسَفَه لسقطته، وصِدقَ توبته.

* * *

٩٣- «ليس بعارفٍ مَن لم يَكُنْ غايةَ أَمَلِه من ربِّه العَفْوُ» [صفة الصفوة: ٤/ ٩٣].

● إذا كان الخَلْقُ متعلِّقينَ بالأسباب فإن قلب العارف متعلِّق بربِّ الأسباب، وقد زال عُجْبُه بعمله، وجثم الخوفُ على قلبه، فلم يجد الأمل إلا فى عفوه. يقول الحبيب المحبوب صلوات الله وسلامه عليه: «لن يُدخل أحدًا عملُه الجنةَ، ولا أنا، إلا أن يتغمدنى اللهُ بفضلِ رحمته، فسَدِّدوا وقاربوا، ولا يتمنى أحدكم الموت؛ إما مُحسنٌ، فلعلَّه يزداد خيرًا، وإما مسىءٌ فلعله أنَ يستعتب» رواه الشيخان.

* * *

٩٤- «للتائب فَخْرٌ لا يُعادلُه فَخْرٌ فى جميع أفخاره: فَرَحُ الله بتَوْبَته.» [الحلية: ١٠/ ٥٩، صفة الصفوة: ٤/ ٩٤].

● عن عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوبَة عبده المؤمن من رجل نزل فى أرض دَوِيَّة (أى صحراء) مُهْلكَة، معه راحلتُه عليها طَعامُه وشرابُه، فوضع رأسه فنام نَوْمةً،فاستيقظ وقد ذهبت راحلتُه، فطلبها حتى إذا اشتد عليه الجوع والعطش قال: أرجع إلى مكانى الذى كنتُ فيه فأنام حتى أموتَ؛ فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلتُه عنده عليها زادُه وشرابُه. فاللهُ أشدُّ فَرَحًا بتوبة العبد المؤمن من هَذا براحلته وزاده.» أخرجه الشيخان والترمذى. وزاد فى رواية مسلم: ثم قال: «اللهم أنت عبدِى وأنا ربُّك، أخطأَ مِن شدَّة الفَرَح».

* * *

٩٥- «إنْ وضَعَ علينا عَدْلَه لم تَبْقَ لنا حَسَنَةٌ، وإنْ أنالَنا فَضْلَه لم تبق لنا سَيئةٌ.» [الحلية: ١٠/ ٥٢].

● هذه عقيدةُ أهل السُّنَّة والجماعة؛ فلو عامَلَنا بِعَدْله لم تبق لأتقى أتقيائنا وأعبدِنا حَسنةٌ؛ لأن

عبادته لا تُعادل نعمةَ إيجاده لنا من العدم فضلاً عن سائر نعمه تعالى التى لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، فإنْ عذَّبه كان ذلكَ منه عَدْلاً، وإنْ عفَى عنه وأَدْخَلَه الجنةَ كان ذلك مَحْضَ فَضْلٍ.. ويقول الناظم:

وجازَ للمَوْلَى يُعذِّبُ الوَرَى ... من غير ما ذَنْبٍ ولا جُرمٍ جَرَى
فكلُّ ما منْهُ - تعالى - يَجْمُلُ ... لأنه عن فعْلِه لا يُسْألُ
فإنْ يُثِبْ فإنه من فَضْلِه ... وإنْ يُعذِّبْ فبِمَحْضِ عَدْلِه

روى مسلم عن جابر عن النبى ﷺ: «لا يُدخل أحدًا منكم عملُه الجنةَ، ولا يُجير من النار، ولا أنا إلا برحمة الله». وروى أحمد فى كتاب الزُّهْد: «أن الله أوحى إلى موسى: يا موسى أَنْذر الصِّدِّيقينَ؛ فإنى لا أضع عَدْلى على أحد إلا عذَّبتُه من غير أن أظلمه، وبشِّر الخاطئين؛ فإنه لاَ يتعاظمنى ذَنْبٌ أن أغفره ما تاب العبدُ واستَغفرنى فيه».

● ومن فضل الله وسَعة رحمته تعددت أبوابُ مغفرته وأسبابُها.. وقد جمعها بعض الصالحينَ فى عشرة فقال: «مُكفِّرات الذُّنوب عشرةٌ: ١ - الاستغفارُ. ٢ - التوبةُ. ٣ - عملُ حسنة. ٤ - مصائبُ الدنيا وهمومُها. ٥ - أحوالُ البَرْزَخ. ٦ - أهوالُ يوم الحَشْر. ٧ - دَعواتُ الغَيْرِ. ٨ - هدايا الغير من ثواب أعمال. ٩ - شفاعاتُ يوم القيامة. ١٠ - تداركه رحمة الله».

* * *

٩٦- «سيِّئةٌ مغفورةٌ خَيْرٌ من طاعةٍ مَرْدُودة لا تُقْبَلُ منْكَ.» [علم القلوب: ١٦٥].

● قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]؛ ومن حديث أبى ذر رضى الله تعالى عنه يرفعه: «اتَّقِ الله حيثما كنتَ، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالق الناسَ بخُلُق حَسَن» [صحيح الجامع الصغير]؛ فالسيئةُ إنْ تبعتها توبةٌ أو عملٌ صالحٌ أذهبتها كأنْ لَم تَكُنْ، وحَلَّ محلَّها حسنةٌ، أما الطاعة - التى خالطها شىء من آفات العمل كرياء أو عجب بالعمل أو إدلال به - فلا تُقْبَلُ، ولا تسجل فى صحيفته، بل يقال - إن كان مرائيًا - فعلتَ لكى يقال إنك كريمٌ مثلاً وقد قيل هكذا.. والمُحصِّلة: سُجِّلت له السيئةُ المغفورةُ حسنةً، بينما لم يُرصد له من الطاعة المردودة شىءٌ.

* * *

٩٧- «إن اللّهَ رَضِيَ على قومٍ فغفر لهم السيئاتِ، وغَضِب على قومٍ فلم يقبل منهم الحسنات» [صفة الصفوة: ٤/ ٩٥].

● ممّا قيل فى محبة الله لعباده ورضاه عنهم: إنها إرادةُ الإحسان إليهم واللُّطف بهم؛ وقيل

أيضًا فى محبة العباد لربهم: إنها مَحبَّةُ أوامِرِه ونواهيه وتحصيل مراضيه.

وعلى ذلك فإن الله إذا رضى على قوم غـفر لهم السيئات، وإذا غـضب على قوم لم يقبل منهم الحسنات، والمثالُ فى ذلك من قصة أكْلِ أبينا آدم عليه السلامُ من الشجرة المَنْهِىِّ عنها.. فإبليسُ كان مُحرِّضًا، وآدم كـان مُنفِّذًا.. فتلقَّى آدم من ربـه كلمات فتـاب عليه.. وبقى إبليس مـغضـوبًا عليه ملعونًا إلى يوم الدِّين.

ومن دعـاء أبى الحسنِ الشـاذلى رحـمه الله: واجـعل سيـئاتنا سيـئـات مَن أحـببتَ، ولا تجـعل حسنـاتنا حسنات مَن أبغـضتَ؛ فالإحسانُ لا ينفع مع البُـغض منك، والإساءة لا تَضُـرُّ مع الحُبِّ منك.

وقال أبو سليمان الدارانى: «ليس أعمالُ الخَلْق بالذى يُسخطه ولا بالذى يُرضيه، إنما رضى عن قوم فاستعملهم لعمل أهل الرضا، وسخطَ على قوم فاستعملهم بعمل أهل السخط». انتهى. كما أن الندم والتوبة والاستغفار بعد الذنب ثوابُها أكثر وأكبر من بعض الطاعات.

***

٩٨- «كم من مُستغفر ممقوتٌ، وسـاكت مرحومٌ؛ هذا استـغفر اللهَ وقَلْبُه فـاجرٌ، وهذا ساكِتٌ وقلبه ذاكِرٌ» [صفة الصفوة: ٤/ ٩٣].

● يدعونا شيخنا يحيى إلى عدم الاغترار بالمَظاهر؛ فالأول يستغفر الله بلسانه، ولكن الله يَمقُتُه لأنه يجد فى قلبه حلاوةَ المعصيـة التى يستغفـر الله منها، أو يقولها.. والشـانى ساكِتٌ تحسبـه لاهيًا ولكن قلبه مُشتغلٌ بِذِكْرِ الله.

***

٩٩- «ذَنْبٌ أَفتقِرُ به أَحَبُّ إلىَّ مِن طاعة أعْجَبُ بها.»

---

* إعجابُ المرء بطاعته يحبطها كما يمقتـه الله من أجل اعتماده على طاعته؛ وإعجابه بها يجعله يتكبر بفعلها، ويستصغر مـن الخلق مَن لا يفعلها، وهو مُخطئٌ فى كل هذا؛ إذ لا سبيلَ إلى الطاعة إلا بتوفيق الله له. فهـو جل جلاله - مبدأ الخيرات ومنتـهاها، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]. وكان الأَوْلَى بالعبد المعجب بطاعته أن يَرُدَّ الأمرَ إلى صاحب الأمر، فيحمد الله أنْ وفَّقَه إلى هذا، يقول الشاعر الحكيم:

إذا لم يَكُنْ عَونٌ من الله للفَتَى	فَأكْثَرُ ما يَجْنِى عليه اجتهادُهُ

كما أن الذَّنْب إذا تبعه توبةٌ تمحه، ويكون ما يعود على العبد من توبة وإنابة وعزمٍ على عدم العود، حسنات تمحو الذنبَ وزيادة..

***

١٠٠- «ألْقِ حُسْنَ الظَّنِّ على الخَلْق، وسُوءَ الظن على نَفْسكَ؛ لتكون منَ الأوَّلَ فى سَلامة، ومن الآخرِ على الزيادة.» [الحلية: ١٠/ ٦٣].

• يبدأ الظنُّ بخاطر يراود العقلَ، ولكن متى مالت إليه النفسُ واعتقده القلبُ صار ظنًا.. والخواطر وحديثُ النفس والشَّكُ مَعْفوٌ عنها جميعًا.. ولكن الظن بعضه سيئ.. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

• **أنواع الظنون وأحكامها:**

١ - كلُّ ظنٍّ سيىء لا يقوم على سبب ظاهر، فهو حرامٌ.

٢ - الظن السيىء المبنى على سبب يحتمل التأويل الحسن: حرام.

٣ - مَن كان ظاهرُه الصَّلاح والأمانةَ والسّترَ: فالظنُّ السيئُ به حرامٌ.

٤ - مَن اشتُهر بين الناس بالفساد والمجاهرة بالفِسْقِ، فالظنُّ السيئ به حَلالٌ لوقته، مع توقع التوبة وصلاح الحال.

٥ - تحسينُ الظنِّ بالخَلْقِ عُمومًا مطلوبٌ شرعًا، ويُجازَى فاعلُه، إلا مَن كان مستحقًا لسوء الظن عن بينة.. بذلك تسلم من الوقوع فى المعصية ويسلم لك دينُك.

٦ - ينشأ الظنُّ الخبيثُ من القلب الخبيث، لا فى جانب الحق، ولا فى جانب الخلق» قالها زرُّوق، وقد يجر سوءُ الظن صاحبَه إلى فعل المُوبِقات، يقول الشاعر:

إذا ساءَ فِعْلُ المَرْءِ ساءَتْ ظُنُونُه	وصَدَّقَ ما يَعْتَادُهُ من تَوَهُّمِ
وعادَى مُحِبِّيه بِقَولِ عَدُوِّهِ	وأصْبَحَ فى لَيْلٍ من الشَّكِّ مُظْلِمِ

وعدوُّه هنا هو الشيطان أو غيره.

٦ - هناك فَرْقٌ بين الحِرْصِ فى التعامل مع الناس، وسوءِ الظن بهم؛ فإن الغَفْلَةَ تُودى بصاحبها إلى

كثير من المتاعب، والفطنة تُحميه من ذلك، يقول الشاعر:

لا يَكُنْ ظَنُّكَ إلا سَــــيِّــــئًـــا ... إنَّ سُـــوءَ الظَّـنِّ من حُـــسْنِ الفِـطَن
مـــا رمَـى الإنســـانَ فى مَـــغْلَـطة ... غَـيْــرُ حُــسْنِ الظَّــنِّ والفِكْرِ الحَـــسن

٧ - حسن الظن بالنفس من غير أمارة: مذموم؛ فالشعور بالكمال مدعاة للانحطاط عنه، فما بالُكَ لو كان ليس علـى أساس.. كمـا أنه مَدْخَلٌ فَسيحٌ للشيطان ينفخ فى الذات فـتنتفخ إعـجابًا وكِبْرًا، فيحتقر مَن دُونَه، أو يعـجب بعمله فيحبطه، وقد يصل حسنُ الظَّنِّ بالرجل أن لا يرى ذُنوبَه، أو يستصغرها فلا يتوب منها.

٨ - وقد يُعْجبُ الناسُ برجل فـيمدحونه بما فيه وقد ينافـقوه فيمدحونه بما ليس فيـه، فيُقوِّى ذلك حُسن ظن الرجل بنفسـه.. ويترك يقينه فى نفسه - وهو أعلم بنـفسه منهم - إلى حلو الكلام فـيه، فـيهلك، وكـان أبو بكر الصـديق رضى الله عنه يقـول إذا مُدح: «الـلهمَّ أنت أَعلمُ منِّى بنَفْسِى وأنا أعلمُ منهم بنَفْسِى، اللهمَّ اجعلنى خيرًا مما يحسَبون، واغفِر لى ما لا يعلمون، ولا تؤاخذْنى بما يقولون».

٩ - وسُوءُ ظنك بنفسك محـمودٌ إذا دفعك إلى الإقـبال على الطاعات واجـتناب المعاصى؛ فـقد سُئِلت السيـدةُ عائشـةُ رضى الله تعالى عنهـا، متى يكون الرجل مُـحْسِنًا؟ قـالت: إذا ظَنَّ أنه مُسِيءٌ.

١٠ - وظنُّك السُّوءَ بنفـسك لا تكن مفرطًا فـيه، حتى لا يُسلمك إلى الإياس، قـال الخوَّاص: إياكَ والإكثارَ من ذكْرِ نقائصك لأن به يقل شكرك، فما رَبِحْـتَه مِن جهة نظرك إلى عيوبك خسرتَه مِن جـهة تعـامـيك عن المحاسن التى أودعـهـا الله فيك، وشـهـود المحاسن هو الأصل، وأمـا نقائصك، فإن النظر إليها بقدر الحاجة لئلا يقع العجب.

* * *

١٠١ - «الذى حجب الناسَ عن التوبة: طولُ الأمل.» [صفة الصفوة: ٤/ ٩١]

• تأخير التوبة مِن طُول الأمَلِ حماقـةٌ؛ لأن الموت يأتى بغتةً، وطولُ الأمَلِ مَدْعاةٌ للكسل. يقول لشاعر:

قـــال الشـــبـــابُ غـــدًا نتـــوبُ ... فـــمـــا يقـــولُ الشّـــيـبُ

* * *

١٠٢- أنا مشغولٌ بذنبى يا رجل كُفَّ عنى، إنَّ قلبى فى شغلْ
كنت أرجو توبةً تدركنى وأرى قلبى بويلى يشتغلْ
ذهبت نفسى بلا شك على إننى أدفعُ دهرى بالعللْ

[الحلية: ١٠/ ٥١]

● يخاطب شيخنا رجلاً تخيله - كعادة الشعراء - أو على الحقيقة.. يرجوه أن يدعه وشأنه؛ فعنده ما يشغله.. ومن ذلك كيف يحصِّل التوبة، وقلبه لا يعينه على ما لا يريد.. وقد ضاعت أيامه وضاعت معها نفسه بين طول أمل، وتسويف إلى أجل، وتنميق للعلل.

* * *

١٠٣- «هَلُمَّ يا ابنَ آدم إلى دخولِ جوار الله تعالى بلا عمل، ولا نَصَبٍ ولا عَناء؛ أنت بين ما مضَى من عمرك وما بقي؛ فالذى مضى تُصلِحه بالتوبة والندم، وليس شيئًا عملته بالأركان، فإذا أنت نجوتَ بغيرِ عملٍ مع القيامِ بالفرائض، وهذا ليس بعمل، وهو أكبر الأعمال؛ لأنه عملُ القلبِ، والجزاءُ لا يكون إلا على عمل القلب.» [صفة الصفوة: ٤/ ٩٢]

● يدلنا شيخنا يحيي على ما نصلح به ما مضى من أعمالنا، وهى عن طريق التوبة ،والتوبة لا تكلفنا نصباً ولا عناءً تقوم به الأبدان، إنما هى عمل القلب.. فإذا نحن بتنا تائبين توبة نصوحًا مستغفرين منيبين، وأصبحنا نعمل بالفرائض الحاضرة كان هذا عملا طيبًا يَسيراً. نسألُ اللهَ الرحمنَ الرحيم قبوله.

* * *

١٠٤- «لستُ أَبْكِي على نَفْسِي إنْ ماتتْ، وإنما أبكى على حاجتى إنْ فاتتْ.»

[النبلاء: ١٣/ ١٥]

● النَّدمُ والنَّدامةُ: التَّحسرُ من تغيُّر رأى فى أَمْرٍ فائت.. لا يبكى نفسه إنْ ماتت؛ فالموتُ حقيقةٌ واقعةٌ لا خيار فيه، كما أنه كيف يبكى نفسه وقد ماتت.. إنما يبكى حاجتَه إنْ فاتت.. بين اكتساب طاعات والقيام بالعبادات والبُعد عن المعاصى والزَّلات.. وضياع هذا من الغفْلة، والغَفْلةُ بأن لا يخطر الخير على باله فى أوانه، بل يخطر بعد زوال زمانه، فيكون حَسْرةً ونَدامةً، أو نتيجةً لموافقة

النفس والهوَى.. وكلاهما يستوجب التحسُّرَ والنَّدمَ.

***

١٠٥- «الفَوْتُ أشَدُّ من الموتِ؛ لأن الفوتَ انقطاعٌ عن الحقِّ، والموتُ انقطاعٌ عن الخَلْقِ» [الرسالة: ٢٧]

فى معنى التى قبلها، وقال الجُنَيْدُ رحمه الله تعالى: لو أَقْبَلَ صادقٌ على الله ألْفَ سنة، ثم أَغْمَضَ عنه لحظة، لَكان ما فاته أكثر مِمَّا نالَهُ.

***

١٠٦- «يابن آدم، ما لَكَ تَأسَفُ على مَفْقود لا يَرُدُّه عليك الفَوْتُ، ومالك تفرح بموجود لا يتركه فى يدك الموت!؟» [الحلية: ١٠/ ٦٠، طبقات السلمى ٢٧]

• الأسفُ على مفقود من أعراض الدنيا - يُعدُّ مِن نُقصان العَقْل، وقديمًا قالوا: البُكاءُ على اللَّبَنِ المَسْكوب حَمَاقةٌ.. وذلك لأن الشىء لا يبقى فى حوزة المرء طويلاً، فلابد أنَّ أحدَهما يُفارِقُ الآخَرَ؛ إما بفقد الشىء، أو بموت الفرد. والعبارة فى جملتها تحضُّ على الاعتدال فى استقبال ما يُفرِح والاعتدالُ أيضًا فى استقبال ما يؤلم من شئون الحياة، روى مسلم عن النبى ﷺ: «يا عائشة، إنَّ الله رفيقٌ يُحبُّ الرِّفْقَ، ويُعْطِى على الرِّفْقِ ما لا يُعْطِى على العُنْفِ وما لا يُعطِى على ما سِواه» وفى رواية لأحمد: «يا عائشة إن الله يحب الرفق فى الأمر كله».

وها هو جعْفَرٌ الصادقُ بن محمد الباقر بن علىٍّ زين العابدين بن الحسن السِّبط رضى الله عنهم أجمعين وكان قد مات بين يده ولدٌ من غُصَّة اعتَرَته فبكى وقال: «لئن أخذتَ فقد أبقيتَ، ولئن ابتليتَ لقد عافَيْتَ، ثم حمله إلى النساء، فصَرَخْنَ حين رأيْنَه، فأقسم عليهن ألاَّ يصرخن، ثم أخرجه إلى الدَّفْن وهو يقول: سبحان مَن يَقبض أولادنا ولا نزداد له إلا حبًّا. وقال بَعْدَ أنْ واراه التُّراب: إنَّا قومٌ نسأل الله ما نحب فيمن نحب فيعطينا، فإذا أحبَّ ما نكره فيمَن نُحبُّ رضينا.».

***

١٠٧- «المَغْبونُ يوم القيامة مَن فيه ثلاثُ خصال: مَن قرض أيامه بالبطالات، وبَسَط جَوارِحَه على الحَسَرات، ومات قبل إفاقته من السَّكَرات.» [الحلية: ١٠/ ٥٨].

• الخاسرُ يوم القيامة مَن أضَاع عُمره فى كل ما هو باطِلٌ ولا طائِلَ للآخرة منه، وتَسرَّبت أيامُ

عمره منه وهو سادرٌ فى غيِّه، ترك جوارحه تجترح السيئات بلا ضابط كأنها السائمةُ فى المراعى الطبيعية، وزاره هادمُ اللّذّات وهو فى سكْراته فَجْأةً بلا سابقِ إنذارٍ، فلّم يتمكن من الندم على ما ارتكب ولم يَتُبْ ممّا فعل، فخفّتْ موازينهُ.. فأُمُّه هاوية.

***

١٠٨- «اغتمَمْتُ لثلاث:

«للذُنوب أسلفتها، وأيام ضيَّعْتُها، والخَصْلَةُ الثالثة وفيها الخطر العظيم: وقُوفى بيَن يدىّ الله عز وجل، لا أدرى ما يبدو لِى منه.» [الحلية: ١٠/ ٦٩]

• هذه فى معنى العبارة التى قبلها، وتزيد عنها فى خوفه مما يحكم الله به ولا يدريه هو: أإلى الجنة ونعم الجوار، أمْ إلى النار وبئس القرار؟

***

١٠٩- «لا تكُنْ ممَّنْ يفضحه يَوْمَ مَوْته مِيراثُه، ويَوْمَ حَشْرِه مِيزانُه.» [طبقات ابن الملقن: ٣٢١]

• إذا كنتَ فى الدنيا تَعظُ الناسَ وتحضُّهم على العمل الصالح فإن ميراثك يوم موتك يفضحك إذا كنت مُكتنزًا من المال الكَثير فلا حول ولا قوة لك ساعتها حتى تخفيه عن الناس، ومثله إعلان يوم الحساب نتيجة الميزان؛ فالحذر من هاتين الفضيحتين. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

***

الباب التاسع

الوَرَعُ

١١٠ - قال شيخنا يحيى بن معاذ رحمه الله: «الوَرَعُ: الوقُوفُ عند حَدِّ العِلْمِ مِن غير تأويلٍ ولا قِياسٍ.» [الرسالة: ٩٠]

● إذا كانت التَّقْوَى هى الإقبال على الطاعات وترك المحرمات، فإن الوَرَعَ يزيد عنها الوقوفَ عند الشبهات، والكفَّ عن المُباحات، والاقتصار على الضرورات.

● التأويل: التفسيرُ وردُّ الكلام إلى الغاية المقصودة منه.

القياس لغةً: تقدير الشئ بشيء آخَر، واصطلاحاً عند الأصوليين: هو إلحاقُ أمر لم يرد حُكْمُه فى الكتاب والسُّنَّة أو الإجماع، بأمر ورد حكمه فى أحدهما، وذلك لاشتراكهما فى علَّة الحكم، فمثلاً لا يورِّث الأصوليون قاتلَ مَن أَوْصَى له بشيء.. ولم يَرِدْ فى ذلك حُكْمٌ فى الكتابَ أو السنة أو الإجماع؛ ولكنهم قاسُوا ذلك على حرمان قاتلِ مورِّثه من الميراث للحديث الشريف «لا يُوَرَّث القاتلُ» والعلَّة فى ذلك اشتراكهما فى استعجالَ الميراث بقتل المورث أو الموصى. واتفق جمهورُ الفقهاء علىَ أن القياس أصلٌ من أصول التشريع، ودليلٌ على الأحكام الشرعية العملية، واعترض عليه النَّظَّامُ والظاهريةُ وبعضُ الشيعة، وقالوا: إنه ليس بحُجَّة.

● وعبارة شيخنا ابن معاذ هل تعكس اتجاهاً شيعيًا يعتقده فى هذه النقطة؟ الله أعلم، أم أن القصد منها أن الوَرِع لا يتأول ولا يبحث عن فتاوى فى الأمور المشتبهات والتى لم يأت فيها نَصٌّ واضحٌ، وهو ما نرجِّحه.. قال ابن سيرين وهو من شيوخ التابعين: «ليس شيءٌ أهون علىَّ مِن الوَرَع؛ إذا رابنى شيءٌ تركتُه».

قال رسول الله ﷺ «دَعْ ما يَريبُكَ إلى مالا يَريبُكَ» (صحيح) ومن حديث النعمان بن بشير يرفعه: «إنَّ الحلالَ بيِّنٌ وإن الحرامَ بيِّنٌ، وبينهما مُشْتَبَهاتٌ لا يعلمهنَّ كثيرٌ من الناس، فمنَ اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرْضه، ومَن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام، كالراعى يَرْعَى حَوْلَ الحمى يُوشك أَنْ يَرْتَعَ فيه، ألاَ وإنَّ لكلِّ مَلك حمًى، ألا وإنَّ حمَى الله مَحارمُه، ألا وإنَّ فى الجسد مضغةً إذَا صَلَحت صلح الجَسدُ كلُّه، وَإذَا فَسدتْ فسد الجَسدُ كلُّه، ألا وهى القَلْبُ (رياض الصالحين).. ومن حديث عطية السعدى يرفعه: «لا يَبلغ العبدُ أن يكون من المُتَّقينَ حتى يَدعَ ما لا بأسَ به حذراً مما به بَأسٌ» وروى عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم كانوا يتركون سبعين باباً من الحلال مخافة أن يقعوا فى الحرام، وقيل للنصرباذى: إن بعض الناس يجالسون النِّسْوانَ، ويقول أنا

معصومٌ في رؤيتهن!! فقال: «ما دامت الأشباحُ باقيةٌ، فإن الأمر والنهي باقٍ، والتحليلُ والتحريمُ مخاطَبٌ به ولن يجترئ على الشبهات إلا من تَعرَّض للحُرمات».

***

١١١ - «الورَعُ اجتنابُ كل ريبة وتركُ كل شبهة، والوقوفُ مع الله على حد العلم من غير تأويل.» [الزهد الكبير رقم: ٨٤٤].

● في معنى العبارة السابقة .

***

١١٢- «الوَرَعُ على وجهين : ورع في الظاهر، وهو أن لا تتحرك إلا لله تعالى. وورع في الباطن، وهو أن لا يدخل قلبَك سواه تعالى» [الزهد الكبير رقم: ٨٥٢]

● ورع الظاهر: أن تكون حركة جوارحه كلها في رضاء الله وحسب شريعته، متجَنِّباً للكبائر جميعها والصغائر ومن ذلك:

١ - التحرُّز عند الحديث عن الناس؛ حتى لا يتشعَّب نحو غِيبتهم.

٢ - التبرؤ مِن مظالم الخَلْق؛ حتى لا يكون لأحدهم قِبله مَظْلَمةٌ

٣ - قِلَّة الكلام إلا في أمْرٍ شَرْعي، فيه صَلاحُ دينه أو حياته، والحديث الصحيح: «مِن حُسن إسلام المَرء تركُه ما لا يَعنيه»

٤ - لا يَرمي ببصره في كل اتجاه فيتشتت فِكْرُه فيما حَوْلَه، وينشغل عن ربِّه، وقد يقع على محرَّمٍ.

● ورعُ الباطن: أي حركةُ القلب وطهارتُه، وصُوَرُ ذلك:

١ - تحرير النوايا من الرياء قبل قيام الجوارح بالأعمال.

٢ - أن لا يعجب بعمله، ولا يَمُنُّ به على الله.

٣ - لا يحمل في قلبه ذرَّةَ حقدٍ أو ضغينةٍ لواحد من المسلمين.

● هذا من جانب التخلية، فماذا يكون من جانب التحلية؟

١ - شغلُ قلبه بالله.. ويساعده على ذلك أن يوزع وقته بين حالتين: إمّا أن يشهد نعمة فيحمَده عليها، والثانية: وإمّا أنه في بلية فلينظر فقد تكون ذَنْبًا جناه، أو عقوبة ترتبت عليه، اختباراً له، وهذا يقابله: إما أن يكون مستغفراً، أو داعياً راجيًا أو راضياً.. وبذلك يكون قلبه

كلتا الحالتين متعلقا بربه ذاكراً له..

٢ - مَن كان قلبه مشغولاً بالله لا يريم يذكره.. حتى فى الأعمال المباحة يستطيع أن يضع لها نوايا طيبة تحولها إلى عبادة.. وقالوا: بالنوايا تتحول العادات إلى عبادات.. فالأكل يكون عبادة إذا نوى المرء به حفظ بنيان الله، ونية أخرى الإعانة على القيام بالطاعات، حتى إتيانه النساء، يقول الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: «إنى آتى النساء، وليس لى بهن حاجةٌ إلا أن أرزق بذرية يباهى بها رسولُ الله ﷺ الأمم يوم القيامة..» وقد سئل الشبلى: ما الورع؟ فقال: أن تتورع ألا يشتت قلبك عن الله عز وجل طرفة عين..

***

١١٣ «الوَرَعُ من ثلاثِ خصال: عِزّ النَّفْس، صِحَّةُ اليقين، وتوقُّعُ الموت». [الحلية: ١٠/ ٦٨].

• عز النفس: لما ركبت النفس فى الجسم برغباته صارت أَمّارة بالسُّوء، تطلب الشرور وتقوى عليها، وإن مكنتها مما تشوفت إليه بَطِرتْ وتشهت المزيد، تحب الفوضى وتكره القيود، وما تدرى أنها بذلك تنزلق نحو هُوَّة الندم والذَل.. ولو تدبرت النفسُ شأنها لَعرفتْ أن عِزّها فى مرْضاة ربها، وأن خضوعها لشرعِ باريها فيه فَلاحُها ونجَاحمها، ولله دَرُّ القائل:

لا يصلح الناسُ فَوْضَى لا سَراةَ لَهُمْ ... ولا سَراةَ إذا جُهّالُهم سادُوا

• قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧- ١٠]، ولا تَزْكو النفسُ إلا باتباعها لمنهج الله، فهو خالقُها وأعْلَمُ بما يُصلحها وما يُفسدها قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]..ويتم تزكيتها بمخالفة هواها شيئاً فشيئاً حتى ترتضى الفضائلَ وتهجرَ القبائحَ وترتقيَ عن كونها أَمّارةً بالسوء إلى لوّامة تُقبلُ على الطاعات، وإذا أخطأت أو فكرت فى مخالفة سارعَتْ إلى لَوْم نفسها واستغفرت ربها؛ يقول الإمام الشافعى رحمه الله تعالى:

أُهينُ لَهُمْ نَفْسِي لكى يُكْرِمُونها ... ولَنْ تُكْرَمَ النَّفْسُ التي لا تُهِينُها

وقال إبراهيم الخوّاص:

صَبرتُ على بعضِ الأذى خَوْفَ كُلِّه ... ودافَعْتُ عن نَفْسِي لنفسى فَعَزَّتِ

وجَرَّعْتُها المكروهَ حتى تدربت ... ولو جرعته جُمْلةً لاشمأزَّت

ألا رُبَّ ذلٍّ ساق للنفسِ عِزَّةً ... ويا رُبَّ نَفْسٍ بالتَّذلُّلِ عَزَّتِ

• صحة اليقين:

اليـقين: هو ارتفـاع الشَّكِّ من العلـم بالشئ؛ وهو على ثلاث مـسـتـويات: علم اليـقين، وعين اليقين، وحق اليـقين.. مع ملاحظة أن حقيـقة الشئ ثابتة لا تتـغير بين المستـويات الثلاث إنما الذى يتغـير هو درجة اليـقين وما يترتـب عليه من توجهـات فى النفس وآثار فى السلوك أحيـانًا.. تعالَ لنرى مستويات اليقين فى المسألة الإيمانية:

١ – علم اليقين: تكونت عقيدتنا الإيمانيـة إما بالاخبار عن رسول الله ﷺ ثم عظات العلماء، أو عن طريق الأدلة العقلية والنقلية.. واعتقادنا بأن الله قريب منا قرب علم وإحاطة يجعلنا نستحى منه أن يرانا حيث نهانا وأن يفتقدنا حيث أمرنا.. وهذه ثمرة علم اليقين.

٢ – عين اليقين: هو الإيمان الذى ينشأ عن مراقبة القلب لله بحيث لا يغيب عنه طَرْفَةَ عَيْن، وقد تبين له أن الله كان موجوداً ولا شيء معه، وأن وجود ماعداه عارية منه، والعوارى تسترد؛ عندها لا يبقى فى نظر العـبد من يعتـمد عليه سـوى الله.. فيثمر هذا اليقين: التـوكل عليه والتفـويض إليه، والاستسلام لأحكامه والرضا بقضائه.

٣ – حق اليقين: والحقـيقة الإيمانية ألاّ تشهد إلا الله، حتى نفسك لا ترى لها وجـوداً ولا عدمًا فقـد فنيت فى الله : أى لم يعد لهـا صفة الإحســاس بالذات حتى ولاحظَّ نفس، فـهى لا ترى لها أفعالاً لله إلا بالله، وتشهد الله فى كل شيء، من غير حلول ولا اتحاد ولا اتصالَ ولا انفصال، كما ترى وجهَك فى المرآة من غـير حلول وجـهك فيهـا. ولا اتحاده معـها ولا امتـزاجه بها. ويثـمر هذا اليقين: أن تصير كل حركات العبد فى مـوافقات الله سواء أكانت باللسان أم بالجنان أم بالأركان، لحضوره مع الله فى كل وقت وشهوده له فى كل شيء – كما بيّنّا – أى شهود قدرته وحكمته.

• ذِكرُ الموت والورع: وفوائدُ ذكـر الموت ثلاثٌ كما قال يحيى بن معـاذ، وقد ذكرناها فى باب الخوف وهى: المبادَرة إلى التوبة، والقناعة بالرِّزق ولو يسير، والنشاط فى العبادة

***

١١٤ – «مَن دَقَّ فى الدِّين نَظَرُه، جَلَّ فى الآخرة قَدْرُهُ». [الرسالة: ٩١].

١١٥ – «مَن لم ينَظر فى الدَّقيق منَ الورَع لم يَصِلْ إلى الجليل من العطاء.» [الوفيات ٦/ ١٦٧، الرسالة: ٩١].

• العـبارتان مـعناهما واحـد، إلا أن العبـارة الأولى اتصلت بموفور الجـزاء فى الآخرة، بينـمـ العبارة الثانية تُرك الجزاء فيها من غير تحديد فيشمل الدنيا والآخرة.

لكن ما هى هذه المسـائل الدقيقـة فى الدين والتى يطلق عليهـا الورع ويحظى صاحبُـها بجليـ

العطاء؟ ورأينا بعدأن عـرفنا الورع فيمـا سبق أن نكتفى هنا بإيراد أمـثلةٍ عمليةٍ للتـدقيق فى الدين حتى تكون لنا نبْراسًا نهتدى به ونقيس عليه..

• من المتعـارف عليه أن الظِّلَّ فـى الطريق مباح للـجميع، لا حُـرْمَةَ على مَن ينتـفع به.. ولكن الإمام أبا حنيفـة رحمه الله كان لا يسـتظلُّ ببيت غريمه إذا ذهب إليه يطالبـه بسداد دَيْنه ويقول فى ذلك: «كُلُّ قَرْضٍ جَرَّ نَفعًا فهو رِبًا».

• رَهَنَ الإمامُ أحمـد بن حنبل رحمه الله سطلاً عند بقال فى مكة بدرهم.. فلمـا جاء لفكاكه، أخرج البـقال إليه سطلين وقـال: خُذْ أيهمـا لك، فقال أحـمد: أشْكَلَ علىّ سطلى فـلا أستطيع أن أُحدِّده مـنهمـا، وتركَ للبقـال السطلَ والدرهمَ، وقال: هُمـا لك، وتركه يريـد الانصراف، فـسارع البقال قائلا: هذا سطلُك، إنما أردت أن أُجَرِّبك.. فانصرف أحمد ولم يأخذ منه شيئا.

• وروى مالـك رحمه اللـه فى الموطأ «أن رجلاً قـدّم إلى عمـر رضيِ الله عنه لبنًا فشـرب منه وأعجبه، فسأل عنه، فقال الرجل: إنه مرَّ علي ماء فيه إبلُ صدقة، فحلب القائمون عليها من ألبانها فجعله الرجل فى سقائه، ومنه شرب عمر، فأدخل عُمَرُ يَدَه فاستَقاءه».

• وقَبْلَه الصِّدِّيق أبو بكررضى الله تعالى عنه، لما قَدَّمَ إليه غلامُه طَعَامًا، فأكَلَ منه، ثم سأل عنه، فقال الغلام: كنتُ قد رقيتُ لقوم فى الجاهلية فلما مررتُ بهم اليوم أعْطَوْنى هذا الطعامَ، فاستقاءه أبو بكر، ولما قيل له: أكُلُّ هذا من أجل هذه اللُّقْمة؟ قال: نعم، لو لم تخـرُجْ إلا بنَفْسِى لأخرجتُها، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «كلُّ جِسْمٍ نَبَتَ من سُحْتٍ فالنّارُ أوْلَى به».

• وهذا عمر بـن عبد العزيز يستـقبل رجلاً يُحَدِّثه بشـأن مصر من الأمصـار، ولما انتهى الكلام بخصوص العمل سأل الرجلُ الخليـفةَ عن أحوال أولاده، فقام عُمَرُ مُسْرعـاً وأطفأ المصباحَ وأشعَلَ غيره، ويستفسر الرجلُ عن سرِّ ما عمله عمـر، فيقول عمر: المصباح الذى أطفَأته كان زيته من بيت مال المسلمين، وكنا نتحدث فى شئونهم، فلما تحولت للسؤال عن أحوالى أشعلنا مصباحًا زَيْتهُ من مالِ عمر.

• استـأجر إبراهيم بن أدهم دابة تحـمله إلى عمان.. وفى الطريق سـقط منه سَوْطُه، فلمـا تنبَّه لذلك نزل من على الدابة وقيَّدها ثم عاد فى الطريق ماشياً ليأتى بالسوط، ولما عاد به سأله أصحابُه: كان أيسر عليك أن تُحَوِّل رأسَ الدابة وتعود بها راكبًا لتأتى بالسوط بدلاً من السير على قدميك!! فقال لهم: كـيف؟! استأجرت الدابةَ لتسير هكذا (وأشار بيده نحـو عمان) ولم أستأجـرها للسير لتعود فى الاتجاه المضاد.

• ذهبت أختُ بِشْر الحافى إلي الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تسأله: إننا نغزل الصوف على سطح بيـتنا، وبالليل تمر الشرطة تحـمل المَشاعلَ، فـهل يجوز أن نغـزل على ضَوْئهـا؟ فسألـها ابن حنبل: مَن أنت، عـافاكِ الله؟ قـالت: أختُ بشرِ الحـافى قال: مِن بيـتكُمْ يخرج الوَرعُ الـصادق، لا

تَغزلى على ضوئها شيئاً.

ويُحكَى أن العزَّ بن عبدالسلام رحمه الله سأله رجلٌ في أمْر، فأفتاه، وبعد انصراف الرجل اكتشف الشيخُ خَطأ فتواه، فماذا يفعل وهو لا يعرف الرجلَ؟! استأجر مُنادياً يجوب الأسواق وشوارعَ القاهرة وحواريها يكرر نداءً بعينه: مَن أفتاه الشيخُ العزُّ بكذا فى المسألة الفلانية، فهذه الفتوى خطأ وصحتها كذا..

***

١١٦ - «مَن أحَبَّ زينةَ الدنيا والآخرة فلْيَنظُرْ فى العلْم. ومَن أحب رفعة الدنيا والآخرة فعلَيه بالتَّقْوَى، ومَن أحب أن لا يؤذَى فلا يُؤْذى» [الصفوة: ٤/ ٩٧].

● من أحب زينة الدنيا والأخرة فلينظر فى العلم.. فبالعلم تزدهر الحضارة وتتقدم البشريةُ ويقول الشاعر:

بالعلم والمال يَبنِى الناسُ مُلكَهُمُ لَمْ يُبْنَ مُلكٌ على جَهلٍ وإقلال

ومَن أراد الآخرةَ فعليه بالعلْم؛ فبه تتم معرفةُ الله وحقه على عباده، وبالعلم تَصِحُّ العباداتُ، وتزكو المعاملات، وتسمو الأخلاق.

● من أحبَّ رفعةَ الدنيا والآخرة فعليه بالتقوى.

لقد رتب الله - من فضله ورحمته - على القيام بما افترضه من العبادات من حسن الجزاء فى الآخرة ويسر الأمور فى الدنيا «قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦] ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ② وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [٢: الطلاق]، ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ [الجن: ١٦]، وفى الحديث القدسى: «صَلِّ لى أربع ركعات من أوَّل النهار أكْفِكَ آخرَه»، وفى الحديث النبوى«صنائع المعروف تقى مصارعَ السوء، وصدقةُ السر تطفئ غضبَ الرب، وصلةُ الرحم تزيد فى العمر.» هذا جانب من عطاء الدنيا، أما جزاء الآخرة فجنة ونعيم مقيم.

● ومن أحب أن لا يؤذى فلا يؤذى.

قال تعالى ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩] ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن العبدَ ليُحرَمُ الرزْقَ بالذَّنب يُصيبه»

وقال أيضا: «ما اختلج عرق إلا بذنب» (الحديثان من صحيح الجامع الصغير). وروى أبو نعيم والديلمي وابن عدي: «البرُّ لا يَبْلَى، والذَّنْبُ لا يُنْسَى، والدَّيانُ لا يموت، فكُنْ كما شئت، فكما تَدِينُ تُدان.».

ويروى عن الشيخ أبى إسحاق الشيرازى، قال: رأيت النبى ﷺ فى المنام فسألته عن حديث أسمعه منه وأرويه عنه فقال: «يا شيخ إن أردت السلامة فأطلبها فى سلامة غيرك منك».

***

١١٧ - «مَنْ أحَبَّ أن يَعْرِفَ مكارمَ الأخلاق فلينْظُرْ فى فنون الآداب.» [صفة الصفوة ٤/ ٩٧].

• كتب الأدب مثل: عيون الأخبار لابن قتيبة، والعقد الفريد لابن عبدربه، وغيرهما كثير.. عامرة بما تحويه من مواقف وبطولات، وحكم وعظات، مما يرشد إلى التحلى بمكارم الأخلاق ويحث عليها؛ أحيانا بالأسلوب المباشر، والبعض الآخر بما تضمنته من معان سامية بعيداً عن العظات والنصح المباشر.

***

١١٨ - «لستُ آمُرُكم بِتَرْكِ الدُّنيا، بل آمُرُكم بِتَرْك الذُّنُوب» [صفة الصفوة: ٤/ ٩٨].

• العمل فى الدنيا واجبٌ، وتعمير الدنيا ممَّا كَلَّفنا الله به إلى جانب عبادته من قيام بالطاعات واجتنا المعاصى.. ومن الغريب أن نطيعه في الأولى، ونعصيه في الثانية.

يروى عن السيدة عائشة رضى الله تعالي عنها قولها: إنكم لن تَلْقَوا الله بشىء خير لكم من قلَّة الذُّنوب؛ فمَن سَرَّه أن يسبق الدائب المجتهد فَلْيَكُفَّ نَفْسَه عن كثرة الذُّنوب». ومما يُنْسَب للإمام على قوله: «اعْمَلْ لدُنْياكَ كأنَّكَ تعيش أبداً، واعمل لآخرتكَ كأنك تموتُ غداً».

***

١١٩ - «تَرْكُ الدُّنيا فَضيلةٌ، وتركُ الذُّنوب فريضة، وأنتم إلى إقامة الفرائض أحْوَجُ منكم إلى الحسنات والفضائل» [صفة الصفوة: ٤/ ٩٨].

• الفضيلة: الشَّرَفُ والسُّلوك الطَّيِّب، وجمعُها: فَضائلُ، وهى فى الأعمال أقلُّ رتبةً من الفريضة؛ فالزهد فى الدنيا فضيلةٌ وليس واجباً كأداء الصلواتَ الخمس التى يُعاقَبُ تاركُها، كما لا يُقبل النَّفْلُ مع تَرك الفَرْض، فهل يعقل أحدٌ أن نصلى نافلة الضحى ونترك صلاة الظهرِ مثلاً، وروى أن نبيَّ الله زكريا عليه السلام قد استأجره قوم ليبنى لهم حائطاً، وفى وسط النهارَ جلس

يتناول غداءه، فوقف عليه قوم يعرفهم، فلم يَدْعُهم إلى الطعام، وبعد أن انتهى منه نظر إليهم قائلا: «إن الطَّعامَ كان قليلاً، فلو دعوتُكم لمشاركتى فيه لَقَلَّ نصيبى منه، ولَقَلَّ تبعاً لذلك جهدى فلا أستطيع توفية أصحاب الحائط حقَّهم من العمل...» فهو هنا تَرَكَ مَكْرُمَةَ الضيافة حرصًا على حقوق الآخرين.. فترك فضيلة لا يأثم تاركها للقيام بواجب يأثم إذا أهمل فيه.. فالعاقل مَن يحرص على ما ينفعه في دنياه وفي أخراه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَن أتى الله بِقَلْبٍ سليمٍ.

***

١٢٠ «علامةُ مَنِ اتَّقى اللَّهَ ثلاثُ خصالٍ: مَن آثرَ رضاه، وقارَنَ تُقاه، وخالَفَ هَواه

• مَن آثر رضاه: أى آثر رضا الله على رضا نفسه؛ فحمل نفسه على طاعة مولاه، ولم يحقق لها رغباتها إلا من من خلال منهج الله.

• وقارن تقاه قارن: أى صاحَبَ ولازَمَ.. أى أنه اتقى الله فى كل الأمور وفى جميع أحواله، يلازم التقى، ويبحث عن الحلال، وما يرضى الله، ويتجنب الحرامَ فى كل أموره، فى حال عُسره ويُسره ورضاه وغضبه.

• وخالف هواه.. يقول رسولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلم: «لا يُؤمِن أحَدُكم حتى يكون هواه تَبَعاً لما جِئْتُ به».

ويقول أبو نعيم: «خالَفَ هواه: يعنى فيما يبعده عن الله وينقصه حظّ الجزاء، ويقول البوصيرى رحمه الله :

وخالفِ النَّفْسَ والشَّيطان واعْصِهما ... وإنْ هُما مَحَّضاكَ النُّصْحَ فاتَّهِمِ

***

١٢١ - اتق على جِرابِ إيمانكَ لا يَقْرُضُهُ الفأرُ.» [الحلية: ١٠/ ٥٤]

• رجَّح جمهورُ الأشاعرة القول بأن إيمان الأمة إنسًا وجنًا يَزيد وينقص؛ يزيد بالطاعات وينقص بالمخالفات؛ فالعمل عند أهل السنة من كمال الإيمان.. وكأنى بشيخنا يحيى بن معاذ رحمه الله يُحذِّرنا من ارتكاب الصغائر والهفَوات، والتهاون فيها؛ فإنها تستنزف الإيمانَ شيئاً فشيئاً كما أنها قد تجر إلى الكبائر والعياذ بالله ، وذهاب الإيمان.. ولعل هذا يفسِّر لنا ما رُوى عن الإمام على: «مَن مَلَك زاداً وراحلة تُبلِّغه إلى بيت الله الحرام ولم يَحُجَّ، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانيا» رواه الترمذى مرفوعاً بزيادة «وذلك أن الله تعالى يقول ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا﴾». ووصفه بالغرابة، والموقوف على علىّ أصح.

***

١٢٢ - «من قوة اليقين تركُ ما يُرى لما لا يُرى» [صفة الصفوة: ٤/ ٩٥]

• قوة اليقين هو التصديق بالغيبيات تصديقًا تامًا يسوق العبدَ إلى الالتزام بشرع الله فى إفعل ولا تفعل، ونهى النفس عن الهوى؛ لأن الجنة هى المأوى قال تعالى ﴿آلَـمَ ① ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٥].. وانظر فى الزهد «الزهد ترك ما يرى لما لا يرى».

***

١٢٣ - «عجِبْتُ منْ قَوْمٍ باعُوا ربَّهم بشهوات أنفُسهم، ورقَّعُوا آخرَتَهم بدُنياهم، وطرَحُوا دِينَهم، ورفعُوا طينَهم، كلَابُ الأَمانى ، كأنهم لَا يؤمنون بيومِ الحساب». [تاريخ بغداد ١٤/ ٢٠٩].

• باعوا ربهم بشهوات أنفسهم أى قدمّوا مرضاةَ أنفسهم على مرضاة ربهم. رقعوا آخرتهم بدنياهم: أى اهتموا بتحصيل الدنيا ولو على حساب دينهم فمزقوا آخرتهم وخسروها. طرحوا دينهم ورفعوا طينهم: أى ألقوا بأوامر الدين جانبًا ولم يعملوا بها وأعلوا رايات الجسد بشهواته الدنية؛ فالدين تزكية للروح إلى عليين، والجسدُ رغباته سفلية لأنه من طين، كلاب الأمانى الدنيوية يتصيدونها ويجرون خلفها، والدنيا جيفة وطلابها كلاب كأنهم لا يؤمنون بيوم الحساب، لأنهم قصروا جهادهم علي دنياهم ولم يعملوا لأخراهم.

***

١٢٤ - «سُبحانَ مَنْ يُذْنبُ الْعَبْدُ فيستَحى هُوِ منْه!!» [الرسالة: ١٦٩]

١٢٥ - «من استحيا مِنَ الله مطيعاً: استحيا الله تعالى منه وهو مذنب.» [الرسالة: ١٧٠].

• الحياء: انقباض النفس عن القبائح خوف لحوق عار، وهذا يكون للعبد دون الرب جل جلاله، أما ما يكون لله تعالى من الحياء فهوغاياته دون مباديه، وهى الترك لحب القبائح، والسترِ للعيوب والفضائح، وعلي هذا المعنى يحمل الحديث الصحيح «إن الله تعالي حَيِىٌ ستّير يُحِبُ الحياءَ والستر؛ فإذا اغتسل أحدكم فليستتر».

• والحياء عند الناس يقول عنه الماوردى - فى أدب الدنيا والدين له - من ثلاثة أوجه: أحدهاحياؤه من الله تعالي بامْتثال أوامره والكف عن زواجره؛ والحديث الصحيح عن رسول الله

ﷺ قال: «استحيوا من الله حقَّ الحياء» قالوا: يا نبي الله إنا نستحى من الله ولله الحمدُ، قال: «ليس كذلك، ولكن مَن استحيا من الله حَقَّ الحياء فليحفظ الرأسَ وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبِلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقَّ الحياء».

الثانى: حياؤه من الناس: فيكون بكفٍّ الأذى وترك المجاهرة بالقبيح، والحديث «كل أمتى مُعَافَى إلاالمجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعملَ الرجلُ بالليل عملاً، ثم يُصبحُ وقد ستَرَهُ الله عليه فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله» متفق عليه، وروى أن حذيفة بن اليمان رضى الله تعالى عنه أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق عن الناس (أى ابتعد عن طريقهم حتى لا يروه) وقال: لا خير فيمن لا يستحى من الناس.

الثالث: أما حياؤه من نفسه فبالعفة وصيانة الخلوات، وقال تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، ومن استحيا من الناس ولم يستح من نفسه، فنفسه عنده أحسنُ من غيره.

***

١٢٦ - «ما قَدَرُوا اللَّهَ حقَّ قدْره حين خالفوه فى أمره، ما قدروا اللَّهَ حقَّ قدره حين استَخَفّوا بحفظ حرمته، ما قدر الله حق قدره من بادر الجبارَ بالمعاصى، ما قدرَ الله حق قدره مَن استعانَ علي معاصيه بنعمته، ما قدر الله حق قدره من أفنَي شبابه فى مخالفته، ما قدر الله حق قدره من ضحك بعد المعصية ملء فيه، ما قدر اللهَ حقَّ قدْره مَن اختار دنياه علي آخرته، ما قدر اللهَ حقَّ قدره مَن عمل الطاعة لطلب جنته، ما قدر اللهَ حقَّ قدْره مَن ترك المعاصى خوفاً من ناره، ما قدر اللهَ حقَّ قدْره مَن شكاه إلي أعدائه، ما قدر اللهَ حقَّ قدره مَن أرضَى نفسَه بإعظامها، ما قدرَ اللهَ حقَّ قدره مَن داهن المخلوقين بهواه، ما قدر اللَّهَ حقَّ قدره من اغتمَّ لرزق (ليس) عندهَ. (علم القلوب: ١٢٩)

● ....

الباب العاشر

الفقر والافتقار

١٢٧ - قال شيخنا يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى:

«عَلامـةُ الفَقْرِ خـوفُ زَوال الفَقْرِ.» قيـل: فما الغنى؟ قـال: الأمنُ باللَّه تعالى» [الرسالة: ٢١١].

● فَقرَ الرجلُ: أى قَلَّ مـالهُ، والفَقْـرُ العَوَزُ والحـاجَةُ، وافْـتَقَـرَ أى احتـاجَ، والافتـقار: إعـلانُ الضَّعْف، والاحتياجُ إلى الإعانة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد - ٣٨]، فالكُلُّ فقير إليه، فـبنعمة الإيجاد كان الإنسانُ ولم يك شيئاً، وتوالَتْ عليـه نعَمُ الإمـداد من روحٍ وإيمـان وطعـام وشراب، ونـعم لا تُحْـصَى.. فكان بالايجـاد وجودهُ، وبالإمداد دَوامُ وجوده وهذه حقيقةٌ كلِّ كائن.. فـأنتَ يا إنسان مفتقرٌ إليه لدوام وجودك، يستوى فى هذا الافتقار المُؤمنُ والكافرُ، والمُقرّ والناكرُ، والناسى والذاكرُ.

● علاقةُ العبد بربه تقوم على أمرين لا يَنْفَكّ أحدهُما عن الآخر، كوجْهي العملة، وهما عُبودِيةٌ وافتقارٌ».. والافـتقارُ استعانةٌ وصبرٌ، استعانة بالله فى كُلِّ أمْرٍ جَلّ أو قَلَّ، وصَـبرٌ على أمر الله فى كل حال.. ومن هذا المُنطلق أصبح للَفْظ الفقيـرَ مَعْنًى آخر غَـير معنى الفـقر.. وصار لفظَ الفقـير نَعتًا لمنَ كـانَ مؤمناً يؤدى حُقوقَ الربوبيـّة بافتقاره إلى مـولاه، راضياً بما قَدَّره وقَضـاه، سواء كان غَنياً أم كان مُـعدَمًا ولذلك لما سئل شـيخنا يحيى عن ماهيـة الفقر، قال: خَـوْفُ زوال الفَقْرِ.. وهل يقبل عاقلٌ وقد تَحـقق فى داخله بصفة الفقر أن تزول عنه هذه الصفة؟، ويقول الـهجويرى شارحًا على عبارة الشيخ يحيى: أى أن عَلامة صحة الفَقْرِ أن العبد فى كمال الولاية، وقيام المشاهدة وفَناء الصِّفَة يَخْشَى الزَّوالَ والقَطيعةَ، ثم يَصِلُ به كمالُ الحال إلى حَدٍّ أنه لا يخشى القَطيعةَ.

● وممّا قالوه فى تَوْصيف الفقير:

قال سهل بن عبدالله: الفقيرُ الصادقُ لا يسأل ولا يردُّ ولا يحبس (أى لا يدَّخر).. وهو أيضًا لا يَطلُب المَعْدومَ حـتى يَفقد الموجودَ، وقـال رويم: من نَعْت الفقير حـفْظُ سرِّه، وصيانةُ نَـفْسه، وأداءُ فرائضـه، أى أن سره يكون مـحفوظاً من الأغـراض، وجسَـده مَصُونًا منَ الآفـات، وتكونَ أحكامُ الفرائض جاريةً عليه، وقال الشِّبْلِيُّ: الفقير لا يَستغنى بشئ دُونَ الله.

***

١٢٨ - «إنما صار الفقراءُ أسعدَ حالاً علي الذكر من الأغنياء لأنهم فى حَبْس الله، ولو أُطلقوا من حصار الفقر لوجدتَ مَن ثبتَ منهم على الذِّكْرِ قليلاً.» [الحلية:١٠/ ٦٣].

• قالوا: للفقر اسمٌ ورَسْمٌ وحَقيقةٌ: رسمه إفلاس اضطرارى، وحقيقته الإقبالُ الاختياريُّ. قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢]، هذه هى طبيعة النفس، فالنفس إذا أصابها الشَّرُّ جَزِعَتْ وإلي ربها لجأت ترجو رحمته، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾ [يونس: ١٢] ولما فرَّج الله همَّه وأوْسَعَ عليه فى رزْقه نَسى فَضْلَ الله عليه بل نسب الأمر إلي نفسه، قال تعالي: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

وإن من النفوس ما يكون صَلاحُ أمرها في الفقر والضيق، ولو فُرّج عنها لسار أغلبها مع هوي نفسه وابتعد عن منهج الله القويم، ولم يثبت عليه إلا القليل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العَلَق: ٦، ٧]، أى رأى نفسه قويًا مستغنيًا عن الحق، قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، وقال شقيق بن إبراهيم: لو أن الله رزق العبادَ من غير كسب لتفرَّغوا فتفاسدوا، ولكنه شغلهم بالكسب حتى لا يتفرغوا للفساد. والحديث المروى أنّ منْ عبادى لَمَنْ لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادى لَمَنْ لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه» [تفسير ابن كثير - سورة الشورى].

• وقالوا: إن الفقر هو فَراغ القلب من الغير (أى منْ غير الله) ، والغنَى: انشغالُ القلب بالله، ولكن متى فرغ القلبُ من الغَيْرِيَّة فلا يهم إن كان صاحبَه غنيًا أو فقيراً» وقالوا أيضاً ليس الفقيرُ مَن خلا من الزاد، إنما الفقيرُ مَن خَلا من المُراد».

وقال أحدهم معلِّقاً عن دوام الاضطرار ولزوم الفقر والافتقار يناجي الحقَّ:

إنّى إليكَ مَدَى الأنفاسِ مُحتاجُ ... لو كان فى مَفرِقي الإكليلُ والتاجُ

***

١٢٩ - «ليس على وجه الأرض أحَدٌ إلا وفيه فَقْرٌ وحرصٌ، ولكن من أخلاق المؤمنين أن يكونوا حَريصينَ على طلب الجنة، فُقراءَ إلى ربهم؛ والمنافق حريصٌ علي الدنيا فقيرٌ إلى الخلق.» (الحلية: ١٠/٦٦]

• الحِرصُ: شدَّة الرَّغبة فى الشيء.

● عقد شيخنا يحيى موازنة بين المؤمن والمنافق في مجالين اثنين: الفقرُ والغنَى؛ فالمؤمن من منطلق إيمانه بغنى ربه فهو مُفتقرٌ إليه في كل أموره ساعٍ في مَرْضاته للفوز بالجنة حريصٌ على ذلك كُلَّ الحرْص، بينما نجد المنافق حريصاً على الدنيا؛ فهي منتهى مناه ومبلغ رضاه، يُكالبُ طلابها ويداهن مَن بيدهم أسبابُها في سَعْيٍ دائب، ولا يَنال منها إلا ما قسمه الله له.

***

١٣٠ - «ذَنْبٌ أفْتَقِرُ به إليه أحَبُّ إليَّ مِن عمل أُدِلُّ به عليه» [الكواكب الدرية: ١/ ٢٧٢]

١٣١ - «ذَنْبٌ أفتقر به إليه أحب إليَّ من طاعة أفخر بها عليه.» [صفة الصفوة: ٤/ ٩١].

١٣٢ - «ذَنْبٌ أتذلَّلُ به بين يديه أحب إليَّ من طاعة أُدِلُّ بها عليه.» [اللمع: ٥٠٧].

● الذُّلُّ والافتقارُ مِن صفات العُبودية، أما العزُّ والاستكبار فهما من صفات الربوبية، يقول يحيى بن معاذ ما معناه إن وقوفه بين يدى ربه مستغفراً من معصية جَناها في ذُلٍّ وافتقار إلى عفو ربه خَيرٌ وأحبُّ إلى قلبه من إدلاله بطاعة على ربِّه قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] أي المنة لله عليكم بأن هداكم أولاً؛ للإيمان إنْ صَحَّ زعْمُكم . فالكلُّ عبيدٌ لله.. والكل فقير إليه مُلتمسٌ رضاه في كل الحالات؛ فالواجب أن لا يستخف العبدَ فَرَحُه بطاعته فيتجاوز حدود العبودية التي أنعم الله بها علي عباده إلي حد الإدلال على الله والمن عليه، بل الواجب الشكر لله أن هداه إلى هذا، وما كان ليفعلها لولا أن مكَّنه الله، وهذا عندى عين الافتقار - والله يحب أن يرى أثر نعمته علي عباده وهي التلبُّس بالعبودية.

دخل رجُلٌ في ليلة العيد على أبي الحسين النوري وكان في المسجد وقال له:

أيها الشيخ، غداً العيد، ماذا أنت لابسُه؟ فأنشأ الشيخ يقول:

قالوا: غدا العيدُ ماذا أنتَ لابسُهُ ... فقلت: خلعة ساق عبده جُرعا
فَقْرٌ وحب هما ثَوْبايَ تحتهما ... قَلْب يَرَى رَبَّهُ[1] الأَعْياد والجُمَعَا
أَحْرَى المَلابسِ أَنْ تَلْقَى الحَبيبَ بها ... يَوْم التَّزاُور في الثَّوْب الذى خلعا
الدهْرُ لى مأْتَمٌ إنْ غِبْتَ يا أَمَلي ... والعيدَ ما دُمْتَ لى مَرأًى ومُسْتَمَعا[2]

(١) وفي رواية يرى إلفه.

(٢) وقيل إن الأبيات من نظم أبي على الروزباري.

١٣٣ «انكسارُ العاصينَ أَحبُّ إليَّ من صَوْلَةِ المُطيعينَ»

● هذه العبارة فى معنى التي قبلها.. ذلك أن عبودية التوبة فيها من الذُّلِّ والانكسار ما هو أحب إلى الله من بعض العبادات؛ فالذل والانكسار واللجأ إلى الله هو مخ العبادة.

***

١٣٤- «إنْ تَلَقّاني بِمَكْرٍ منْهُ اقتداراً: تلقيتُهُ بذُلٍّ منِّي افتقاراً.» [الحلية: ١٠/ ٥٤].

● المَكْرُ بالنسبة للخَلْق: تدبيرُ الشَّرِّ للغير فى خفية واحتيال، وعلى ذلك فالمكر حيلةُ الضعفاء تجاه الأقوياء.. أما إذا نُسبَ المكر إلى الذات العَلِيَّة؛ فمعناه التدبير المحكم لإبطال مكر الماكرين، وإيقاع العقوبة بهم من حيث لا يشعرون، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] وكلمة الشيخ يحيى تعنى أنه صابر فى مَجْرَى الأقدار لما دبره القادر القهَّار، يتلقى أَمْرَ الله راضيًا مُحتسبًا فى افتقار، فإن كان نعمةً تلقَّاها بالشكر، وجزاؤها من الله زيادة فى النعمة: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] وإن كانت نقمة تلقاها بالصبر وجزاؤها زيادة فى القربة: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣] وفي الحالين خيرٌ.

***

١٣٥ - نظر يحيى بن معاذ إلى طاقات رَيْحان وضعها بعضُ الصبيان فى حجرته، وقد ذَبُلَتْ وأتى بالماء يَسقيها، فسأله رجلٌ: ما تصنع؟

قال: رأيتُ هذا الرَّيحانَ ذابلاً، قد جَفَّفوهُ بتَرْكِ سَقْيه فاعتصر به قلبى فَسَقَيْتُهُ؛ لأنه هاجت لى فيه عَبرة، وكأنِّي رأيتُهُ يستسقينى بذبوله خاضعاً.»

وكان أبوه وأخوه يدعوانه إلى طلب الدنيا، فأنشأ أخوه يقول:

أَتَرْحَمُ أَغْصانًا ذَبُلَتْ ولانَتْ ... ولا تَرْحَمُ أَخاكَ إذا دعاكا

فقال يحيى مُجيبًا له:

رأيتُ أخِي يُريدُ هَلاكَ نَفْسِي ... ونَفْسِي لا تَريُد له هَلاَكا

[الحلية ١٠/ ٦٢]

● ....

١٣٦ «طاعةٌ لا حاجَةَ بي إليها، لا تمنعُني مغفرةٌ لا غناءَ بي عنها.» [صفة الصفوة ٩٦/٤]

• العبد في احتياج دائم إلى لطف الله به وفضله عليه.. والطاعات كثيرة، والكَيّس من لا تفوته طاعة سنحت له، ولو كانت نفلاً، فلا يعرف أي أعماله تقبل، ولا الطاعة التي تكون سبباً في غفران ذنوبه، ولا متى يكون عفوُ الله عنه، والأحاديث في ذلك كثيرة.. منها.. غُفر لامرأة عاهرة مرت بكلب على رأس ركّي (بئر) يلهث، كاد يقتله العطش، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغُفِر لها.

ويحكى أن حجة الإسلام الغزالى (ت - ٥٠٥ هـ) رؤى بعد وفاته في المنام في حالة حسنة فسأله من رآه: بماذا غفر الله لك يا شيخنا؟ هل بمؤلفاتك؟ أو بعظاتك أو بتدريسك العلم لطلابه؟ أو بعبادتك؟ قال الغزالى: ليس بشيء من هذا كله، إنما لأمر بسيط، كنت جالساً أكتب، وفرغ المداد من القلم فهممت أن أغمسه في المحبرة ولكنى تراجعت لحظات، فقد كانت هناك ذبابة تقف على فوهة المحبرة لتشرب، فتمهلتُ حتى طارت، فغفر الله لي ذنوبي بسبب ذلك.

ورُوىَ أن رجلاً دخل يعود عبدَالله بن المبارك في مرض موته، فوجد بجواره رجلاً يكتب العلم، فقال الزائر: وأنت في هذه الحال؟! فقال عبدالله بن المبارك: قد يكون ما ينفعنى من العلم لم يصلني بعد.

***

١٣٧ - تذاكرَ قومٌ عند يحيى بن معاذ في الفقر والغنَى، فقال: لا يوزَنُ غداً لا الفقر ولا الغنى، وإنما يوزن الصبرُ والشكرُ، فيقال: يشكر ويصبر.» [الرسالة: ٢١٤].

• قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨] ولماذا الصبر والشكر؟ ذلك لأن العبد في دنياه بين أمرين: نعمة يشكر الله عليها أو ابتلاء يصبر عليه، وفي استدامة الصبر والشكر فَلاحُ العبد، كما أن أحدهما لا يتم إلا بالآخر؛ فالصابر إذا ما شكر اللّه على بلائه استوجب مقام الرضا، والشاكر إذا ما صبر على شكره استحق المزيد؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥]

***

الباب الحادى عشر

الصَّبْرُ

١٣٨- قال شيخنا يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله : «عند نُزول البلاء تظهر حقائقُ الصَّبْرِ، وعند مُكاشَفَة المقدور تظهر حقائقُ الرِّضا» [طبقات السلمى: ٢٧]

• الصَّبْرُ فى اللغة: الكَفُّ والحَبْسُ، والإمساكُ فى ضيق . وهو نوعان :

١- جِسْمِىٌّ : وهو ما يختص بتحمُّلِ المَشاقِّ بقَدْرِ القُوَّة البَدَنية .

٢- نَفْسِىٌّ : أى ما يختص بالنَّفْسِ، وهو فضيلةٌ تامة، وهو نوعان:

(أ) صَبْرٌ عن تناول مُشْتَهًى ، ويقال له: العِفَّةَ ؛ وقالوا: الصبرُ مرٌّ لا يتجرعه إلا حر .

(ب) صَبْرٌ على تحمل مكروه أو محبوب؛ وتختلف أسماؤه باختلاف مواقعه؛ فالصبر فى الحرب يُسمَّى : شَجاعة، وفى حالة الغضب يسمَّى : حِلْماً، والصبر على فضول العيش يسمَّى: قَناعةً وزُهْداً.. إلخ .

• وهناك تصنيف آخرُ للصبر، وهو على ثلاثة أنواع :

١- صَبْرٌ على طاعة الله: بالمداومَة على القيام بها بشروطها وآدابها، وقالوا فى هذا النوع: الصبر هو ثباتُ باعثِ الدِّين فى مُقاومة باعثِ الهَوَى .

٢- صبر عن معصية الله باجتنابها: ومقاومة النفس والشيطان .

٣- صبر على امتحان الله لعباده واختبارهم بصنوف البلاء.

• والصبر فى إيجاز : الصبر على المقدور، وترك المحظور، وفعل المأمور.. ومن وصايا الإمام على رضى الله تعالى عنه: «واعلموا أن الصبر مِن الإيمان بمنزلة الرأس مِن الجسد؛ فإذا قُطع الرأس ذهب الجَسَدُ» .

• وعبارة شيخنا يحيى تتحدث عن لحظة نزول البلاء، فمنَ كان يقينُه بالله كاملاً، وإيمانُه بقضائه وقدره راسخاً صمد للصَّدْمة الأولى، لا شَكَى ولا تَبَرَّم، بل سَلَّم لله فيما قضى، واحتسب عند الله الثوابَ والأجْرَ، ومن حديث أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إنَّ الصَّبْرَ عند الصَّدْمة الأُولى» رواه الشيخان.. وقال الشاعر :

وإذا عَرَتْكَ بَلِيَّةٌ فاصْبِرْ لَها ... صَبْرَ الكَرِيمِ، فإِنَّهُ بِكَ أَعْلَمُ
وإذا شَكَوْتَ إلى ابْنِ آدَمَ إنَّما ... تَشكُو الرَّحِيمَ إلى الذَّى لا يَرْحَمُ

• وبخصوص (الرضا عند مكاشفة المقدور) سيأتي بعد في باب الرضا.

***

١٣٩- «الصَّبْرُ في الحلاوة من علامات الإخلاص، وعندي الاشتغال بمُخالَفة النَّفْسِ والهَوَى مِن علامات النَّجاة والخَلاص» [علم القلوب: ١٥٩]

• الحَلاوةُ في هذه العبارة هي حلاوة الإيمان، ومن حديث أنس رضى الله تعالى عنه في البخاري قال رسول الله ﷺ: «ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمان: أن يكون الله ورسولُه أَحَبَّ إليه مِمَّا سواهما، وأن يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّه إلا لله، وأن يَكْرَهَ أن يَعودَ في الكفر كما يكره أن يُقذَفَ في النار».

• قد يَجِدُ العاملُ بطاعة الله جل جلاله زيادةً في يقينه أو ترويحات قلبيةً تَغْمُره بلَطيف الوَصْلِ ولَذَّة القُرْب، كعاجل بشرى لما بعدها، وأمارة له على قبول عمله. وقال ابن عطاء الله السكندري: «مَن وجد ثمرةَ عمله عاجلاً فهو دليلٌ على وجود القبول آجلاً؛ وهذا غايةُ المُنَى ونهاية الأمل.. فإنْ لم يلتفت إلى هذه البشريات وظل صابراً عن معصية الله مُثابراً على طاعته فهذا هو الدليلُ على إخلاصه، فهو يعبد الله لذات الله، وامتثالاً لأمره، لا ينتظر في مقابل طاعته عوَضًا.. وكيف وهو يعمل لنَفْسه، وهل رأينا - مثلاً - مَن يَحلق ذَقْنَ نَفْسِه ويطلب أَجْرًا على ذلك مِن غيره، إنما هو محضُ فَضْلٍ من الحقِّ جل جلاله؛ قال تعالى :

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء : ٧]

• ومُخالَفةُ النفسِ والهوى والصَّبْرُ على ذلك مِن عَلامات النجاة والخَلاص، وليس هُما عَدُوَّيه فحسب كما ذكر شيخنا، بل هُمْ أربعة أعداء جمعهم شاعرٌ حكيمٌ في بيتين فأحسَنَ وأجادَ :

إِنِّي بُلِيتُ بِأَرْبَعٍ يَرْمِينَنِي ... بالنَّبْلِ عَنْ قَوْسٍ لها تَوْتِيرُ
إبليسَ والدنيا ونَفْسِي والهوى ... يارَبُّ أَنْتَ عَلَى الخَلاصِ قَدِيرُ

والشاهَدُ في حياتنا - على مستوى الأفراد بل والأمم - أنَّ مَن لا يستطيع مقاوَمَة عدوه وَحْدَه يَتحالَفُ مع غيره لصدِّه.. وليس سوى الاستعانة بالله في مقاومة المرء لأعدائه الأربعة؛ فهي طوقُ النَّجاة في لُجَّتهم، كما أنها إقرارٌ من العبد بالافتقار إلى سيِّده ومَولاه، وفي هذا نُكتةٌ لَطيفةٌ، فعداوتُهم وإنْ كانت ضارّةً إلا أن لها جانباً مُفيداً فقد ألجأت العبدَ إلى سيده، وهذا حالُ العبد الآبِقِ إذا أصابته محنة لا يستطيع منها فكاكاً آبَ إلى سيده.

• والصبر باعتبار حكمه ينقسم إلى :

١- الصبر عن ارتكاب المعَاصِي وحَبْسِ النَّفْسِ عنها.. فَرْضٌ.

٢- الصبر على الطاعات والقيام بها.. واجبٌ.

٣- الصبر عن فعل المكروهات .. نَفْلٌ.

٤- الصبر على أذية الناس له بجهة مكروهة فى الشَّرع... مكروهٌ.

٥- الصبر على من يعتدى على المال أو العِرْض.. حَرامٌ.

***

١٤٠- «صَبْرُ المُحِبِّينَ أَشَدُّ من صَبْرِ الزاهدينَ، واعَجَبًا كيف يصبرون، وأنْشَدوا:

الصَّبْرُ يَجْمُلُ فى المَواطِنِ كُلِّهـا   إلا عَلَيْكَ فإنَّـهُ لا يَجْمُلُ

[طبقات ابن الملقن: ٣٢٦]

• صبرُ المحبِّ لربه أشدُّ مِن صبر الزاهد، فالزاهد يصبر عن بعض الطعام وليس كله، وهذا حاله فى كل أمور الحياة؛ فهو يزهد فى شىء ويجد الغنى فى غيره، بل إن فى الله غِنًى عمّا زهد فيه وعن غيره، والأمر مختلفٌ بالنسبة للحقِّ جل جلاله فليس هناك غِنًى عنه، فهو الغنىُّ والكلُّ مُحتاجٌ إليه، ويرحم الله القائل:

لِكُلِّ شَىْءٍ إذا فارَقْتَـهُ عِوَضٌ   ولَيْسَ لله إنْ فارَقْتَ مِن عِوَضِ

وَيأسَى عُمرُ بن الفارض رحمه الله على مَن حُرِم مَحَبَّةَ الله فيقول:

وعَلَى نَفْسِه فَلْيَبْكِ مَن ضاع عُمْرُهُ   وليس له فيها نَصيبٌ ولا سَهْمُ

وفى معنى البيت الذى ذكره يحيى مع عبارته يقول الشاعر:

والصَّبْرُ عَنْكَ فَمَذْمُومٌ عواقِبُهُ   والصبرُ فى سائِر الأشياءِ مَحمودُ

***

١٤١- «الصَّبْرُ عَلَى الناسِ أَشَدُّ مِن الصبر على النار.

١٤٢- الصبرُ على الخَلْقِ مِن علامات الإخلاصِ» [شذرات الذهب: ٢/ ١٣٨]

• الصبر على الناس بمعنى البُعْد عن مخالطتهم والائتناس بهم شَديدٌ على النفس؛ لكون الإنسان كائناً اجتماعيّاً بفطرته.. فإذا وجد الرجلُ أُنْسَه بالله وَحْدَه فهذا عَلامةُ إخلاصه وخَلاصِه مَعاً. كما أن الصبر على أذى الناس أشد من الصبر على النار.

* * *

١٤٣ - «على قناطر الفتن جازوا إلى خزائن المنن» [الصفوة : ٤/ ٩١]

• الصبر على البلاء هو الباب الموصل إلى رضاء الله وحسن جزائه. قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر : ١٠] وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال: «أمتى هذه أمة مرحومة ليس عليها عذاب فى الآخرة، إنما عذابها فى الدنيا الفتن والزلازل والقتل والبلايا» (سلسلة الأحاديث الصحيحة) وروى البخارى عن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها عن النبى ﷺ قال: «إذا اشتكى المؤمن (أىْ مَرِض) أخلصه الله من ذنوبه كما يخلص الكيرُ خَبثَ الحديد». وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

* * *

الباب الثاني عشر

التَّــوَكُّـــلُ

قال شيخنا يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى :

١٤٤- «جِماعُ الأَمْرِ كُلِّه في شيئين : سُكونُ القلب على رزق هذه الناحية، والاجتهاد في طلب رزق تلك الناحية» [الحلية: ١٠/ ٥٣]

● رزقُ الإنسان موزَّعٌ بين دارين: الدنيا والآخرة.. ورزقه في الدنيا يحصل به قوام وجوده وزق الآخرة يتم به كمالُ سعوده.. ورزق الدنيـا قد تكفَّل الله به وضَمِنه له. قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت : ٦٠]

وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠]

والمطلوبُ لرزق من العبد الدنيا السَّعْيُ مع التوكُّل على الله، أي سعي الجوارح وحركتها لتحصيل الرزق، مع سكون القلب واطمئنانه أنَّ رزقه الذي قَدَّره له ربه سوف يأتيه.

● أما رزق الدار الآخرة فالمطلوب فيه الجِدُّ والاجتهادُ بالقلب والجوارح. قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] .

وقال إبراهيم الخواص: «العلم كله في كلمتين: لا تَتَكَلَّفْ ما كُفيتَ، ولا تُضيِّعْ ما استُكفيتَ».. وقال ابن عطاء الله في كتابه التنوير: في الآية الكريمة ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢] أي : قم بخدمتنا ونحن نقوم لك بقسمتنا، وهما شيئان: شيء ضمنه الله لك فلا تَتَّهِمْه، وشيء طلبه الله منك فلا تُـهْمِلْه، فمَن اشتغل بما ضُمِن له عمّا طُلب منه فقد عظُم جَهْلُه، انتهى. أليس من الجهل وقلَّة العقل أن يَهمل أبناؤنا التلاميذ مذاكرةَ دروسهم وينزلون إلى الشارع للعمل بينما قد وفّروا لهم في البيت كلَّ أسباب الحياة والسعادة؟! وكلنا يعيب هذا السلوك ويمارس بعضُنا مثله مع ربه!!

قال أبو علي الدقاق رحمه الله : «للمتوكِّل ثلاثُ درجات : التوكُّلُ ثم التسليمُ ثم التَّفْويضُ .

فالمتوكِّل يسكن إلى وعده، يقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]

وصاحبُ التسليم يكتفى بعلمه، يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢]

وصاحبُ التفويض يَرْضَى بحُكمه، يقول تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨] .

***

١٤٥ - «مَن يستفتح بابَ المعاش بغير مفاتيح الأقدار وُكِّل إلى الخَلْق» [الحلية : ١٠/ ٦٣]- وعند السُّلَمىّ «وُكل إلى المخلوقين».

● قد أمر الله الناسَ بالسعى فى الدنيا لتحصيل الرزق فقال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]، وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] .

وروى الشيخان عن النبى ﷺ النهى عن المسألة فقال: «لأنْ يَحْتطبَ أحدُكم حُزْمَةً عَلَى ظَهْره خيرٌ له من أن يَسأل أحداً خَيْراً فيُعطيهَ أو يَمْنَعه». ومن آداب السَّعْي للرزق: تَحرِّى الحلال، والتوكُّلُ على الله، وعدمُ الاعتماد على الأسباب، والدُّعاء بالتيسير، وإخراج حق الله منه، ونية كفاية الأسرة والتوسعة على المحتاجين، ولا مانِع مِن الزيادة بغير قصد التكاثر والمُباهاة. هذه هى مفاتيح الأقدار لِمَنْ كان حاله التكسُّبَ .

● أما مَن كان حالُه التجريد كأهل الصُّفَّة رضى الله تعالى عنهم (وهم جماعة من فُقراء المجاهدين سكنوا الصُّفَّة وهى مكان مظلل مِن المسجد النبوى، فرغهم الله لعبادته، وكان رسول الله ﷺ إذا قام إلى طعام دَعا بعضَهم لمشاركته، وإذا أَمْسَوا انطلق الرجل بالرجل، والرجل بالرجُلين، والرجل بالخمسة، فأما سعد بن عبادة فكان ينطلق بثمانين كُلَّ ليلة...) وأهل التجريد مغلوبون على أمرهم، لا مالٍ ولا عمل، قد يَسَّر الله لهم القُوتَ من حيث لا يحتسبون، كما أنهم لا يَنزعجون عند تعذُّرِه ثقةً بربهم.. ومن آداب أهل التجريد فى أبواب المعاش:

١ - أنه لا يَسأل الناس بحاله أو قاله إلا لضرورة.

٢- أن لا يرى العطاء إلا من الله، أما يَدُ أخيه فأداةُ توصيل فقط، فقد حرك الله قلبه، وبعث فيه مِن دواعى الخير والإرفاق ما سَهَّلَ عليه البَذْلَ والسَّخاءَ؛ ويجبُ شُكرهُ والدعاءُ له، والحمد لله.

٣- لا يأخذ إلا بقَدْر حاجته، فلا يأخذ ليختزن.

٤- عدم استشراف النفس إلى الشيء.. وفى هذا يُحكى أن الإمام أحمد رضى الله تعالى عنه استعان يوماً بأيُّوبَ الحمَّال - وكان صالحاً - فى حَمْل أشياء اشتراها من السُّوق إلى بيته، وكان أهل البيت يخبزون يومها. فأمر الإمامُ ابنه أن يعطى أيوب رغيفين، فرفض أيوبُ العطيَّةَ، وبعد أن خرج أرسل الإمامُ ابنَه بالرغيفين خلفه وكان قد ابتعد عن البيت فقَبلهما من غير مُمانَعة. وعاد

الابْن مُتحيِّراً يسأل أباه تفسيراً لما حدث فقال الإمام: عندما دخل أيوبُ الدارَ داعبت رائحةُ الخُبز الطازج أنْفَه فاستشرفت نَفْسُهُ إليه، فلما أعطيناه الخبز رفض.. ولما خرج وابتعد عن البيت يئس منه، فذهبت وراءه فأخذه منك».

***

١٤٦- قيل ليحيى : كيف يَتعبَّد الرجلُ من غير بضاعة تُعينه على العبادة؟ قال: «أولئك بضاعتُهم مولاهم، وزادُهم تَقْواهم، وشُغْلُهم ذكْراهم، ومَن اهتمَّ بعَشائه لم يَتَهنَّ بغدائه، ومَن أراد تسكينَ قلبه بشيء دُونَ مولاه، لم يَزِدْه استكثارُه مِن ذلك الشيء إلا اضطراباً» [الحلية : ١٠/ ٥٧]

• انظر حال أهل التجريد في العبارة السابقة.. وقال أبو العَبّاس المُرْسي رحمه الله تعالى: «للناس أسبابٌ، ولنا أسبابٌ، وسببُنا نحن الإيمانُ والتَّقْوَى، قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]

ومن استغنى بالله لا يقلقه شيءٌ، فإذا وجد معناه سكن، وإذا فقده اضطرب»؛ وقال ابنُ القيِّم في الوابل الصيِّب عن ذكر الله: إنه قُوتُ القلُوبِ والروح، فإذا فقده العَبْدُ صار بمنزلة الجسم إذا حِيل بينه وبين قُوته، وحضَرْتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية مرَّةً صَلَّى الفَجْرَ ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفتَ إليَّ وقال: هذه غَدْوَتي، ولم أتَغَدَّ، ولو لم أتغد الغداء سَقطتْ قُوَّتي، أو كلاماً قريباً من هذا» [٥٩/ الوابل الصيب] .

***

١٤٧- «مَن فَرَّ إلى الله تعالى بدينه، وهو متطلّعٌ في رزقه أو شيءٍ من أُموره إلى أحد المخلوقين مِن حيٍّ ناطقٍ، أو صامتٍ ، أو جَمادٍ، فهو يَفِرُّ مِن الله تعالى لا إلى الله» .

• قال تعالى : ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات : ٥٠] يقول الصاوى فى هذه الآية: «إن الله واحدٌ لا شَريكَ له، وإنه الضارُّ النافع، المُعطى المانع، فالجأوا إليه واهْرَعُوا إلى طاعته» انتهى.. ومن أدب الفرار إلى الله أن يكون القلبُ غير متعلّق بسواه، ولا يتطلع العبد فى رزقه أو شيء من أموره إلى غير مولاه.. وإلا كان قد أساءَ الأدبَ.. ولا يَعْقلُ الناسُ أن رجُلاً يُجالسُ المَلكَ، ثم يكون له مَصلحةٌ عند واحد من عبيد الملك، ولو علم الملكُ بفَعْلَته لَطَرده من معيَّته لغَفْلَته، وتدنِّي همَّته. والآية ٥١ من سورة الذاريات تُشير إلى أن الله الذى تفرون إليه واحدٌ

لا شريك له، لا يَقبَلُ الشريكَ، قال تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥١] صدق الله العظيم .

وللإمام على كرم الله وجهه :

أَتَطـلُبُ رِزْقَ الله مـن عِنْـدِ غَـيـرِهِ ... وتُصْـبِحُ مِن خَـوفِ العَـواقِبِ آمِنا

وتَرْضَى بِصَـرّافٍ وإنْ كـانَ مُشْـرِكًـا ... ضَـمِـينًا ولا تَرْضَـى بربِّكَ ضـامِنا

* * *

مكرر : «طَلَبُوا الزُّهْدَ فى بُطونِ الكتب، إنما هو فى بُطون التَّوكُّلِ لو كانوا يَعْلمون» .

لنظرها فى الباب السادس عشر: باب الزهد تحت رقم (٢١٥)

* * *

١٤٨ - سُئل يحيى بن معاذ عن التوكُّل فقال: «إذا رَضِى العَبْدُ بالله وَكِيلاً» [الرسالة: ١٣٠]

• وكِلَ بالله : يَكِل وكْلاً : استسلَم إليه.

الوَكِيلُ : الذى يَسْعى فى عمل غيره وينوب عنه فيه .

والوكيل مِن أسماء الله تعالى بمعنى الحافظ، وبمعنى الكَفيل بأرزاق العباد.

* * *

١٤٩ - قال رجل ليحيى بن معاذ: مَتَى أَدْخُلُ حانوتَ التوكُّل، وألبس رداءَ الزُّهْد، وأَقْعُدُ مع الزاهدين؟ فقال: إذا صرتَ من رياضتك لنفسك فى السِّرِّ إلى حَدٍّ لو قَطَعَ الله عنك الرزق ثلاثة أيام، لم تَضْعُفْ فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة فجلوسُك على بِساط الزاهدين جَهْلٌ، ثم لا آمَنُ عليك أن تَفْتَضِحَ» [اللمع: ٢٩٦]

• أى أن شَرْطَ الزهد عدمُ تَذَبْذُبِ ثقتك فى خالقكَ ولو قطع عنك الرزق ثلاثة أيام. وروى القضاعى بإسناد حسن عن أبى الدرداء رَضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال: «الرزق أشدّ طلباً للعبد من أجله»، وروى ابن ماجه عن جابر رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ بإسناد صحيح: «أيها الناس اتقوا الله واجملوا فى الطلب، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفى رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله واجملوا فى الطلب، خذوا ما حلّ، ودعوا ما حُرِّم» . وحقيقة الأمر أن الرزق مرتبط بإيجاد

الخلق لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الروم : ٤٠]. وقال الحكيم الترمذي: الناس فى الرزق على ثلاث مراتب: منهم من يرى الرزق من الله تعالى، ولا يدرى أيعطيه أم لا، فهو منافق شاك؛ ومنهم من يرى الرزق من الله تعالى، ولا يؤده حقه ويعصى الله تعالى، فهو فاسق؛ ومنهم من يرى الرزق من الله تعالى ويرى الكسب سبباً وأخرج حقه، ولا يعصى الله تعالى لأجل الكسب فهو، مؤمن مخلص.

ورحم الله القائل :

كمْ من قوي قوي فى تقلبه ... مهذب الرأى عنه الرزق منحرف

وكم ضعيف ضعيف فى تقلبه ... كأنه من خليج البحر يغترف

هذا دليل على أن الإله له ... فى الخلق سر خفى ليس ينكشف

وقال غيره :

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحِجا ... هلكن إذن من جهلهن البهائم

***

١٥٠- «من كان غناه فى كسبه لم يزل فقيراً، ومن كان غناه فى قلبه لم يزل غنياً، ومن قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محروماً» [طبقات ابن الملقن: ٣٢٣]

● من اعتمد على كسبه دون النظر إلى أن الله رازقه ظل فقيراً يجرى وراء الكسب ولو حاز منها الكثير، ومن كان يقينه بأن الله رازقه كان غنياً، فالغنى غنى النفس، ومن قصد الناس بحوائجه دون ربهم لم يزل محروماً. وذكر الهجويرى فى كشف المحجوب ٢/ ٦٠٦ أن بنتاً ليحيى بن معاذ الرازى قالت يوماً لأمها: يلزمنى الشيء الفلانى فقالت لها أمها: اطلبيه من الله؛ فقالت: يا أمى إنى أخجل أن أطلب حاجاتى النفسية (أى الشخصية) من حضرته، وما تعطيه لى هو ملك له أيضاً، وهو رزقى المقدر.

***

الباب الثالث عشر

الرضـــــا

قال شيخنا يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى :

١٥١ - «استَسْلَمَ القَوْمُ عندما فَهِمُوا» [الصفوة: ٤/ ٩٥]

● من المشاهَد والمعروف للناس جميعاً أنه لا يَتِمُّ استسلامُ طَرَفٍ لآخَرَ، ولا قُوَّةَ لأُخْرَى إلا بَعْدَ فَهْمٍ يصل إلى حَدِّ علم اليقين بضعف المُستسلم قياساً إلى الطرف الآخَر.. والمحطاتُ الرئيسيةُ فى حياة جميع الخَلْق، بل المصيرية لا يَملك الفردُ منّا فيها شيئاً ولا يُستشار فيها؛ قال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الروم : ٤٠].. ففيمَ المُنازَعَة بعد ذلك؟!

● وقال الشيخ العارف بالله محمد بن حسين البجلى اليمنى .

«إذا كان الله كافىَ المتوكِّلينَ، فالرجوعُ إلى غيره جَهْلٌ .

وإذا كان الله وَلِيَّ المُؤمنينَ. فتدبيره لهم وعليهم فيما يُجريه لهم أَصْلَحُ.

ولمَّا كان الله غالباً على أمره، فالتسليمُ له أَوْلَى» .

● وسُئل بعضُ السَّلَف عن العبُودية والرُّبوبية فقال: «الرَّبُّ يَقْضى والعَبْدُ يَرْضَى، فإذا قضى الرب ولم يَرْضَ العبدُ لم يكن فى قلب العبد إقرارٌ بربوبيته، ولا اعترافُ بعبوديته»؛ وقال الشاعر:

كُنْ عَـنْ هُمُـومِكَ مُـعْـرِضًـا ... وَكِـلِ الأُمُـورَ إلـى القَـضَـا
وابْـشِـرْ بِخَـيْـرٍ عـاجِلٍ ... تَـنْسَـى بِهِ مـا قَـدْ مَـضَى
فَـلَرُبَّ أَمْـرٍ مُـسْـخِـطٍ ... لَكَ فـى عَـواقِـبِـهِ رِضـا
وَلَـرُبَّـمَـا اتَّـسَعَ المَضِـيـ ... ـقُ ورُبَّـمَـا ضَـاقَ الفَـضَـا
الله يَـفْـعَـلُ مَـا يَشَـا ... فَـلا تَكُـنْ مُـتَـعَـرِّضًـا
الله عَـوَّدَكَ الجَـمِـيـ ... ـلَ فَـقِسْ عَلَى مَـا مَـضَى

***

١٥٢- «إذا كُنْتَ لا تَرْضَى عن الله كيف تَسأله الرِّضا؟» [الصفوة : ٤/ ٩٢]

• يقول الدكتور حسن الشرقاوى فى معجمه: يُقال رضى به أى اختاره، أو طابت نَفْسُه به أو قنع به؛ ورضى عن أخيه وأقْبَلَ عليه بودِّه؛ ورضا الله عن العبد بأن يُجزل العَطاءَ لـه كثمرة وثواب لما عَمِل؛ ورَضِى (العبد) عن الله أى طابت نَفْسُه بما جُوزى منه تعالى مِن مِنن ونعم وعطايا.

والرضا - كما يُعَرفِّه الجُنَيْدُ - تَرْكُ الاختيار؛ وعند الحارث المحاسبى: سُكونُ القَلْب تحت جريان الحُكْم، وعند ابن عطاء: نَظرُ القَلْب إلى قديم اختيار الله للعبد؛ فإنه اختارَ له الأَفْضَلَ.

• أما حُدودُ ما يرضى عنه المكلف وما لا يرضى، نجد ذلك فيما قاله الحافظ ابن عبدالهادى مِن أن القضاء يُراد به ثلاثةُ أشياء:

الأول : الأمْرُ والنهى (أى من الله) فهذا الرضا به واجبٌ، قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]

الثاني: الكُفْرُ والمعَاصِى (أى التى هى أفعال العباد) فهذا الرِّضا به ليس بواجبٍ (ولا جائزٍ).

الثالث : المَصائبُ التى تُصيب العبدَ؛ فهذا الرضا به واجبٌ أو مُسْتَحبٌ .

• الرضا صَبْرٌ يُمازجه حُبٌّ.. ذهب سُفيانُ الثورى يومًا يعود رابعة، وقال لها: ألا تَدْعِينَ الله بدُعاء يُخففُ عَنْكِ الألَمَ؟ فقالت: يا سُفيانُ، إنك لَتعلم مَن الذى أراد بى هذا المَرَضَ، أليس هو الله؟ فَقال: بَلَى، قالت: ما دُمتَ تعلم فلماذا تدعونى أن أطلب منه شيئاً يُخالفُ إرادتَه؟! فمخالَفَةُ المحبوب غير مُستساغة .

سمعتْ رابعةُ - رحمها الله تعالى - رجُلاً يدعو: ربِّ ارْضَ عنِّى. فقالت له: أما تستحى فى أن تطلب رضا مَن لستَ عنه براضٍ؟! إن العبد يكون قد قام بشروط العبودية حين لا يَشْعُر بألم ولا بسَقَم.. وهى بهذا تُشير إلى الرضا المتبادَل بين العبد والرب فى قوله تعالى ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة : ١١٩]

وقيل: وأن يكون العبد غيرَ راضٍ عن نفسه، ويكون ساخطاً عليها.. فإذا كان سخطه عليها مصدره تقصيرها فى حَقِّ الربوبية فنعمَّا هى، ولا نَعُدُّ هذا عدمَ رضًا من العبد عن ربه؛ فإذا سَعَى فى صَلاحها كان من الموفقينَ السُّعداء، بخلاف مَن وقَفَ عند حَدِّ السُّخْط يَنعاها. وسُئل أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى: «هل يجوز أن يكون العبدُ راضياً ساخطاً؟ قال: نَعَمْ، يجوز أن يكون راضياً عن ربه ساخطاً على نَفْسه» .

***

١٥٣- «عند نزول البَلاء تظهر حَقائقُ الصَّبْرِ وعند مُكاشَفَةِ المَقْدورِ تظهر حقائقُ الرِّضا».

• العبارة الأولى في معنى الحديث الشريف فيما رواه أحمد والشيخان وغيرهما عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الصَّبْرَ عند الصَّدْمة الأولى» .. وقال أبو عبيد في شرح الحديث: إنَّ كُلَّ ذى رَزِيَّة قُصاراه الصَّبْرُ، إنما يُحمدَ على صَبْرِه عند حِدَّة المُصيبة وحَرارتها.. والصَّبْرُ حَبْسُ النفْسِ على مُقْتَضَى الشرع.

وهو الصَّبْرُ المُثابُ عليه، لا ما يحصل بنَفْسه بُحكْمِ مُرورِ الزَّمَن وتقادُمِ العَهْد، يُحكى أنه يوم أن مات لعبد الله بن المبارك - رحمه الله - وَلَدٌ، جاءه مجوسيٌّ يُعزِّيه فقال له: ينبغى للعاقل أن يَفعلِ اليوم ما يَفعله الجاهلُ بعد خمسة أيام، فقال ابن المبارك: اكتبوا هذا منه (راجع ما كتبناه عن هذه الفقرة فى باب الصبر عبارة: ١٣٨).

• قَضاءُ الله : عِلْمُه الأزَليُّ بكل شىء فى الماضى والحال والاستقبال.

قَدَرُ الله : إيجادُه الأشياء على مقتضى العِلْمِ السابق.. وقال بعض أهل العلم بعكس هذا.

«وعند مُكاشَفَةِ المقدور تظهر حقائق الرضا» والمُكاشَفَةُ : نُورٌ يَعُمُّ القَلْبَ الذى تَمَّ تزكيتُه، فتحصل به المعرفةُ بالله وصفاته، وبعض الأسرار ومنها هنا ما يتصل بهذا البلاء من حكْمة خافيَة، فيتم الرضا عن يقين، فبعد حُدوث الصبر ساعة وقوع البَلاء جاءت المكاشَفَةُ وهى دَوامٌ التحير ليس فى المقدور ولكن فى كُنْه العَظَمة التى وراء المقدور، فبدأت مرحلةٌ جديدةٌ ومخالفة من الصبر الممزوج بالحُبِّ وهو ما يسمَّى بالرضا- فالصبر عند الصدمة الأولَى عن الفعل، والرضا - بَعْدُ - عن الفاعل.

***

مكرر : «إنَّ الله رَضِى على قومٍ فغفر لهم السيئاتِ، وغضب على قَومٍ فلم يَقبل منهم الحسناتِ».

• سبق ورودها فى الباب الثامن باب التوبة، عبارة رقم ٩٧ .

***

١٥٤- «مَن لم يَرْضَ عن الله فى الممنوع، لم يَسْلَمْ مِن المَمْنوعِ» [الحلية: ١٠/ ٥٢]

• هكذا وردت فى المصادر التى بين يدى.. بمعنى أن مَن يعترض على نَهْىِ الشَّرْعِ الشَّريف على

بعض الأمور، لا يسلم أن يقع فيما نَهَى الله عنه.. وقد تكون كلمة الممنوع فى جملة فعل الشرط مُحرَّفةً من الممنوح مثلاً.. بمعنى أن عدم رضا العبد على المقسوم له يدفعه إلى الوقوع فى الممنوع.. ومَن حامَ حَوْلَ الحِمى يُوشِكُ أن يُواقِعه ، والله تعالى أعلا وأعلم.

***

١٥٥ - قيل ليحيى : مَتى يبلغ العبدُ إلى مَقام الرضا؟ قال: «إذا أقام نَفْسَه على أربعة أُصول فيما يُعامِلُ به ربَّه:

إنْ أعطيتَنى قَبِلْتُ   وإنْ منعتَنى رَضِيتُ
وإنْ تركتَنى عَبدتُ   وإنْ دعوتَنى أجبتُ»

[نشر المحاسن: ١٧٩]

• هذه العبارة تُحدد أصول الرضا، ومجملها الرضا بالقضاء باطناً وظاهراً، ومن العُبودية الرضا بما يَفعل الربُّ، والعبادة فِعْلٌ يُرْضِى الرَّب؛ قال بِشْرٌ الحافى: «إنَّ العبد لَيَقْرأ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيقول الله تعالى له: كذبتَ ما إيّاىَ تَعبدُ ولا إيّاى تستعين، لو كنتَ تعبد إياى لم تُؤثِرْ هواكَ على رضاى، ولو كنتَ بى تستعين لم تَسْكُنْ إلى حَوْلكَ وقُوتك، ولا إلى مالكَ ونَفْسكَ». وقال أبو عبدالله الساجى: «ألا وإنَّ منْ خَلْقِ الله عباداً يَسْتَحْيونَ مِن الصَّبْر، فيتلقون مواقعَ أقدار الله بالرضا تلقفاً، وقد كان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله يقول: «أَصبحتُ ومالى سُرورٌ إلا فى مواقع القدر».

ولله در القائل:

إنما أجزعُ مما أتقى   فإذا حلَّ فمالى والجزع!
وكذا أطمعُ فيما أبتغى   فإذا فات فمالى والطمع

• ولا يُنافى الرضا كراهةُ النَّفْس للشىء أو تألُّمها منه؛ فالمريضُ يُقْبِلُ على الدواء رَجاءَ الشِّفاء، ويصوم العبدُ اليومَ الحارَّ ليوم أَحَرَّ منه، ويكون راضياً فى الحالين . والرضا بقضاء الله من شروط العبودية الحَقَّة، والعائد رضا الله، وذلك هو الفوز العظيم. يروى أن سمنون المُحبَّ رحمه الله دعا ربَّه يَوْمًا فقال:

وَلَيْسَ لى فى سِواكَ حَظٌّ   فكَيْفَما شِئْتَ فاخْتَبِرْنى

فأصيب من وقته بعِلَّة الحَصَر (بضمة وبفتحتين: احتباسُ البَوْلِ أو الغائط، والأسر احتباس

البول)، فكتم ما به ولم يتضرر منه لأحد، وفى الصباح جاءه أصحابه من أماكن مختلفة يسألونه عن دائه، وأخبره كلٌّ واحد منهم أنه سمعَ فى مكانه صوت أستاذه يسألُ الله الشفاء.. ففهم الشيخ الإشارة أن المطلوب منه إظهارُ الجَزَع تأدبًا مع العبودية، وأن الجزع لا يُنافِى الرضا، فأخذ يَطوفُ على الكتاتيب ويطلب مِن الصبيان أن يدعوا الله لشيخهم الكَذّاب.

***

١٥٦ - «لو لم يُسْكِنْهم ببَلْواه لَطارت بهم نُعماه، ولم يَصل إليه مَن لم يَرْضَ بقَسْمِه، ولم يَعْرِفْه مَن لم يتمتع بنعمه، ولم يُحبِّه مَن لم يتهْ فى كَرَمِه» [الحلية: ٥٩/١٠]

• قال تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى : ٢٧] وقال شقيق بن إبراهيم فى هذه الآية : إن الله عز وجل لو رزق العباد من غير كسب لتفرغوا فتفاسدوا، ولكنهم شغلهم بالكسب حتى لا يتفرغوا للفساد. والآية ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٧] .والآية: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر : ٤٩]

• يَغلب على الإنسان طبيعةُ البَغْى والعُدْوان إنْ مكَّن الله له فى الأرض، واستغنىَ وتنكر للمُنْعِم، بل تأخذه العزّةُ بالإثم، فيدَّعى أنَّ النِّعم التى أفاضَها الله عليه كانت لما فيه من فَضْلٍ، أو ما له من استحقاق، أو على علم منه بوجوه الكسب، كما قال قارون : ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

ولكن الله العليم بما خلق: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] وهو الخبير بما انطوت عليه جَوانح الخلق، وما يُصلحُهم - جعل فى مقابل هذه النِّعَم بعضَ الابتلاءات حتى تُعيدَ التوازنَ إلى هذا الكائن المَغرور، وتُذَكِّره بحقيقته وهى أنه عَبْدٌ يُطعمه سيِّدُه ويَكْسُوه، ويُؤدبه كيف يشاء ولو علا مَفْرَقَة التاجُ، فَالابتلاءُ عَصا القُدْرة يَقرع بها الخَلْقَ فى سوقهم نحو حظيرة العبودية.. والحُرُّ تكفيه الإشارةُ، وقال ذو النُّون المِصْرِىُّ: «البَلاءُ مِلحُ المُؤْمِن، إذا عَدِمَ المِلحَ فَسَدَ حالُه» .

***

١٥٧ - «إذا لاحَظْتَ (أَنَّ) الأشْياءَ منه كانَ لَها طَعْمٌ آخَرُ» [الحلية: ٦٧]

• يَختلف استقبالُ الأنفس للأمُور باختلاف مَصادرها؛ فمثلاً مَزْحةُ الصَّدِيق مَعكَ تُضْحِكُكَ»

ولوفاه بها عَدوٌّ لك تنغصك.. (وحبيبك يبلع لك الزَّلط).. وقديما قالوا:

وعَـيْنُ الرِّضـا عَنْ كُلِّ عَـيْبٍ كَلِيلَةٌ   كـمـا أنَّ عَـيْنَ السُّخْطِ تُبْدى المَساوِيا

والهَـدايا والبَلايا في هـذا الأمر سَـواءٌ؛ فالكلمـةُ القـاسيـةُ من الوالد تأديبٌ، ومن دُونه تَقْريعٌ وتَوبيخٌ. والهدية ولـو كانت بَسْمـةً على شَفَةٍ أو بَشـاشةً في وجه مُحبٍّ لا يَعدلُها شيءٌ من غيره مهما علت قيمته، ومما يعينُ على الرضا والثَّبات عليه يقينُ العبدِ أن الله تعالى جل جلاله يعلمُ ما يلاقيه، ويرى ما هو فيه. وقال ابن عطاء الله في التنوير له: إنما يقويهم على حمل أقداره شهود حسن اختياره وأنشد لنفسه في نفس المعنى :

وخَـفَّفَ عنى مـا أُلاقـى من العنا   بـأنك أنـت المبـتلى والمقـدر

ومـا لامـرئ عـمـا قـضى اللهُ مَـعْدل   وليـس له مـنه الـذى يتـخـير

وكان بعضُ العارفينَ لا يَغيظه إساءةُ غيره له لِمُشاهَدَته أنَّ كل الأفعال لله تعالى كما قالوا:

إذا مـا رَأَيْتَ اللهَ فـى الكُلِّ فـاعِـلاً   رَأَيْتَ جَـمِـيعَ الكائـنات مِـلاحـا

وإنْ لَـمْ تَـرَ إلا مَظاهِـرَ صُنْعِـه   حُجِـبْتَ فَـصَيَّـرْتَ المِلاحَ قِـبـاحا

كذلك إذا تحقق العبد بإشارة :

وحـيث الكل منى لا قـبـيح   وقـبح القـبح من حـيـثى جـمـيل

نراه وقد سكن في مَجْرى الأقدار، لا يتحرك للأغيار لأنها من القادر القهّار، ولكن ليس معنى هذا أن لا نَغضبَ للمَعاصِي ولا نُنْكِرهَا ، أو نُعَطِّل واجِبَ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهذا أَمْرٌ آخَرُ .

***

مكررة : «مَن أَكْثَرَ من ذِكْرِ المَوْت، لم يَمُتْ قَبْلَ أَجَلِه، ويدخل عليه ثلاثُ خصال من الخَيْر: أولهاَ: المُبادَرَةُ إلى التوبة، والثاني: القَنَاعةُ برزقٍ يَسير، والثالثَ: النَّشاطُ في العبادة» .

● سبق أن وردت هذه العبارة في باب الخوف (عبارة: ٧٣)

***

١٥٨- من لى بمثل ربى، إن أدبرت ناداني، وإن أقبلت ناجاني، وإن دعوت لباني،

حسبى ربى، وأنشأ يقول:

حسبى حياةُ اللهِ من كل ميت وحسبى بقاءُ اللهِ من كل هالك
إذا ما لقيتُ اللهَ عنى راضيًا فإن سرور النفسِ فيما هنالك

[تاريخ بغداد : ١٤/ ٢١٠]

• ....

* * *

١٥٩ - «من إعراض الله عن العبد أنْ يَشْغَلَه بما لا يَنْفَعُه» .

• أَعْرَضَ عنه: وَلَّى عنه.

وعلامة مَن أعرض عنه ربُّه، أن تَراه مشغولاً بما لا يعود عليه فى أُخْراه بالخير، وهى الحَيَوانُ لو كانوا يعلمون، فتراه قد جعل الدنيا كُلَّ هَمِّه وانصرف يجمع من متاعها ويتمتع بملذاتها، لا يفرق بين حرامها وحلالها.. ولم يأخذ منها فوق ما يستر جسمه وأكثر مما يحشو معدته ومساحة ما يكفى نومته.. وهذا هو حال كل إنسان يستوى فيه الغنى والفقير والواجد والفاقد... هذا غير ما عاناه من هموم جمع المال، والتكالب على الدنيا الفانية. ثم السؤال عنه فى الآخرة .

يروى مسلم عن عبدالله بن الشِّخِّير قال: أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ ﴿ألهاكم التكاثر﴾ قال: «يقول ابن آدم مالى مالى، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيت، أو لَبستَ فأبْلَيْتَ، أو تَصدَّقتَ فأمضيتَ» .

قال أصحاب الحسن البصرى لصاحبهم: هنا رجل فى المسجد لا يرى إلا جالسًا وحده، فذهب إليه الحسن يسأله:

- ماذا يمنعك من مجالسة الناس؟
- أمر شغلنى عن مجالستهم.
- فلماذا لا تأتى هذا الرجل الذى يقال له الحسن - يعنى نفسه - فتستفيد منه؟
- أمر شغلنى عن الناس وعن الحسن.
- وماذاك الشغل يرحمك الله؟
- لا أصبح ولا أمسى إلا بين نعمة وذنب؛ فرأيت أن أشغل نفسى بشكر الله على النعمة، والاستغفار من الذنب.
- أنت يا عبد الله أفقه عندى من الحسن، فالزم ما أنت عليه.

* * *

الباب الرابع عشر

المجاهدة

١٦٠ - قال يحيى من معاذ رحمه اللـه تعالى «اللَّيْلُ طَوِيلٌ فلا تُقَصِّرْه بِمَنامِكَ والنَّهارُ نَقِيٌّ فلا تُدَنِّسْهُ بِآثامِك» [الصفوة: ٤/ ٩٤]

● فى الليل تحلو المُناجاةُ، حيث الهدوء والسِّتْرُ، الهدوء حيث لاشتات، فيجتمع قَلْبُ الذاكر على المذكور؛ والستر حيث لا رياءَ ولا حَسَدَ وقد أثْنَى الحقُّ على قَوّامينَ الليل فقال ﴿تتجافى جنوبُهم عن المضاجع﴾ وقال ﴿أَمَّنْ هو قانتٌ آناء الليل﴾ وهذه حبيبة العدوية كانت إذا صلت العَتَمَةَ قامت على سطح دارها وقالت: «إلهى، غارَت النجومُ، ونامت العيونُ، وأغْلَقَت المُلوكُ أبوابَها، وبابُكَ مَفْتوحٌ، وخَلا كُلُّ حَبيب بحبيبه، وهذا مَقامى بَيْنَ يَدَيْكَ.. فإذا كان السَّحرُ قالت: اللهم هذا الليلُ أَدْبَرَ، وهذا النهارُ أَسْفَرَ، فليت شِعْرى هل قَبِلْتَ مِنِّى ليلتى فأُهَنَّى، أمْ رَدَدْتها على فأُعزَّى، وعِزَّتك لوانتهرتنى ما بَرِحْتُ من بابك».

● من الأمور التى تُساعدُ على قيام الليل: قِلَّةُ الطعام، فكثرتُه تستلزم كثرةَ الشُّرْب مِّما يجلب النومَ الثقيل، عَدَمُ الإجهاد للجسم فى عمل النهار، الحِرْصُ على نَوْمة القَيْلُولَة، قِلَّةُ المَعاصى، فقد سأل رجلٌ الحَسَنَ البصرىَّ: «يا أبا سعيد، إنى أَبيتُ مُعافَى وأُحبُّ أن أقوم الليل، فما بالى لا أقومُ؟ فقال: ذُنوبُكَ قَيَّدَتْكَ» وأيضا يُساعدُ على قيام الليل مُحاسَبَةُ النفس عن عمل اليوم، فإنْ رأى خيراً حَمِدَ الله، وإنْ رأى خلافَ ذلك استَغْفَرَ، ثم يضبط المُنبِّه، ويأخذ ورْدَه وإنْ قَلَّ، ومن المُجرَّب للاستيقاظ قراءة آخر سورة الكهف قبل النوم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (١٠٨) قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾.

● أمّا النهارُ فهو وقت العمل والنزول إلى الأسواق.. فعلينا أن نبدأ نهارنا بذِكْرِ الله، والدعاء لله أن يجعله يوم يُمْنٍ وبَرَكة فى الدِّين والدنيا والآخرة، وأن يُجنِّبنا المَعاصِى والفِتَنَ، ونحرص فيه على القيام بالطاعات والبُعْدِ عن المعاصى والمخالفات.

* * *

١٦١ - «العاقلُ المُصيبُ مَن عَمل ثلاثًا: تَركَ الدُّنيا قَبْلَ أنْ تَترُكَه وبَنَى قَبْره قَبْلَ أن يَدْخُلَه وأَرْضَى ربَّه قَبْلَ أَنْ يَلْقاه» [صفة الصفوة: ٤/ ٩٤]

• ترك الدنيا قبل أن تتركه باجتناب حرامها، والزهد فى فُضول حَلالها .

• وبنى قبره قبل أن يدخله: بأن أَسَّسه على التَّقْوَى ، وأثَّثه بصالح الأعمال، والدنيا مَزْرَعَةُ الآخرة، والقَبْرُ أول مَنازلها.

• وأرضى ربه قبل أن يلقاه: فالدنيا عَمَلٌ ولا حِساب، والآخرة حِسابٌ ولا عَمَلَ.

* * *

١٦٢- «مَن لم يَكُنْ طَلَبُه فى طريق الرَّغْبة والرَّهْبَة والشَّوْق والمَحبَّة ، كان مُتحيِّراً فى طلبه، مُخَلِّطاً فى عمله، لا يَجِدُ لَذَّةَ العبادة، ولا يَقْطَعُ طَريقَ الزَّهادة» [الحلية: ١٠/ ٥٥]

• لا يَسوق العَبْدَ فى طريق العبادة الجادة الخالصة إلا خَوْفٌ مُزْعِجٌ أو شَوْقٌ مُقْلقٌ ومَن لم يكن له حافزٌ منهما كان مخلطاً فى عبادته، مُتَذَبذبًا فيها، غير ثابت على حال فى طاعته، لا يجد لَذّة فى عبادَته، ولايتغلب على أهوائه وشهواته، ويكون فوق هذا صاحب الشوق والمحبة.

* * *

١٦٣ - «الناسُ يعبدون الله على أربع: عامل على العبادة، وراهب على الرهبة ومشتاق على الشوق، ومحب على المحبة» [تاريخ الإسلام: ١٦/ ٣٧٤]

• انظر العبارة السابقة

* * *

١٦٤ «رأى يحيى بن معاذ رجلاً يَعمل فى قَطْع الأحجار من الجبل فى يَوْم حارٍّ وهو يُغَنِّى فقال: مِسْكينٌ ابنُ آدم، قَطْعُ الأَحْجارِ أَهْوَنُ عليه مِن تَرْكِ الأوزار» [الحلية: ١٠/ ٥٢]

• اجتنابُ المَعاصى أصْعَبُ على النفس الأَمّارة مِن قَطْع الأحجار، وسائرِ الأعمال الشاقّة، وذلك لِتعلُّقِ النفس بها، وإلحاح الشهواتِ وإغراءات الدنيا وتزيينات إبْليسَ، ونحو هذا المعنى قال ابن الوردى:

واتَّقِ الله، فـتـقـوى الله مـا جـاوَرَتْ قـلْبَ امـرئٍ إلا وَصَلْ
لَيْسَ مَن يَقْطَعُ طُرقـاً بَطَلاً إنما مَن يَتـقِي اللهَ البَطَلْ

* * *

(مكررة) «قيل ليحيى: كيف يتعبد الرجلُ من غير بضاعة تعينه على العبادة؟!!

قال: أولئك بضاعتُهم مَوْلاهم، وزادُهم تَقْواهم، وشُغْلُهم ذكْراهم، ومَن اهتَّم بعشائه لم يَتهنَّ بغدائه، ومَن أراد تسكين قلبه بشيء دون مولاه،لم يزد استكثاره من ذلك الشئ إلا اضطراباً».

● سبق أن وردت فى الباب الثانى عشر باب التوكل : عبارة : ١٤٦ .

* * *

١٦٥ - «انظروا ألا تكونوا مَعْشَرَ المُريدين ممَّن قد تركوا لَذَّةَ الدنيا ونَعيمَها، ثم لا يَصْدُقُ طلبُكم للآخرة، فلا دنيا ولا آخرة، فكِّروا فيما تَطْلبون، فإنَّ مَن لم يَعرفْ خطر ما يطلب لم يَسْهُلْ عليه الجهد فى جنب طلبه، واعلموا أن مَن لم يَهُنْ عليه الخَلْقُ لم يَعْظم عليه الرَّبُّ» [الحلية: ١٠/ ٥٥].

●جاءت هذه العبارة بكلمة الجهل، وهى مصحفة من الجهد. ومعرفة الدافع إلى العمل يُهوِّنُ بَذْلَ الجهد فيه وقال الشاعر:

وإذا كـانَتِ النُّفـوسُ كِـباراً تَعِـبَتْ فى مُـرادِها الأَجْـسامُ

● ومن رأى الخَلْقَ بعين الاعتبار راءاهم، وكيف يَعْظُمُ على المُنافِقِ حقُّ الله فيُعظِّم شعائره؟!

* * *

١٦٦ - «عبادة العارف فى ثلاثة أشياء:

مُعاشرة الخلق بالجميل، وإدامةِ الذِّكرِ لِلْجَلِيلِ، وصُحْبَةِ جِسْمٍ بَيْن جَنْبيه قَلْبٌ عَلِيل» [الحلية: ١٠/ ٥٧].

● مُعاشَرَةُ الخلق بالجميل من الشمائل الطَّيبة، روى أبو داود عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنَّ المُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بُحسْنِ خُلُقِه دَرَجَة

الصائم القائم». وإدامة الذكر للجليل: روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «سبَق المُفَرِّدون قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكراتُ» والحديث «لا يَزالُ لسانُكَ رَطْبًا مِن ذِكرِ الله» (صحيح الجامع الصغير) وشغل القلب بحب الله ولا شىء سواه.

***

١٦٧ - «سُبْحانَ مَن طَيَّبَ الدنيا للعارفينَ بمعرفته، وسبحان من طيب لهم الآخرة بمَعْذرَته، فتلذَّذوا أيام الحياة بالذِّكرِ فى مَجالسِ معرفته، وغداً يتلذذون فى رياضَ القدس بشراب مغفرته، فلهم فى الدنيا زرع ذكر، ولهم فى الآخرة ربيع بر، ساروا علي المطايا من شُكْرِه، حتى وصلوا إلى العطايا مِن ذُخْره، فإنه مَلِكٌ كَريمٌ» [الحلية: ١٠/ ٥٧]

● لما حسنوا ظنهم بربهم واطمأنوا إلى مغفرته يوم العَرْضِ، تلذذوا بذكْرِه في حياتهم، وحصدوا فى الآخرة ربيع بر ثمرة لما بذروه فى الدنيا مِن زَرْعِ ذكر، وأوصلهم شكرُهم لله على عطاياه إلى مَزيد من العَطايا فى الدنيا والآخرة، وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَقيتُ إبراهيمَ ليلة أُسْرِىَ بى، فقال: يا محمد أقْرِئْ أُمتَكَ مِنِّى السَّلامَ وأَخْبِرْهُمْ أنَّ الجنة طيبَةُ التُّرْبَةِ،عذبة الماء، وأنها قِيعانٌ، وأنَّ غِراسَها سُبْحانَ الله، والحَمْدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» رواه الترمذى وقال: حديث حسن، وهو كما قال الترمذى (الأحاديث الصحيحة) ح٢٣١٥ المشكاة.

***

١٦٧ - «مَن سُرَّ بخدمة الله سُرَّت الأشياءُ كُلُّها بخدمته، ومَن قَرَّتْ عَيْنُه بالله قرت عُيونُ كل شىء بالنظر إليه» [طبقات السلمى: ٢٧]

● بخصوص العبارة الأولى.. انظر وعلى قدر شغلك بالله يشتغل الخلق بأمرك العبارة ٤٠.

● «من قَرّتَ عينه بالله..» أى سُرَّ ورَضىَ، فمن سكن إلى الله، واطمأنَّ إليه، ورضى بما قسم له، وأفْرده بالحُبِّ والخَوف والرَّجاء والتوكل قَرَّتْ عينُه بربِّه.. وعلى قَدْرِ قُرَّةِ عين العبد بربه، تَقَرُّ به كُلُّ عين تنظر إليه، وتجد فى رحابه الراحة وهُدوءَ النفس؛ ذهب بعض الصحابة رضى الله تعالى عنهم - يوماً- يسألون النبى صلى الله عليه وسلم: «يا رسول الله، إذا رأيناكَ رَقَّتْ قُلوبُنا وكُنّا مِن أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النِّساءَ والأولادَ قال: لو أنكم تكونون

فى كل حال على الحالة التى أنتم عليها عندى لَصافحتكم الملائكة بأكُفِّهم، ولَزاروكم فى بيوتكم، ولو لم تُذْنبوا لَجاء الله بقوم يُذْنبون كى يغفر لهم» (صحيح الجامع الصغير)

* * *

١٦٩ - «لا تربح على نفسك بشيء أَجَلَّ من أن تشغلها فى كل وقت بما هو أَوْلَى بها» [الرسالة: ٢٧].

• قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «احْرِصْ على ما يَنفعك، واستَعِنْ بالله ولا تَعْجزْ» فالعاقل الذي يُرتب مَهامَّه، الأَوْلَى فالأَوْلَى، ولايبخس الأعمالَ أهمِّيتَها؛ وأَحْرَى الأعمال بالاهتمام هو القيام بما كَلَّفه به ربُّه من فُروض وواجبات، وقد رتب الله عليها كثيراً من المَثوبة تفضُّلاً منه وكَرَماً وغير ذلك من راحةَ البال وتيسير الأمورِ؛ وليس فوق هذه التكاليف ما هو أَرْبَحُ منها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠- ١٣] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] .

ذكر أبوعمر بن عبد البر فى التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد ما كتبه العمرى العابد إلى الإمام مالك رحمه الله يَحُضُّه على اعتزال الناس والانقطاع إلى العبادة، فكتب إليه مالك يَرُدُّ عليه: إن الله تعالى قَسَّمَ الأعمال كما قَسَّمَ الأرزاقَ، فرُبَّ رَجُلٍ فُتح له فى الصلاة، ولم يُفتحْ له فى الصَّوْم، وآخَرَ فتُح له فى الصَّدقة ولم يُفتح له فى الصيام، وآخَرَ فُتح له فى الجهاد، ولم يُفتح له فى الصلاة؛ ونَشْرُ العِلْم وتعليمه من أشرف أعمال البرِّ، وقد رضيتُ بما فتح الله عزوجل فيه من ذلك، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خَيْرٍ وبِرٍّ، ويجب على كلٍّ منّا أن يَرْضَى بما قُسِمَ له، والسلام».

* * *

١٧٠- «الطاعةُ مَخْزونةٌ فى خزائن الله تعالى، ومَفتاحُها الدُّعاءُ، وأَسْنانهُ الحَلالُ وإذا لم يكن للمفْتاح أَسْنانٌ فلا يُفتحَ لها بابٌ، وإذا لم يفتح بابُ الخِزانة كيف تَصِلُ إلى مَا فيها من الطاعة؟!»

• يُرزَقُ العبدُ طاعتهُ لربِّه، وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له، ولا يُنال ما عند الله إلا برضاه، والمطلوبُ أن ندعو الله أن يُيَسِّرَ لنا طاعته ويُحببهـا إلينا ويُعيننا على أدائها وأن يَمُنَّ علينا بقبـولها ومن حديث الفاتحة: «إذا قال عبـدى إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعِينُ قال الله: هذا بَيْنى وبَيْنَ عبـدى ولعَبْدى ما سَأَلَ»، ومن الحديث النبـوى «يا مُعـاذُ، لا تَدَعَنَّ أن تقول دبُرَ كُلِّ صلاة: اللهمَّ أعنِّـى على ذكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عبادتك»، ومـمّا يجعل الدُّعاءَ أَرْجَى للقبول أن تكون الطُّعْـمَةُ من حلال، ويُروى فى ذلك يا سَعْدُ أَطِبْ مَطعَـمَكَ تُسْتَجَبْ دَعْوتُك»..ولقبـول الدعاء أسباب انظرها فى كـتابنا - إن شئت - مفاتيح الاستجابة.

* * *

١٧١ - «أبناءُ الدنيا يخدمـهم الإماءُ والعَبيدُ وأبناءُ الآخرة يخـدمهم الأَبْرارُ والأحْرارُ» [الرسالة: ١٧٢]

• الإماء مفردها أَمَةٌ، وهى الجـارية من السبايا والمملوكـات. من الناس صِنْفٌ باعوا أنفسَهم للدنيا، ذمّـهم النبى صلى الله عليهم وسلم فى حديث البـخارى «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينار وعَبْدُ الدِّرْهَم وعَبْدُ الخميصَة (والخميصة: ثَوْبٌ أَسْوَدُ أو أحـمر له أعْلام) إنْ أُعْطِىَ رَضِىَ، وإنْ لم يُعْط سَخِطَ، تَعِسَ وانتكس، وإذا شيكَ فلا انتقش» شيكَ أى أصابته شَوكـة، ولا انتقش: أى لا أخرجها.. عَبِيدُ الدنيا أقبَلوا عليها فـأقبلت عليهم، واستزلوا الناسَ بأموالهم، فخدمهم عَـبيدٌ للدنيا مثلهم، لكن لم ينالوا حَظَّهم.

أمّا مَن باعَ نفسـه لله فقد أعْتَقَ رَقَبَـتَهُ، ومَلَك حُرِّيته.. ولعلو منزلته عنـد مَليكه وخالقه طوَّع له مَن يقوم على خدمته.. ولأن الشيخ يحيى لم يُحدِّدْ لنا مَوطنَ الخدمة فكان لزامًا أن نذكرَ خدمه فى الدنيا كذلك خدمه فى الآخرة.. فقـد أعانت الملائكة صحَابةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر، كمـا قام عبـدالله بن أُرَيْقط بدَوْر الدليل فى الهجـرة المباركـة على خير وجـه، ورغم أنه كان مُشْـركًا فلم يُفْشِ إلى كفـار مكة شيئًـا، ، وها هى السيدة أُمُّ سَلَمَـة تخرجُ بوليـدها سلمة من مكة لتلحق بزوجـها أبى سلمـة فى المدينة، خرجت وحـدها لارُفْقَةَ تُؤْنِـسُها، ولا دليل يرشـدها، وعند التنعيم قيض الله لها رجلاً شهماً قام بإرشادها إلى المدينة لما عرف أنها تُسافر وحدها، ذلك الرجل هو عثمان بن طلحـة وكان وقتها كافراً.. ولما يدخل أبناءُ الآخرة الجنة يخـدمهم غلمانٌ مُخلَّدون ، قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعـة: ١٧]، وهؤلاء الغلْمـانُ الأبرارُ الأحرار فيهم أقوالٌ: قيل إنهم أطفالُ المسلمين، وقيل أطفال المشركين ماتوا ولا حَسَنَةَ لهم ولا سيئة عليهم، وقيل إنهم غِلْمانٌ أنشأهم الله تعالى خُدّامـاً لأهل الجنة، وهذا القول يَميل إليه ابن القيم فى حادى الأرواح: ١٥٤. وقال ابـن عربى: ليس الشـيخ من تخدمـه الملوك الدنيوية، إنما الشـيخ من تخـدمه الملائكة العلوية.

١٧٢ «جالِسُوا الذاكرينَ، فإنهم مُلازِمونَ بابَ المَلِك [طبقات الشعراني: ١/ ١٨٣]

• قال أبو الفَيْضِ المنوفي في جمهرته: أَجْمَعَ أَهْلُ طَرِيق الله جميعاً أن الذِّكْرَ مِفْتاحُ باب الله، وبَرْزَخُ الغُيوب، وجالِبُ الخيرات، وأنيسُ المُسْتَوْحِش، وهو منشور الولاية، والدافع إلى التعرف بالله، وليس أقرب إلى الله من أسمائه وصفاته، فلا يَنبغي تَرْكُه، ولو مع الغفلة عن تصور ما في الذكر من معان جَليلة، والذِّكْرُ لا يرتبط بوقت ولا يتحدد بمكان ولا بعَدد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، والذكر لا يرتبط بحال، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

والذاكرونَ يَطرقون بابَ المَلِك بذكره، فيذكرهم ويقضي حَوائجهم، وحَوائجَ مَن يُجالسهم، ومن الحديث القدسي: «هم القَوْمُ لا يشقى بهم جليسهم، فمن أراد تيسير أموره فليكثر من ذكر الله وليُجالس الذاكرين، وذلك خير له مِن السَّعْيِ عند حُجّاب الوزراء والملوك، فالأمور لا تُقْضَى إلا بإرادة مَلِك المُلوك.

* * *

(مكررة) ذِكْرُ الدنيا داءٌ، وذِكْرُ الخَلْقِ بَلاءٌ، وذِكْرُ العُقْبَى دَواءٌ، وذِكْرُ المَوْلَى شِفاءٌ».

• ستأتي هذه العبارةُ في الباب الثاني والعشرين، باب الدنيا ، عبارة: ٢٩٩.

* * *

١٧٣ - «إنْ نظر إليك فَرَّغَكَ لذكْره، وإن فرغك لذكره مَنَّ عليك بحُبِّه، وإنْ مَنَّ عليك بحبه فاجأك بقُرْبه». [الكواكب الدرية: ١/ ٢٧٣].

• نَظَرُ الله إلى عباده يَعني إحسانهَ إليهم، وتَلَطُّفَه بهم، وإفاضَته النِّعَمَ عليهم.. وفي قمّة إحسانه إليك في الدنيا أن يَشغلك بذكْره.. وإنْ فرغك لذكره مَنَّ عليك بقُربه، فأفاض عليكَ مِنْ صنوف رحمته ما يَجعلكَ مُستغرقًا بمُلاحظة جَناب قُدْسه، فلا ترى شيئًا ولا تسمع شيئاً ولا تُحس بشيء إلا لاحظتَ ربَّك؛ وهذه الملاحظة في ذاتها ذِكْرٌ وتدفع إلى الذِّكر ولعل هذا في معنى الحديث القدسي «أنا جَليسُ مَن ذَكَرني».

ويُحكَى أن أميراً ومعه حاشيته مَرَّ يومًا على باب حاتم الأَصَمِّ رحمه الله تعالى، فاستقَى ماءً، فلما شرب ومَن معه دفع إليهم شيئًا مِن المال وأَمَر أصحابَه أن يفعلوا مثلَ صنيعه ففرح أهلُ الدار

إلا صَبِيَّةٌ صغيرةٌ بَكَتْ فقيل لها: ما يُبكيك؟! قالت: مَخْلوقٌ نظر إلينا فاستغنينا، فكيف لونظرإلينا الخالقُ عـز وجل؛ وقال الحَلاّجُ: «إذا أَرَاد الله أن يُوالى عبـداً من عباده، فتح عليـه بابَ الذِّكر، ثم فـتحَ عليه بابَ القُـرْب، ثم أجلسـه على كرسى التـوحيـد، ثم رفع عنه الحُـجُبَ، فيُـريه الفَرْدَانيـةَ بالمشاهَدة، ثم أدخله دارَ الـفردانية، ثم كـشف عنه الكبرياء والجمـالَ، فإذا وقع بَصَرُه على الجـمَال بَقِىَ بلا هو، فحـينئذ صار العبدُ فانياً وبالحَـقِّ باقياً، فوقع فى حِـفْظه سبحـانه - وبَرِئَ من دَعاوَى نَفْسه».

* * *

١٧٤ - «لَنْ يَصِل إلى قَلْبِكَ رُوحُ المَعْرِفَةِ، وله عليك حَقٌّ لم تُؤَدِّه [التعرف: ٣٦]

• المَعْرِفة كمـا يُعَرِّفها الإمامُ القُشيرى رحـمه الله تعالى: صِفةُ مَن عَرَفَ الحَقَّ سبـحانه بأسمائه وصفـاته، ثم صدق الله تعـالى فى مُعـاملاته، ثم تَنقَّـى عن أخلاقه الرديئـة وآفاته، ثم طال بـالباب وقوفُه، ودامَ بالقلـب اعتكافُه، فإذا صارَ من الخَلق أَجْنَبِياً ومن آفات نفسـه بَرِيّاً، ودام فى السِّرِّ مع الله مُناجاتُه، وحق فى كل لحظة إليـه رجوعُه وصار مُحَـدَّثًا من قِبَلِ الحق سبحانه بتـعريف أسراره فيـما يُجْرِيه من تَصـاريف أقداره، يُسَمَّى عند ذلك عـارفًا، وتسمَّى حـالته مَعْـرِفَةً انتهى. والمعـرفة بأبعادها هذه لا يصل إليـها مَن كان مُقـصِّراً فى حقٍّ من حقـوق الله عليه وصدق القائل: فجاهِدْ تُشاهِدْ يا مُرِيدُ تَقَرُّبِى.

* * *

١٧٥ - «عَمَلٌ كالسَّراب، وقَلْبٌ من التَّقْوَى خَراب، وذُنوبٌ بِعَدَد الرَّمْلِ والتُّراب، ثم تطمع فى الكَواعب الأتراب، هَيْهاتَ أنت سَكْرانٌ بغيـر شَراب، ما أكملك لو بادرت أجلك، مَا أَقواك لوخالفت هواك. [الوفيات: ٦/ ١٦٧]

• قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].. وبعـد أنْ سَرَدَ الشيـخُ مَعـاصِىَ الرجل وطمعـه فى دخول الجنة والتـمتع بالكواعب الأتراب، بكّته على أوهامه وآمـاله الخادعة، ثم نصحـه بأن يسارع إلى مخالفة هواه، وأن يُبادِرَ إلى القيام بصالح الأعمال فى جدٍّ واجتهاد قَبْلَ أَنْ يَفْجأه ملَكُ المَوْت.

* * *

١٧٦- «ثَلاثةٌ من السَّعادة:

مُقْلَةٌ دامِعَة، وعُنُقٌ خاضعَة، وأُذُنٌ سامعَة» [الحلية: ١٠/ ٦٨]

• مقلة دامعة: أي من خَشْيَة الله، والحديث الصحيح: «عَيْنان لا تَمَسُّهما النارُ أبداً: عَيْنٌ بكت من خَشْيَةِ الله، وعَيْنٌ باتت تَحْرُسُ في سبيل الله» (صحيح الجامع الصغير).

وقال النووى فى الأذكار: يستحب البكاء والتباكى لمن لا يقدر على البكاء، فإن البكاء عند القراءة صفة العارفين، وشعار عباد الله الصالحين، قال تعالى ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٩]، وقال الغزالى: والطريقة فى تحصيله أن يُحضر قلبه الحزن بأن يتأمل ما فيه (أى القرآن) من الوعيد الشديد، والوثائق والعهود، ثم يتأمل تقصيره فى ذلك، فإن لم يحصل حزن وبكاء - كما يحضر الخواص - فليبك على فقد ذلك فإنه من أعظم المصائب، أ.هـ ملخصًا.

• وعنق خاضعة، أى ذَلَّت لله طائعةً، وقال ذو النون المصرى رحمه الله:

مَنَعَ القُرآنُ بوَعْدِه ووَعِيدِه مُقَلَ العُيونِ بليلها أنْ تَهْجَعا

فَهِموا عن المَلِكِ الجَلِيلِ كَلامَه فَرِقابهم ذلَّت إليه تَخَضُّعا

• وأذن سامعة: أى يَسْعَى صاحبُها لسماع ما يَنفعه ويَعيه، وتوجهها مصغية هو شرط التأثر بالكلام، قال تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧]

وكان ابن عقيل يقول:

التَّبذُّلُ فيه سبحانه أَحْسَنُ من التجمُّل فى غَيْره (والتبذل هو أن يبدو الشخص فى زِىٍّ وهيئة دون زيِّه وهيئته المعتاد عليها).

هل رأيتَ قطُّ عُراةً أحسن من المُحْرِمينَ؟!

هل رأيت للمتزينين بِرياش الدنيا سَمْتًا كأثواب الصالحين؟!

هل شاهَدْتَ ماءً صافياً أَصْفَى مِن دُموعِ المُتأَسِّفِينَ؟!

هل رأيت رءوسًا مائلة كرءوس المُنْكَسِرِينَ؟!

هل لصِقَ بالأرض شىء أحسن مِن جباه المُصلِّينَ؟!

هل حَرَّك نَسِيمُ الأسحار أوراقَ الأشجار فبلغ مبلغ تحريكه أذيال (ملابس) المجتهدين؟!

هل ارتفعت أكفٌّ وانبسطت أَيْد فضاهت أكفَّ الراغبينَ؟!

هل حرك القلوبَ صوتُ ترجيح لَحْنٍ، أو رنةُ وَتَرٍ كما حرك حنينُ المشتاقين؟!

إنما يحسنُ التبذلُ فى تحصيل أوْفى الأغراض، فذلك حُسْنُ التبذل فى خدمة المنعم.

وقال مجاهد بن جبر المكى: مَن أعزَ نفسه أذل دينه، ومَن أذَلَّ نفسه أعز دينه.

* * *

١٧٧ - «لا يَجد حلاوةَ العبادة إلا مَنْ فيه ثلاثُ خِصال:

أن يستأثر الرجلة، ويَستلذَّ العُزْلة، ويترقب النقلة» [الحلية ١٠/ ٦٨]

• يستأثر الرجلة أى يكتفى بها في طعامه عَلامةً علي الزهد وهى نوع من الخضروات مزهود فيه يؤكل نيئًا ومطبوخاً واسمها البَقْلَةُ الحَمْراءُ.. أى يكون طعامه بُلْغةً وحياته كفافاً، وقد شرحها فى الحلية بالإقلال .

• يستلذ العزلة: أى يجد فى الأنس بالله غنى عن الائتناس بالناس، فإنهم مَشْغلة.

• يترقب النقلة: أى يتوقع الموتَ فى كل لحظة فيعمل لِما بَعْدَه.

فَمن كان طعامه كفافاً لا يُجهد نَفْسَه ولا يُنْفقُ وقْتَه في تحصيله فيتوفر الجهدُ والوقتُ لله، ومَن استلذ العزلة حَمَى نَفسه من شرور الناس وتوفرَله الوقتُ واجتمع قلبُه على ربه فى إخلاص ومَن خاف شيئاً استَعدَّ له.. وبهذه الثلاثة وجد حَلاوةً للعبادة وإقبالاً عليها وسروراً بها، ولا ينبغى للذاكر أن يستعجل حصول هذه الحلاوة له، فتكون هذه العجلة مدعاة لليأس من الفتح وتركه للذكر، وذلك لسببين:

إن فى الذكر وحده كفاية وقربة، وقد سأل جماعةٌ الشيخَ عثمان: نحن نذكر الله تعالى ولا نجد حلاوة فى قلوبنا، فقال لهم: أحمدوا الله تعالى أن زيّن جارحة من جوارحكم بطاعته؛ فهم إن حمدوه على ذلك زادهم من فضله.

وثانيهما أن الاستمرار فى الذكر مع عدم وجود حلاوته نوع من الصبر، والصابر مأجور، وانتظار الفتح وحصول الحلاوة حسن ظن بالله، وصاحبه مأجور أيضا ويقول الشاعر:

أخلق بذى الصبرِ أن يحظَى بحاجتِه ومدمن القرع للأبوابِ أن يلجا

***

(مكررة): لا تجعل الزُّهْدَ حِرْفَتَكَ لتَكْسبَ بها الدنيا. لكن اجعلها عبادتك لتَنالَ بها الآخرَة، وإذا شكَرك أبناءُ الدنيا ومدحوك، فأصْرِفْ أمْرهم على الخُرَافات»

• سترد هذه العبارة فى الباب السادس عشر باب الزهد تحت رقم (٢٠٧)

١٧٨ - «أَغْبَطُ الناسِ مَن سَلَكَ طريقَ آخرَتِه وأَصْلَحَ شأنَ عاقبتِه واجتهد فى فِكاك رقبته [الحلية : ١٠/ ٦٨]

• الغِبْطةُ هنا بمعنى: حُسْنُ الحالِ والمَسَرَّةُ، وأغبط الناس: أَسْعَدُ الناس حالا.. وهو مَن اجتهد فى طريقِ الله وُسْعَه، وأضاف إلى رَصيد آخرته ما يثقل ميزان حسناته، وأَعْتَقَ بالطاعات والصدقات مِن النار رقبته، والحديث «اتقوا النارَ ولو بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فإنْ لم تَجِدوا فبِكلمةٍ طيِّبة» رواه أحمد والشيخان.

***

١٧٩ - «لم أَجِد السرورَ إلا فى ثلاث خصال:

التنعُّمُ بذِكْرِ الله، واليأسُ مِن عِبادِ الله، والطُّمأنينةُ إلى مَوْعودِ الله» [الحلية: ١٠/ ٦٨]

أولا: التنعُّمُ بِذِكْرِ الله، أى طاب له الذِّكْرُ ونَعِمَ بفوائده.. ومنها:

١ - الذِّكْرُ أَيْسَرُ العبادات على البدنِ، فهو حركة باللسان، والأكمل مُطابَقةُ القلب.

٢ - الذكرُ غِراسُ الجنة «الجنة قِيعانٌ وغِراسُها سبحان الله والحمدُ لله والله أكبر.. الحديث»

٣ - الذكرُ يُزِيلُ الهَمَّ والغَمَّ عن القلب ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

٤ - الذكر يُورِثُ المُراقَبةَ، وشيئاً فشيئاً يصير إلى الإحسان، وهو أن تَعْبُدَ الله كأنك تراه، فإنْه لم تَكُنْ تَراه فإنه يَراك.

٥ - الذكر طاردٌ للشيطان، والحديث: «إذا نودِىَ بالصلاة أَدْبَرَ الشيطانُ وله ضُراطٌ».

٦ - يورث الذكرُ الإنابةَ إلى الله؛ فمنَ أكثر الرجوعَ إليه بذِكْره، أورثه ذلك رجوعَه بقلبه إليه، ومتى تَمَّ ذلك فقد أَسْلَمَ واسْتَسْلَمَ.

٧ - يورث الذكرُ القُرْبَ من الله، وعلى قدر الذكر يكون القُرْبُ، والحديث القدسى: «إذا تقرَّب إلىَّ العبدُ شِبْرا تقربتُ إليه ذراعًا وإذا تقرب إلىّ ذِراعًا تقربتُ منه باعًا ، وإذا أتانى مشياً أتيتهُ هَرْوَلَةً».

٨ - كُلَّما أكثر العبدُ مِن ذِكْرِ الله زاده الله من المعرفة به.

٩ - الذكر يورث الهَيْبة لله، لشدة استيلاء الذكر على القلب وحضوره مع الله.

١٠ - الذاكر يَذكره الله، ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢] والحديث القدسى: يا ابن آدم إنْ

ذكرتَني في نَفْسِكَ ذَكَرْتُكَ في نفسي، وإنْ ذكرتني في ملأ ذكرتُك في ملأ خَيْرٍ منهم... »
صحيح الجامع الصغير.

١١ - الذكر حياةُ القلب، وحديث البخاري: «مَثَلُ الذي يَذكر ربَّه والذى لا يَذكره مَثَلُ الحَيِّ والميت» وقال ابن تيمية: «الذِّكْرُ للقلب مثْلُ الماء للسَّمك» وقال الكتانى: «رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنَام، فقلت يا رسول الله، ادع الله أن لا يميت قلبى، فقال ﷺ: قل كل يوم أربعين مرة: «يا حى يا قيوم، لا إله إلا أنت؛ فإن الله يحيى قلبك».

١٢ - الذكر جلاءٌ للقلب، إنَّ القلوب تَصْدأ كما يصدأ الحديدُ وجلاؤها ذكْرُ الله.

١٣ - الذكر يُكفِّر الذنوب، فإنه من أعظم الحسنات قال تعالى ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود - ١١٤].

١٤ - يتم التعرفُ به إلى الله ويُزيل الوحشة بيَن العبد وربه، والحديث: «تَعَرَّفْ إلى الله فى الرَّخاء يَعْرفك فى الشِّدَّة».

١٥ - الذكر يأخذ بيد صاحبه عند الشدائد ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

١٦ - الذكر يُنَجِى من العذاب.. الحديث الصحيح: «ما عمل ابن آدم عملا أنجى له من عذاب الله من ذكرِ الله».

١٧ - الذكر سَبَبٌ لنزول السكينة وغشيان الرحمة وحُفوف الملائكة بالذاكر والحديث الصحيح «ما اجتمع قَومٌ فى بَيْتَ من بيوت الله يتْلُون كتابَ الله، ويتدارسُونه بَيْنَهم إلا نزلت عليهم السَّكينة وغشيتْهم الرَّحْمةُ، وحَفَّتْهم الملائكةُ وذَكرهم اللهُ فيمنْ عنده».

١٨ - فى الذِّكرِ شُغْلٌ للِّسان عمّا يَكُبُّ صاحبه فى النار من حَصائِد اللسان، كالكذب، والغِيبة، والنميمة، وفُحْشِ القول..

١٩ - إظلالُ الله للذاكر يوم الَحرِّ الأكبر.. والحديث «سبعةٌ يُظلُّهم اللهُ فى ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه...، منهم رَجَلٌ ذَكر الله خاليًا ففاضت عيْناه».

٢٠ - الذاكرُ فى مَعيَّة الله، والحديث القدسى «عَبْدِى أنا عنْدَ ظَنِّكَ بى، وأنا معك إذا ذَكرتَنى» أى فى معية الولاَية والمحبة والنُّصْرة.

٢١ - الذاكر من جُلَساء الَملك، والحديث القدسى: أنا جَليسُ مَن ذَكَرَنى (ح ٦١١ كشف الخفا).

٢٢ - يُعطى الذاكرُ أفضلَ مَا يُعطَى للسائلين والحديث «مَن شَغَله ذكْرى والقرآن عن مَسْألَتى أعطيتهُ أفضلَ ما أُعْطِى السائلِينَ».. وقالوا: إن الرضا هو أفضلُ مَن جميع عَطايا السائلين فى

الدنيا من أعراضها.

٢٣ - رتّب الله على الذكر من المثوبة والجزاء الخيَر الكثير في الدنيا والآخرة، والأحاديث في ذلك كثيرة.

٢٤ - ذكر الله يُوجب الأمان للذاكر من نسيان نفسه، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]، ومتى نسى العبدُ نفسه شَقِيَ في مَعاشه ومَعاده.

٢٥ - الذِّكْرُ نُورٌ للذاكر في دنياه، وفي قبره، ويَسْعَى بين يديه على الصراط قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

٢٦ - الذكر مَنْشُورُ الولاية - كما قال أبو علي الدقاق - فمن وُفِّقَ للذكر فقد أعطى المنشور، ومَن سُلب الذكر فقد عُزِل، ومن فتح له في الذكر فقد فُتِح له بابُ الدخول على الله، فمَن وجد ربَّه عَزَّ وجَلَّ وجد كل شيء، ومَن فاته ربه عز وجل فاته كُلُّ شيء.

٢٧ - الذكر يُذكِّر الذاكر بالآخرة التي يُبعدها عنه التسويفُ والأَمَلُ وتَزيينُ الشيطان، فيعمل لها.

٢٨ - الذكر يجمع ما تفرق على العبد من قلبه واهتماماته في هم واحد، وفي هذا سعادته في الدارين، والحديث الصحيح: «مَن كانت الآخرةُ هَمَّهُ جعل الله غناه في قَلْبه وجمع له شَمْلَه، وأَتَتْه الدنيا وهي راغمةٌ، ومَن كانت الدنيا هَمَّه جعل فَقْره بين عينيه، وفرق علي شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له».

٢٩ - الذكر يفرق ما تراكم على العبد من الهموم والغموم والأحزان والحَسرات وأيضا الذنوب والخطايا.

٣٠ - الذكر يفرق ما اجتمع على الذاكر من جُند الشيطان، وأَعْوانه من الناس.

٣١ - الذكر شجرةٌ تُثْمرُ المَعارفَ والأحوالَ - كما قال ابن القيم - التي شمر لها السالكون.. فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد.

٣٢ - الذِّكْرُ رأْسُ الشُّكْر، ومن حديث زيد بن أسلم عند البيهقي «أن موسى عليه السلام قال: رَبِّ قد أنعمتَ عليَّ كثيراً، فدلَّني على أن أشكرك كثيراً، قال: أذكُرْني كثيراً فإذا ذكرتني كثيراً فقد شكرتَني كثيرا، وإذا نسيتَني فقد كَفَرْتَني».

٣٣ - ذكر الذاكر يقابله صلاة الله ومَلائكته علي الذاكر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٣] وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

٣٤ - الذكر رياضُ الجَنّة، والحديث: «إذا مَرَرْتُم برياض الجنة فارْتَعُوا ، قالوا: وما رياضُ الجنة؟ قال «حِلَقُ الذِّكْر». وهي رياضٌ لما يجد فيها الذاكرُ من لذة قال عنها مالك بن دينار: «ما تَلَذَّذَ المُتلذِّذُونَ بمِثْلِ ذكْرِ الله»، وقال عنها المُناوي «ذكْرُ الله في الدنيا كالنظر إليه في الآخرَة فالذاكر لله بلسانه مع حضور قلبه، مُشاهِدٌ له بسِرِّه، ناظِرٌ إليه بفؤاده، ماثِلٌ بين يديه ببدنه، فكأنه يَرْتَعُ في رياض الجنة».

٣٥ - الذكر يُزيلُ قَسْوَةَ القلب، سأل رجُل الحسنَ البصريَّ قال «يا أبا سعيد أشكو إليك قسوةَ قلبي، قال له أَذِبْهُ بالذِّكْرِ».

٣٦ - الذكر أصْلُ موالاة الله فما يزال العبدُ يَذْكُرُ الله حتى يُحِبَّه الله ويوالِيَه ومَن يغفل عن ذكره يُبْغضُه ويُعاديه.

٣٧ - الذكر جالبٌ للنعم فالذكر رأس الشكر وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

٣٨ - الذكر حصنٌ أمان.. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨] وفي قراءة «يَدْفَع»، ومادة الإيمان وقوته بذكر الله تعالى؛ فمن كان أكثر ذِكْراً وأكمل إيماناً كان دَفْعُ الله عنه ودفاعُه أَعْظَمَ..

٣٩ - مَجالسُ الذكر مجالس الملائكة، لا يجلسون إلى غيرها في الدنيا، فعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن لله تعالى مَلائكةً سَيَّاحِينَ في الأرض فُضُلا من كتاب الناس، يَطوفون في الطرق، يَلتمسون أَهْلَ الذِّكْر، فإذا وَجَدوا قَوْماً يذكرون تَنادَوْا: هَلُمُّوا إلى حاجَتِكم، فيَحفُّونهم بأجنحتهم إلى سماء الدنيا..» الحديث رواه أحمد والشيخان.. وتمام الحديث برواية الشيخين في باب المحبة عبارة رقم ٣٢؛ ويروى عن أم الدرداء رضى الله تعالى عنها قالت طلبت العبادة بكل شيء، فما وجدت أشفى لصدرى من مجالسة أهل الذكر.

٤٠ - مَجالس الذكر يُباهي بها اللهُ ملائكته، روى مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: «خرج معاوية على حلقة في المسجد، فقال: ما أَجْلَسَكُم؟ قالوا: جَلَسْنا نذكر الله تعالي قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاكَ؟ قالوا: والله ما أَجْلَسَنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أَسْتحْلفكم تُهْمَةً لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم أَقلَّ عنه حديثاً منِّي، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه فقال ما أجلسكم؟ قالوا جلسنا نذكر الله تعالى ونَحْمَدُه على ما هدانا للإسلام، ومَنَّ علينا بك، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاكَ؟

قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إنى لم استحلفكم تهمة لكم، ولكن أتانى جبريل، وأَخْبَرَنى أن الله تَبارَكَ وتعالى يُباهِى بكم الملائكة».

٤١ - الذكر يُعطِى الذاكر قوةً إضافية، حتى إنه ليفعلُ مع الذكر مالا يفعله بدونه.. عندما ذهبت السيدةُ فاطمةُ الزهراء رضى الله تعالى عنها تسأل النبِّى صلى الله عليه وسلم أن يعطيها خادماً من السَّبْى فما أعطاها بل قال لها: «ألا أدلك على ما هو خَيْرٌ لك من خادم: تُسَبِّحينَ اللهَ ثلاثاً وثلاثين، وتَحْمدَين ثلاثاً وثلاثين، وتُكَبِّرين أربعاً وثلاثين حين تأخذين مُضْجَعَك» رواه مسلم.

٤٢ - المداومة على الذكر تَنوبُ عن التطوعات، وتقوم مَقامها، يروى عن أبى هريرة أن فقراء المهاجرين أَتَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: ذهب أَهْلُ الدُّثور بالدَّرجات العُلا والنَّعيم المُقيم، يُصَلُّون كما نُصَلِّى، ويَصومون كما نَصوم، ولهم فَضْلُ أموالهم يَحُجُّونَ بها ويَعْتَمرونَ ويُجاهدونَ فقال: ألا أعلمكم شيئاً تُدركُون به مَن سَبَقكم، وتسبقون به مَن بعدكم، ولا أحد يكون أفْضَلَ منكم إلا مَن صنع مثْلَ ما صنعتم، قالوا بلى يا رسول الله، قال: تسبحون وتحمدون وتكبرون دُبُرَ كُلِّ صَلاة» متفق عليه.

٤٣ - أَفْضَلُ كُلِّ عمل من نَوْعه ما كان فيه ذكْرٌ أكثر، فأفضلُ الصائمين أكثرهم ذكْراً فى صومهم، وأفضل الحجيج أكثرهم ذكرا أثناء حجهم وهكذا فى الصلاة وسائر العبادات وللذكر فوائد أخرى وقد اكتفينا بما أوردنا وهو يعتبر أساساً لغيره.. نفعنا الله وإياك به، آمين.

ثانيا: من أسباب السرور اليَأسُ من عباد الله لأنه يؤكِّدُ الاعتمادَ علي الله، ويقول عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: «إَن الطَّمَع فَقْرٌ، وإنَّ اليأسَ غنى، وإنه مَن ييْأسُ عَمّا فى أيدى الناس استَغْنَى عنهم» واليأسُ ممّا فى أيدى الناس يُورثُ القَناعةَ، ويُريحُ القَلْبَ، ويُكْسِبُ حُبَّ الآخرينَ، ويَحْميكَ من أطْماعهم. ويقول الشاعر:

إن ابن آدم لا يُعْطيكَ نَعْجَتَهُ ... إلا ليَأخُذَ منْكَ الثَّوْرَ والجَمَلاَ

لَوْ يَعْلَمُ الكَبْشُ أنّ القائمينَ عَلَى ... تُسْمِينه يُضْمِرُون الشَّرَّ ما أكَلاَ

ثالثا: من أسباب السرور الطمأنينة إلى موعود الله: فمتى أطمأن العبدُ إلى أن رزقه سوف يأتيه، وأن ما قسمه الله له لاريب يُوافيه، رَفقَ بنفسه فى سَعْيه فارتاح بَدنُه، وهدأت نفسُه، وطهر قلبه من داء الحسد لمنَ حَوْلَه، وساد الوُدُّ والسلام علاقاته الاجتماعية ووسع الله عليه وأراح بالهَ.

***

١٨٠ «عَجبتُ لثلاث وفرحتُ لثلاث واغتممتُ لثلاث:

* فالتى عـجبت منها: فتنةُ الـعالم؛ وسُرورُ الإنسان بما أصـابَ من الدنيا، وهو تُراثُ مَن تَقدَّمه، وتراثُ مَن يَخْلُفُه، يُسْلَبه ثم يُؤْخَذُ بحسابه؛ ومَن رتع فى أفواه أمانيه فى مراتع الموت.

* وفرحت لثلاث: إظهارُ الله آدمَ على إبليسَ، وهذا مَلَكٌ وهذا بَشَرٌ؛ وإخراجهُ إيّانا فى هذه الأُمَّة؛ والخَصْلَةُ الثالثة وهى أشرفُ الثلاث: معرفةُ الله تعالى.

* واغتـتمت لثلاث: لذُنوب أُسلفتُـها؛ وأيام ضيـعتُها؛ والخـصلة الثالثة وفيـها الخطر العظيم، وقـوفى بين يدَى الله عز وجلّ، لا أَدْرى ما يَـبْدُو لى منه، وذلك المقام الشديد، لا يتوقع فيه المُحاسَبُ بماذا يُخْتَمُ له». [الحلية: ١٠/ ٦٨].

• وهناك إضافة صغيرة بعد هذه العبارة بدون فاصل، وهى لاشك تعليقًا ليس من كلام الشيخ يحيى، وهى: (أيامَ ضيعـها) يعنى فى الغفلة وترك الاستعداد.. وفى العـبارة إبليس وذكره على أنه ملك على القول أنه كان طاووس الملائكة قَبْلَ زلّة عدم السجود لآدم.

***

(مكررة): عند ذكْر الموت تموتُ الدنيا، وعند ذكر العقبى تموت الدنيا، وعندذكر المولى تموت الدنيا مع العقبى، فعليك بذكر المَوْلى يوصُلُك إلا العُلا».

• ذكر المولى يوصل إلى العلا.. انظر فوائد الذكر فى العبارة ١٧٩.

* * *

١٨١ «اعْلَموا أنه لا يَصِحُّ الزُّهْدُ والعبادةُ، ولا شىء، من أمـور الطاعة لرجُل أبداً وفيه بَقِّيةٌ، فإنْ أردتُم الوصولَ إلى محض الزُّهْد والـعبادة، فأَخْرِجُوا مِن قلبكم هذه الخصلـة الواحدة، وكونوا رحـمكم الله مِن أبناء الآخـرة، وتعاونُوا واصْبِروا وأبْشِرُوا تظفروا إنْ شاء الله» [الحلية: ١٠/ ٦٤].

• الطمع يبعثه عَدَمُ الرضا بالمقسوم، ويجرُّ إلـى كثير مِن الشرور، وأخطرها ما يتـصل بسلامة العقيدة. وصدق الششترى فى قوله:

إن تُرِد وصْلنـا فـمـوتك شـرطٌ لا ينـال الوِصَـالَ مَن فـيـه بقـيـه

* * *

١٨٢ - «اعلم أن النفس والهوى لا تُقْهَران بشىء أفضلَ من الصَّوْم الدائم، وهو بساطُ العبادة، ومفتاحُ الزُّهْد، وطَلْعُ ثمرت الخَيّر، وأجسادُ العمال من شجراته، دائم الجَزاز، دَائم الإطعام، وهو الطريق إلى مرتبة الصِّدِّيقين وما دُونه فمزرعة الأعمال، فثمر غرسها ورَبيعُ بَذْرها فى تركها، وفقدها فى أخذها، وليس معنى التَّرْك الخروجَ من المال والأهلَ والولد، ولكن معنى الترك العمل بطاعة الله، وإيثار ما عند الله عليها مأخوذة ومتروكة» فهذا معنى الترك، لا ما تَدَّعيه المتصوِّفةُ الجاهلون» [الحلية: ١٠/ ٦٥].

• هذه العبارة عن أهمية الصوم فى قهر النفس والهوى

• فالصبر يَقهر النفسَ والهوى ويَرْدعُ شهوات الإنسان، وهى ساحةُ الشيطان ومَلْعَبُه، فإن الشَّبَعَ الزائد مَجْلَبَةٌ للآثام، ولذا قَيَّده الله فى قوله الكريم ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١] والحديث الشريف: ما مَلأ آدميٌّ وعاءً شراً من بَطْنه» وأيضا «الصِّيامُ جُنَّةٌ» أى تُرْسٌ يَتَدَرَّعُ به الآدميُّ فى صراعه مع النفس والهوى.

• والصيام بساط العبادات وبابها، فهو يَسُدُّ الطريقَ على شهوات النفس وغزوات الشيطان، فتكف الجوارحُ عن فعل المُوبقات، وتُقْبلُ على الطاعات.

• والصوم مفتاحُ الزَهد أى مَدْخَلٌ إليه، ويُعينُ عليه فى تَرْكِ الحرام والإقلال من فضول الحلال.

• والصوم طلع ثمرات الخير، والطلع ما به إخصاب النخلة حتى تثمر، كما يطلق على أعضاء التذكير فى الزهرة، وهو طلع أى يفتح عنه الكثير من الطاعات، وأجساد العباد من شجراته المثمرة التى طرحُها دائم، ولذا كان جَنْيها دائم الجَزاز (أى الحصاد)؛ وما دونه من ملذات الدنيا، فثمرتها فى تركها، وفقدها في أخذها، وليس الترك معناه الخروج من المال والأهل والولد فهذا يجب رعايته، ولكن أن يأخذ ما يأخذه لله ويترك ما يتركه لله مؤثراً ما عند الله علي كل ملاذها، وهذا هو مذهب الصوفية الحقة لا ما يدعيه أدعياء التصوف.

* * *

١٨٣ - فى قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠]
قال: استقاموا أفعالاً كما استقاموا أقوالاً

• أى طابق العملُ القول باللسان، وهذا هو الصدق ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

١٨٤ - «لست بشاكرٍ ما دُمْتَ تَشْكُرُ، وغايةُ الشكر التَّحيرُ» [التعرف: ٧١].

• الشكرُ أبلَغُ مِن الحَمد، فالحَمْدُ ذِكْرُ الشيء بصفاته، والشكر ذكره بصفاته ونعمه، والشكر على ثلاث أضرب:

أ - شكر بالقلب: هو تَصورُّ المُنْعَم عليه للنعمة التى أسداها إليه سيِّدُه ومَوْلاه.

ب - شكر باللسان: هو الثَّناءُ على المُنْعِم جل جلاله.. وذكْرُ النعـمة وإظهارُها من الشكر عليها، وروى البيـهقى فى شـعب الإيمان: «التحـدثُ بنعمـةَ الله شكرٌ، وتركُـها كُفْـرٌ، ومَن لا يشكر القليل لا يشكر الكثيرَ ومن لا يَشكر الـناس لا يَشكر الله، والجمـاعةُ بركـة، والفُرقـةُ عَذَابٌ (صحيح).

جـ - شكر بالجوارح على ضربين:

١ - توظيف الجوارح فيمـا أَحَلَّ الله، فالعين - مثلاً - للنظر فى كتاب الله وللاعتبـار، وغير ذلك من الأعمال المُباحة

٢ - حفظ الجوارح بعدم استخدامها فى ارتكاب ما حرم الله.

• ونعم الله لا تحصى، ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وما دامت نعمه - جل جلاله - فوق الحَصْر، صار تمام شكره غيـر مقدور عليه، لذا قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. ومـَّما يُصعِّب على العبـد شُكرَ الله على نعمه إلا بفضله: كـثرتُها هذا إلى جانب إنا إذا مـا شكرناه على نعمـة ما، فإن هذا الشكـر نعمة يحـتاج إلى شكر، فإذا شـكرناه ثانيًا يحتاج إلى شكره ثالثًا على نعمـة شكره الثانى، وهكذا فى الثالث والرابع إلا مالا يتناهى، وهذا ما عبر عنه الشاعر:

إذا كـانَ شُكْـرِى نِعْـمَـةَ الله نِـعْـمَـةً ... عَلَـىَّ لَهُ فـى مِـثْـلهـا يجـب الشُـكْرُ

فـكيـف بُلـوغُ الشـكـرِ إلا بفَـضْلـه ... وإنْ طالـت الأيامُ واتـصل الـعُـمْـرُ

وقوله غاية الشكر التحير، التحير فى الله حالات تتولى قلوب العارفين بين اليأس والطمع فى الوصـول إلى مطلوبه فلا تطـمعـهم في الوصول فـيرتَجـوا ويزيدهم ذلك سـعيـا فى الطلب، ولا ييأسهم عن الطلب فيستريحوا، فـعند ذلك يتحيرون، وكان بعض الكبراء يقول فى مناجاته: اللهم إنك تعلم عجزى عن مواضع شكرك، فأشكر نفسك عنى.

* * *

١٨٥ - «قَوْمٌ على فُـرُش من الذِّكْر فى مَـجْلس من الشَّوْق، وبَساتـينَ من المُناجاة، بين رياض الأطراب وقَصُـور الهَيْبة وفِناء مـجَال الأنْسِ، مُعانِقِى عَـرائِس الحِكْمة

بصُدور الأفـهامِ، مناغى زفرات الوجـد وجوه الآخرة بفنون الأفـراح، تعاطوا بينهم كؤوس حبه، سـقاهم فيها، وغوتهم على شربها فـرقان الشَّجا تجرى فى الأكـبـاد تديم علـيـهم ذكـر الحـبيب، ويبلبلهم مـعـهـا هـيـمـان الوجـود» [الحلية: ١٠/ ٦١].

• . . . .

* * *

١٨٦ - «الصَّوْتُ الحَسَنُ روْحـة مِن الله تعـالى لقلبٍ فيـه حُبُّ الله تعـالى» [اللمع: ٣٣٩]

• كان الحـارث بن أسد المحـاسبى رحمـه الله تعالي يقـول: ثلاث إذا وجدت مُتِّع بهنَّ، وقد فقدناهن أجمع: حسن الصوت مع الديانة، وحسن الوجه مع الصيانة، وحسن الإخاء مع الوفاء.

وقـال الشيخ مـحمـود شلتـوت شيخ الأزهر رحـمه الـله «فى فتـاويه ٣٥٨، ٣٥٩) إن سمَـاعَ الآلات ذات النغمات والأصوات الجميلة لا يمكن أن يُحَرّم باعتباره صَوْتَ آلة أو صوت إنسان أو صوت حيـوان، وإنما يحـرم إذا استـعنت به علي مُحرّم أو اتُّخِـذَ وسيـلة إلى مُحـرّمٍ أو أَلْهَى عن واجبٍ».

وسئل ذو النون المصْرىُّ رحمه الله تعـالى عن السَّماع فقال «واردُ حَقٍّ يُزْعِجُ القُلوبَ إلى الحَقِّ فمَن أَصْغَى إليه بِحَقٍّ تَحقق، ومَن أصغى إليه بِفسقٍ تزنْدَق».

وقال أبو عبـدالله ابن الخفيف الشيـرازى: السماع للعارفين جـائز وللمريدين باطل، وليس هو بحال ولا قُربه، وتركه أولى على الجملة لكثرة آفاته وعظم فتنته.

ويحكى فى ذلك أن أحد العلَماء سمع مغنيًا يقول:

إذا العـــشـرون مِن شَــعْـبـــانَ وَلَّتْ ... فـــواصِلْ شُـــرْبَ لَيْـلِـكَ بِالـنَّهـــارِ
ولا تَشْـــرَبْ بـأَقْـــداحٍ صِـــغـــارٍ ... فــإنَّ الوَقْـتَ ضـاقَ عـن الصِّـــغـــارِ

ففهمها على أن السِّنَّ تقدَّمت به فانْخَرطَ فى العبادة بكُلِّ جُهْده.

* * *

١٨٧ - وسُئل يحيى بن معاذ عن الرَّقْصِ فقال:

دَقَـــــقَنا الأَرْضَ بالـرقـصِ   مَعَ غَــيْـبِ مَــــغـــانيكـا
ولا عَــــيْــبٌ عـلـى رَقْصٍ   لعَـــبـــدٍ هائمٍ فـــيكـا
وهـــذا دقّــــنـا لـــلأَرْ   ضِ إذ طَــفــنـا بــوَادِيـكـا

• التمايُلُ ليس شَـرْطا فى الذِّكْرِ، ولكنه جائزٌ لأنه يُنشِّطُ الجسمَ للذكر، ويسـاعده على حضور القلب على الله تعالى، وقد صح عن الصحابة رضوان الله عليـهم أنهم كانوا يتمايلون حال الذكر (١٩٧/ الحجة المؤتاة).

• ولما سئل ابن حـجر الهيتـمى - عن الوجد وأثره فى التواجد ومشروعيتـه قال: نعم له أصل فقد روى فى الحديث أن جعفر بن أبى طالب رقص بين يدي النبى صلي الله عليه وسلم لما قال له: أشبهت خلقى وخلقى، فحـجل وذلك من لذة الخطاب، ولم ينكر عليه النبى صلى الله عليه وسلم (الفتـاوى الحديثية: لابن حـجر، والحديث عن البـراء رضى الله تعالى عنه فـيمـا يرويه الشيـخان وأحمد ١/ ٩٨، ١٠٨، ٢٣٠، ٤/ ٣٤٢.

والوجد مـا صادف القلب من غم أو فـرح، يعرض للذاكـر أو السامع، ويختلـف رد الفعل له حسب قوة الوارد أوضـعفـه، وحسب حـالة المتلقى قال تعـالى ﴿مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] والتواجـد- عند الجرجانى - استـدعاء الوجـد، وقد انكره قـوم لما فيـه من التكلف، وأجازه قـوم لمن يقصـد به تحصيـل الوجد، والسند فيه قوله صلى الله عليـه وسلم : «إن لم تبكوا فتباكوا» وقالوا: أراد التباكـى ممن هو مستعد للبكاء، لا تبـاكى الغافل اللاهى. ومن صور التـواجد الزفـير والشهـيق والبكاء والغشـية والأنين والصـراخ والقفـز.. ادعاؤهـا كذب علي الله وعلي الـناس، أما من غلب عليـهـا فلا شيء عليـه: (الفـوائد لابن القـيم : ١٩١). وقد حـدثنى غـير واحـد من الثـقات أنه رأى الـوالد يسمع لأحـد المنشدين وقد بدأت تنتفخ أوداجُه مع المديح حتى تساوت مع كـتفيه، أو كادت فصرخ وتنبه لذلك المنشد فتوقف وقال له الوالد: كدت تقتلنى.

* * *

١٨٨ - عَجبتُ لمنَ يَصبِرُ عن ذكْرِ الله وأعجبُ منه من صَبَرَ عليه كيفَ لا يَتَقَطَّعُ؟ ثم قال: نُدافعُ عَيْشنا بالجُهْدِ جَـهْداً   مُـدافَـعَـةً إلى جُـهْـدِ المنايا
[الحلية: ١٠/ ٦٠]

• كيف لا ينشغل الناس بالذكر طول الوقت، وفوائده لا تحصى

وكيف لا يتقطع من كان مثابرًا علي الذكر صابراً عليه لكثرة المشاهدات وغلبة الواردات وبعضها فوق طاقات البشر، ولله فى خلقه شئون.

* * *

١٨٩ - قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى يخاطب نفسه

مَــجِّــدْ إلـهك يَحْــيَى إنَّهُ مَـلكٌ   مُـهَـيْـمـنٌ صَـمَـدٌ للذَّنْب غَـفّـارُ
أَشْكُـر لَهُ حِكَمــاً أتـاكــهـــا مِنَنًا   تَتْـرَى تُـوافـقُــهـــا فى الـدِّين آثارُ

[الحلية ١٠/ ٥٩]

• يُذَكِّر شيخنا يحيى نفسه بنعمة الله عليه والثناء على الله وتمجيده على ما من عليه بأن أطلق لسانه بكلمات حكيمة توافق ما ورد في الدين من آثار ، والأثر: الخبر المروى والسنة الباقية.

* * *

١٩٠ - عُصْفُورٌ اصطاد كُرْكِيًا

• الكُرْكى: طائرٌ كبيرٌ أغبرُ اللَّوْنِ طويلُ العُنُقِ والرجلَيْن.. والعصفور معروف بضآلته.

والحكاية هى أنّ أبا سليمان الداراني ت ٢١٥ قال: اختلفتُ إلى منزل قاصٍّ (من يعظ الناس معتمداً فى وعظه على القصص والسِّيَر وظهر هذا فى عهد الخلفاء الراشدين ومَن جاءَ بعدهم) يقول الداراني: فـأثَّر كلامُه فى قلبى، فلما قُـمْتُ لم يَبْقَ في قلبي (من كلامه) شيء، فعدتُ ثانياً، فسمعتُ كلامه، فبقى في قلبي كلامُه فى الطريق ثم زال، ثم عدتُ ثالثاً فبقى أثر كلامه فى قلبى حتى رجعتُ إلى منزلى، فكسرتُ آلات المُخالفَات، ولَزِمتُ الطريقَ، فحكيتُ هذه الحكاية ليحيى بن معاذ، فقال: «عصفور اصطاد كُركيا» أراد بالعَصفور ذلك القَاصَّ وبالكركى الداراني ولعل شيخنا قصد بالكركى ما صارإليه الداراني فيمابعد، أما فى أول الأمر فقد كان كلاهما عصفوراً، الصيد والصياد.

***

١٩١- «إن لله مَقاود معلقة بالعرش بعدد قلوب المؤمنين، لكل قلب مقْود فلا يذكر ذاكرٌ ربّه حتَى يحرك الربُّ مقْوده» ثم قال «حركة المقود هى قَبل ذكر الذاكر للرب» [علم القلوب: ١٨].

• المِقود والقِياد: الزمام الذى يقاد به البعير، والجمع مقاود.

والحديث الصحيح «عجب ربُّنا من قوم يقادون إلى الجنة فى السلاسل» رواه أحمد والبخارى وأبو داود وهذه المقاود هى الأسباب الموصلة إلى رضا الله فقد أمرنا بالعمل حسب شريعة الله، وإلا فالعاقبة سوء المصير.. فولد هذا الوعيد خوفاً هيج النفس إلى مجانبة المعاصى والإقبال على الطاعات.. فمن سبق له فى الأزل السعادة تيسرت له أسبابها حتى تقوده بمقاودها إلى الجنة، قال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وروى الطبرانى عن ابن عباس وعن عمران بن حُصَيْن باسناد صحيح،قال رجل: يا رسول الله أنعمل فيما جرت به المقادير وجف به القلم، أو شئ نستأنفه؟ قال: «بما جرت به المقادير وجف به القلم» قال: ففيم العمل؟ قال «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له» وروى الشيخان من حديث على قال: كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد، فأتانا المصطفى صلى الله عليه وسلم فقعد، وقعدنا حوله ومعه مخْصَرة (عصا قصيرة) فنكس، وجعل ينكث بمخصرته، ثم قال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة» فقالوا: يا رسول الله أفلا تتكل على كتابنا؟ فقال: «اعملوا، كل ميسر لما خلق له». هذا وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

* * *

١٩٢ - «الكيس من عمال الله يلهج بتقويم الفرائض، والجاهل يعنى بطلب الفضائل وتقويم الأعمال فى تصحيح العزائم» (الصفوة: ٤/ ٩٢)

● الكيْس: العاقل الفطن، وعمال الله أى عابدوه وأهل الصدق معه.. والعاقل من عباد الله من يكون شغله الشاغل ما افترضه الله عليه، والحديث القدسى فيما رواه البخارى فى كتاب التواضع عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل «.. وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحبَّ إلىّ مما افترضتُ عليه» فيسعى الكيس فى مرضاة الله يقيم فرائضه بشروط صحتها وآدابها، أما غيره فيسعى فى طلب الفضائل النفسية وما درى أن عن طريق اجتهاده فى طاعة الله على الوجه الأكمل يتم له تزكية الأخلاق وتصحيح العزائم عن غير قصد منه، وذلك من فضل الله، فمثلاً الصلاة تغرس فى النفس: احترام المواعيد، والنظافة، والنظام، والطاعة،.. قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] والصوم يعلم الصبر، وقوة العزيمة وما أجمل أن نسرد هنا ما قاله شوقى أمير الشعراء رحمه الله فى الصوم.

الصوم هو: حرمان مشروع، وتأديب بالجوع، وخشوع لله وخضوع، ولكل فريضة حكمة، وهذا الحكم ظاهره العذاب وباطنه الرحمة، يستثير الشفقة ويحض على الصدقة، ويكسر الكبر،

ويعلم الصبر، ويسن خلال البر، حتى إذا جاع من ألف الشبع، وحرم المترف أسباب المتع، عرف الحرمان كيف يقع، والجوع كيف ألمه إذا لذع.

***

١٩٣ - «الكيْس من سُلِّط على تعذيب نفسه فى طاعة الله، فإن تعذيبها ينجيها، وترفيهها يرديها. [الزهد الكبير رقم ٣٩٠]

• خير الأمور أوسطها، روى أحمد عن أنس رضى الله تعالى عنه يرفعه: إن هذا الدين متين (أى قوى) فأوغلوا فيه برفق» أى لا تبالغوا فى العبادة ولا تكلفوا أنفسكم مالا تطيقون؛ وروى الطبرانى عن عمران بن حُصينْ يرفعه «عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يَملُّ حتى تَملُّوا» فإن المشقة تجعلكم تملوا أى تتركوا العمل، فيترك الله إثابتكم. وروى البخاري والنسائى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه يرفعه: «إن الدين يسر، ولن يُشادَّ الدينَ (أى يطلب الصعب) أحدٌ إلا غلبه، فسددوا (أى التزموا بالصواب) وقاربوا (أى ائتوا منه بما يقترب من الأكمل) وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلحة».. وتعذيب النفس يتحقق فى حرمانها من المعاصى والشهوات وكذلك الصبر على القيام بالطاعات.

* * *

الباب الخامس عشر

الجـــــوع

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى:

١٩٤ - «الجُوعُ على أربعة أَوْجُه:

للمُـريدينَ رياضةٌ، وللتـائبينَ تَجْـرِبةٌ. وللزُّهَاد سِياسـةٌ، وللعارفِينَ مَكْرُمَـةٌ». [اللمع: ٢٦٩].

• الجوع للمـريدين رياضة. فحرْمـانُ النَّفْسِ من إشباع شَهْـوة البَطْنِ يُعين على تَرْويض النَّفْس على مُخالَفَـة رَغَباتها وتعويـدها على صالح الفعال والطاعات. وليس الجـوعُ المَعْنِيُّ هنا هو الجُوعَ المُضْنِيَ الذى يُضعفُ البَدَنَ ويَحُول بين الشخـص وبَيْنَ أداء الفَريضة. راجع ذلك فى العبارة رقم (١٩٩) باب الزهد.

• الجوع للتائبين تجربة يعتاد بها الإصرار على عدم العَوْدِ إلى المعصية، والثباتِ على التوبة.

• الجوع للزهاد سياسة، فالإقلال من الطعام مذهبهم ودَيْدَنُهم ساسُوا أنفسهم عليه.

• الجوع للعـارفين مكرمة: فالعارف تَجـاوزَ مَرْحَلَةَ الجوع كرياضـة أو تجربة أو سياسـة، فصار الجوع لهم مكرمة.

* * *

١٩٥ - «الجُوعُ نُورٌ، والشِّبَعُ نارٌ، والشَّهْوَةُ كـالحَطَبِ يَتَولَّدُ منه الإحـراقُ، فلا تَطفىء نارُه حتى تَحْرِقَ صاحبَه». [الرسالة: ١١٣].

• روى ابن أبى الدنيا فـى «مكايد الشيطان» الحديث: «إنَّ الشـيطانَ يَجْرى من ابن آدم مَـجْرَى الدَّم، فضـيِّقـوا مَسـالِكَه بالجُوعِ» ومـتى ضاقت مَسـالكُ الشـيطان انفتح العَبـدَ على طُرُقِ الرِّضا والرِّضْوان.

• والشِّبع نارٌ، وذلك لأن إرضـاء النفس مـن شهـوة البـطن يجـعلهـا تتـدلل فى طلب بَقِـيَّة الشهوات، هذا غير ما يتولد عن الشبع مِّن كَسَلٍ وتهاوُن فى العبادات والنوم عن الطاعات؛ والذى يُعطِى البَطْنَ فـوق حاجتـها لا يرضى لهـا - بعدَ ذلك - بالقليل كـما أوكَيْـفًا، فيـسعى العبد إلى

إرضاء بطنه وسَدِّ حاجة جَسده من حلال أو حَرام، وربما يدفعه ذلك إلى الطَّمَع فيما فى أيدى الناس.. فيكون كعبد السُّوء إنْ جاع سَرَقَ، وإنْ شَبِعَ زَنَى، فشهوةُ الفَرْج مما يستدعيها ويعين عليها امتلاءُ البطن، وكلا الشهوتين مَدْخَلٌ للمعَاصى والفساد إلا لمَن رشد، والحديث الصَحيح: «يا مَعْشَرَ الشباب، مَن استطاع منكم الباءَةَ فليَتَزَوَّج؛ فإنَّه أَغَضُّ للبَصَر، وأحصن للفَرج. ومَن لم يستطع فعليه بالصَّوم، فإنه له وِجاءٌ».

* * *

١٩٦- «لَوْعُلِم أن الجُوعَ يُباعُ فى الأَسْواقِ، ما كان لطُلاّب الآخرة إذا دخلوا السُّوقَ أن يشتروا غيره». [اللمع: ٢٦٩].

• لِما يُحققّه مِن فَوائدَ.

* * *

١٩٧ - «جُوعُ التَّوَابينَ تَجْربةٌ، وجُوعُ الزاهدينَ سياسَةٌ،

وجوع الصِّدِّيقينَ مَكْرمَةٌ، والجوعُ طعامٌ يُشْبِعُ الله منه أَبْدانَ الصِّدِّيقينَ.

وإذا امتلأت المَعدةُ خرست الحِكْمَةُ.

وأشرفُ الجوع حالةٌ يَنظر إليكَ فيها العدوُّ فيرحمُك.

وأمقتُ الشبَع حالة ينظر إليك معها الصَّديقُ فيستثقلك.

فالحُزْنُ يَمنع الطعامَ، والخَوْفُ يمنع الذُّنوبَ.

والرجاء يُقوِّى على أداء الفرائضِ.

وذكْرُ الموت يُزهِّد فى الشىء.

وفى لقاء الإخوان مدافعة ما فضل من النهار.

وصَلاحُ الأمْرِ فى ذلك كُلِّه أن يكون علَى نِيَّةٍ. [الحلية: ١٠/ ٦٧].

• جمعت هذه العِبارةُ عِدَّةَ عِباراتٍ سبق أن وردت إمّا بالنَّصِّ أو بالمعنى، وتم التعليقُ عليها، فى مكانها...

* * *

١٩٨- «عَذِّبوا أَنْفُسكم فى طاعة الله بِتَرْكِ شَهَواتِها قبل أن تلقىِ الشهوة منها

أجسامكم فى أدبار عاقبتها، واعلموا أن القرآن قد ندبكم إلى وَليمة الجَنَّة، ودَعاكم إليها، فأَسْرَعُ الناس إليها أتْرَكهم لِدُنْياه، وأَوْجَدُهم لَذَّةً لطعَم تلكَ الوليمة أَشَدُّهم تجويعًا لنَفْسه.

فإنه ليس أَمْرٌ مِن أمور الطاعة إلا وأنتم تَحتاجون أن تُخرجوه من بين ضدين مختلفين بجهد شديد، وسأظهر لكم هذا الأمر؛ فإني وجدتُ أَمْرَ الإنسان عَجَبًا، فقد كُلِّفَ الطاعةَ على خِلاف ما كُلِّفَ سائرُ الخلق مِن أهل الأرض والسماء، فأحسن النظر فيه، وليكنِ العمل منك فيه على حسب الحاجة منك إليه، واستَعِنْ بالله فنِعْمَ المُعِينُ» [الحلية: ١٠/ ٦٤].

● روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «يَدخل فُقراءُ المُسلمينَ الجَنَّةَ قبل أغنيائهم بنصف يَوْمٍ، وهو خَمْسُمِائةِ عام» (صحيح الجامع الصغير).

* * *

الباب السادس عشر

الزهـــــــد

١٩٩ - قال شيخنا يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى فى الزهد:

«الزُّهْدُ فى ثلاثة أشياء: القِلَّة، والجُوعِ، والخَلْوَة» [الرسالة: ٢٧].

• أى أن الزهد يتحقَّق فى الظاهر فى ثلاثة أشياء ذكرها الشيخ، أمّا الزهد فى الباطن فلم يذكره شيخنا، وهو أَوْلَى بالذِّكر، وهو أن يُخلِص العبدُ فى عمله وقوله فلا يكونا إلا لله، لا يبغى بهما شيئًا مِن الدنيا أو مِن الخَلْق.

أولاً القلة: أى الاقتصارُ على قليلٍ من متاع الدنيا؛ قال الراغب الأصفهانى: «القَناعة. الرِّضا بما دُونَ الكفاية، والزُّهْدُ: الاقتصار علَى الزَّهيد أى القليل، وهما يتقاربان، ولكن القناعة تُقال اعتبارًا برضَى النَّفْسِ، والزهد يقال اعتبارًا بالتناول لحَظِّ النفس.. ولذا قال الصُّوفية: القَناعةُ أَوَّلُ الزُّهْد.

• ولو رضى العبد بعطيته لَكان فى ذلك قَناعتُه وكفايتُه، ولكن تطلعه إلى ما فَوْقَ حاجته يَفتح عليه بابًا عريضًا من الفَقْر لا يُسَدُّ، والحديث: «ولا يَملأ جَوْفَ ابن آدم إلا التُّرابُ»، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]. والاقتصار على ما يكفى فيه غنى النفس، وفى البخارى من حديث أبى هريرة يرفعه: «ليس الغِنَى عن كَثْرةِ العَرَضِ، ولكن الغنى غنى النَّفْسِ»؛ ويقول الشاعر الحكيم:

غَنَى النَّفْسِ ما يَكْفيكَ عن سَدِّ خَلَّةٍ ... فإنْ زاد شيئًا عادَ ذاكَ الغنى فَقْرًا

وقال آخر: خُذْ مِن العَيْشِ ما كفى ... فهو إنْ زادَ أتلفا

كسراج منور ... إنْ طفا دهنُه انطفأ

• والعبد أَبْصَرُ بنفسه وبما تصلح معه.. فمن الرعيل الأول: الإمام أحمد بن حنبل كان يَصلح معه خشن العيش، بينما كان مالك والشافعى يستعملان رقيق العيش، وهذا سفيان الثورى كان إذا سافَرَ حمل معه اللحم المشوىَّ والفالُوذجَ (المهلبية) وكان يقول: «الدابَّة (يقصد نفسه) إذا لم تُحسنْ إليها لا تَعمل»؛ وقالت رابعة: «إنْ كانت حياةُ قَلْبك مع الفالوذج فكُلْه».

ثانيًا الجوع: ليس من السُّنَن الكونية أن الإنسان يعيش ليأكل، ولكن المطلوب أن يأكل ليعيش، وقد علَّمنا الإسلامُ القَدْرَ النافعَ مِن الطعوم للإنسان؛ قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾

[الأعراف: ٣١]، ومن الحديث الصحيح قال ﷺ: «ما مَلأ آدمىٌّ وعاءً شرًا من بَطْنه، بحسب ابن آدم أكَلاتٌ، (وفى رواية: لُقَيْمات) يُقمْنَ صُلْبَهُ (أى يحفظن حياته)، فإنْ كان لا مَحالة فاعلاً (أى فإن كان متجاوزًا عما ذُكر) فثُلثٌ لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسه».

● وإجاعةُ البطن علاجٌ لكسر شهوات النفس، وترويضها للوقوف عند حدود الله؛ من امتثال فى فعْلِ الطاعات، واجتناب المَنْهيات؛ فإن النفس إذا أسرفَتْ فى تناوُل الحلال تاقت من لؤْمها إلى الحرَام، ولعل هذا يُفسِّر ما نراه فى مجتمعات الرفاهية مِن انحلالٍ وشذوذ. وقد أحْسَنَ الشاعر فى إيراد هذا المعنى فقال:

إذا المَرْءُ أعْطَى نَفْسَهُ كُلَّ ما اشْتَهَتْ ... ولم يَنْهَهَا تاقَتْ إلى كُلِّ باطِلِ
وساقَتْ إليه الإثْمَ والعارَ بالذَّى ... دَعَتْهُ إليه مِن حَلاوةِ عاجِلِ

● والطريق إلى الطُّعمة المثلى يبدأ بالصِّيام، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا إلى قلة الطعام المَسْنون فى الحديث الصحيح: «يُقمْنَ صُلْبَه». أى جوع لا يؤدِّى إلى تَلَف، وشِبعٌ لا يصل إلى حدِّ البِطْنة، ويقول البوصيرى فى ذلك:

واخْشَ الدَّسائسَ مِن جُوعٍ ومِن شِبَعٍ ... فَرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ مِن التُّخَمِ

وقال الإمام أحمد رحمه الله: «أكره التقلُّلَ من الطعام؛ فإن أقوامًا فعلوه فعجزوا عن الفرائض. والمُشاهَدُ مَن كثُر أكْلُه، كثر لذلك شُرْبُه، ومِن ثَمَّ زادت ساعاتُ نَوْمه، واعتراه الوَهَن، وكسل عن القيام بالطاعات.

والاعتدالُ فى تناول الطعام له فوائدُ كثيرةٌ؛ منها: نَشاطُ البَدَن، وصَفاء العَقْل، ومُساعدةُ المُعْوَزين، وتجنُّبُ شَراهةَ النفس، وانحسارُ الرغبة فى المعاصى، وتيسُّرُ العبادة وتوفُّرُ الوقت لها، فمَن قَلَّتْ مؤنته قَلَّ انشغالُه بتحصيل الرِّزْق.

ثالثًا الخلوة: الإنسانُ كائنٌ اجتماعى بطبعه؛ فهو لا يحتمل العَيْشَ بمعزل عن الناس؛ وقسر النفس على العزلة هى ثالثة الوسائل فى تزكية النفس وكَبْح جماحها حتى تُسلم قيادَها وتنتهج سُنَنَ الشريعة الغراء، وبعد، يعود صاحب العزلَة إلى الناس بعد أن ازدادت صلته بربه وأصبح وقد صارت خَلْوتُهُ فى قَلْبه، وقد عَبَّرتْ عن ذلك رابعةُ العدوية رحمها الله فى مناجاتها:

إنِّى جَعَلْتُكَ فى الفُؤادِ مُحَدِّثى ... وأبَحْتُ جِسْمى مَن أرادَ جُلوسى
فالجِسْمُ مِنِّى للجَليسِ مُؤانِسٌ ... وحَبيبُ قَلْبى فى الفُؤادِ جَليسى (١)

---

(١) قال الحافظ الذهبى رحمه الله فى كتابه سير أعلام النبلاء ٨/ ٢١٦ معلقًا على البيت الأول: «فنسبها بعضهم إلى الحلول بنصف البيت الأول، وإلى الإباحة بتمامه». قلت: (الكلام للحافظ الذهبى) «فهذا غلو وجهل، ولعل مَن نسبها إلى ذلك مُباحى حلولى، ليحتج بها على كفره، كاحتجاجهم بخبر «كنت سمعه الذى يسمع به». انتهى. وهى جزء من حديث موجود بتمامه فى شرح العبارة رقم (٤٩).

• وللخلوة فوائدُ؛ منها: السَّلامةُ فى الدِّين بعيدًا عن آفات الخلطة وما ينجم عنها من غيبة ونميمة وغير ذلك من المفاسد؛ وكذلك توفر الوقت للعبادة والتفكر.. ولكن لا تصح الخلوةُ إلا بعد التَّسلُّح بالعلم الذى تَسلم به العقيدةُ وتَصح به العباداتُ ويصفو به الحالُ.

* * *

٢٠٠- «الزُّهْدُ تَرْكُ البُدِّ». [التعرف: ٦٥].

• البُدُّ (بضم الباء وفتحها وكسرها): النصيب من كل شيء، وهنا المقسوم للعبد من متاع الدنيا، قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]. أى أَمْسكْ ما يُبَلِّغك، فذاك حظ الدنيا، وأنْفق الفَضْلَ فذلك حظُّ الآخرة. وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: علامة الزهد السخاء بالموجود.

• وقال أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى: «الزهد يقع عندنا فى الحلال والحرام؛ فهو فى الحرام فَرْضٌ، وفى الحلال نَفْلٌ».. وقالوا: الزهد فى محرمات الدنيا: زهد المسلمين، به يحسنُ إسلامهم؛ والزهد فى شبهاتها: زهد الورعينَ، به يكملُ إيمانهم.

والزهد فى الإسلام عدمُ الإنهماك بالكلية فى شئون الدنيا إلى الحد الذى تنسى معه شئونُ الآخرة، والحديث الصحيح: «مَن أَصْبَحَ آمنًا فى سِرْبه (أى آمنَ النفس والقلب، أو بمعنى آمنًا على أهله وماله) مُعافىً فى بَدَنه، وعنده قُوتُ يَوْمه، فكأنَّما حيزت له الدنيا». ويقول الشاعر:

حَسْبُ الفَتَى مِن دَهْرِهِ ... زادٌ يُبَلِّغُه المحلاّ
خُبْزٌ ومَاءٌ بارِدٌ ... والظِّلُّ حَيْثُ يريد ظِلاّ

• والزهدُ فى حلالها من فضل حاجات النفس زهدُ الزاهدين، به يَصفو يقينُهم. وهناك سؤال: كيف يكون الزهد فى الحلال؟.. قالوا: إذا أنفقَ ماله فى الطاعات، وعلم من حاله الصبر، وترك التعرُّض لما ينهاه عنه الشَّرْعُ فى حال اليسر، فحينئذ يكون زهده فى المال الحلال أتَمَّ منه فى الحرام. وقالوا أيضًا: إنْ رَزَقه الله مالاً من حلال شكره، وإنْ وقَفَه الله على حَدِّ الكَفَاف لم يتكلف ما هو فضول المال، فالصبر أحسن لصاحب الفقر، والشُّكْرُ أَلْيَقُ لصاحب المال. وقال أبو الدَّرْداء: «ما أنْصفنا إخوانَنا الأغنياءَ؛ لأنهم يأكلون ونحن نأكل، ويشربون ونحن نشرب، ويلبسون ونحن نلبس، ولهم فضولُ أموالهم ينظرون إليها ونحن ننظر إليها معهم، وهم يحاسبون ونحن بُرآءُ منها». (أى أبرياء من الدنيا).

• والبُد: أيضًا العوَضُ؛ وترك الزاهد للعوض أى أنه زاهدٌ أيضًا فى جزاء زهده، وذلك لاعتقاده أن الله جل جَلالهُ مُستحقٌ للعبادة دُونَ النظر إلى المقابل، وأيضًا لاعتقاده أن زهده فى الدنيا لا يُعَدُّ شيئًا يستحق عنه العوض، إذ إنها لا تُساوِى عند الله جَناحَ بَعُوضة كما جاء فى

الحديث الشريف؛ فكيف يُعدُّ نفسه زاهدًا مَن يزهد فى شىء أقلَّ مِن جناح بعوضة..؟!

* * *

٢٠١- «الزُّهْدُ تَرْكُ ما يرَى لما لا يرَى»

• لا يَزهد الزاهدُ فيما يراه - من متاع الدنيا وزينتها - رأىَ العين إلا لاعتقاده التام أن نعيم الآخرة أفضلُ وأبْقى؛ فما أخبرنا به رسولُ الله ﷺ من أمور الغَيْب، وإنْ كان لا يُرى بالأبصار فإنه يرى فيها بالبصائر أى بالأفهام والعقول.. وفى تأويل الآية الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧]؛ قالوا: أى لِنَبْلُوَهم أيهم أَزْهَدُ فيها، فصار الإحسانُ مَقامَ الزاهدين، وهو وصف اليقين.. وقد قال رسول الله ﷺ فى الإجابة عن سؤال الروح الأمين عليه السلام: ما الإحسان؟، قال: «أن تَعْبُد الله كأنكَ تَراه (يعنى على اليقين والمشاهدة) فإنْ لم تَكُنْ تراه، فإنه يراك».

* * *

٢٠٢- «لا يَبْلغ أحدٌ حقيقةَ الزُّهْدِ حتى يكونَ فيه ثلاثُ خِصال:

عَمَلٌ بِلا علاقة، قولٌ بلا طَمَعٍ، عِزٌّ بـلا رِياسةٍ». [الإحياء٤/ ٢٤٢ بلفظ علامة الزهد ثلاث:].

• عمل بلا علاقة: أى قِيامُ العبد بالعمل مع خُلوصِ النِّيَّة لله، مُتعريًا عن الالتفات إلى غيره، ومن هذا ثواب العمل المترتب عليه.

• قول بلا طمع: أى حرية الكلمة من تَطلُّعات النَّفع وتوجُّهات المَصْلحة، بل هى خالصة لله، وهى الكلمة الطيبة وهى صَدقةٌ، فهى ليست بهدفَ عُلو مَرْكَز، ولا اتساع صيت، ولا جرِّ مَنْفَعَة. ولذلك كانت «كلمة حق عند سلطان جائر». «أفضل الجهاد» لأنها خالصةٌ لله. والحديث الصحيحُ «أفضلُ الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».

• عز بلا رياسة: يتمثل العزُّ فى الغنى أو الجاه أو العشيرة أو القوة، وإذا اجتمع للزاهد واحدةٌ من هذه الصفات إلى جانب عزة نفسه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فإنه يهضم نفسه ويتواضع؛ وهذا أمير المؤمنين عُمر بن عبد العزيز أتاه ضيفٌ ذاتَ ليلة، وهو يكتب، وكاد السِّراجُ يُطفأ، فقال الضيف: أقُومُ إلى المصباح فأُصْلحه؟ فقال: ليس من كَرمِ الرجل أن يَستخدم ضَيْفَه. قال: أفأُنَبِّه الغلام؟ فقال: هى أول نَوْمة نَامها، فقامَ وملأ المصباح زيتًا، فقال الضيفُ: قمتَ أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ذهبتُ وأنا عُمَرُ، ورجعت وأنا عمر، ما نقص منى شىءٌ.

* * *

٢٠٣- «مَن لم يُغْمِ عَيْنَيْه عن النظر إلى ما تحت العَرْشِ لم يَصِلْ إلى ما فَوْقَ العَرْش» [اللمع: ٤٣٣].

• أي أن الانشغال بما هو دُون الله يمنعك الصِّلَةَ بالله. ويقول الطُّوسي في تعليقه على هذه الحكمة: لم يَلْحَقْ ما فاته من مُراقَبة الذي خَلَقَ العَرْشَ.

وخُطورةُ العَيْنِ أنها رائدُ القلْب (الناضورجي) تُرسل إليه ما تَراه دُونَ تمحيص، بحلوه ومره، ما يجوز وما لا يجوز.. ولو كانت على التُّقى لَغَضَّتْ طرفها عمّا لا يجوز، فلا ترسله إلى القلب حتى لا ينشغل به.. ويأتي دَوْرُ القلب فإنْ كان مشغولاً بربه موصولاً بخالقه نَحَّى عنه ما لا يجوز وبَقِي على طهارته.. والأَسْلَمُ لِمَن يرغب في السلامة أن لا يرسل عينه تسرح كالسائمة في كل اتجاه، فتكثر حصيلتها وتزيد رسائلها إلى القلب، وحاطبُ الليل لا يُميِّز بين الثُّعبان والأَغْصان.

ويقول الشاعر:

وأنت إذا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رائداً ... لِقَلْبِكَ يَوْماً أَسْلَمَتْكَ المَناظِرُ
رأيتَ الذي لا كُلُّه أنت قادرٌ ... عليه، ولا عن بَعْضِه أنت صابِرُ

وقال الشيخ عطاء المقدسي في المعنى ووفّى:

إذا لُمْتُ عَيْنَيَّ اللَّتين أضَرَّتا ... بجِسْمي وقَلْبي قالتا: لُمِ القَلْبا
فإنْ لُمْتُ قَلْبي قال عَيْناكَ جَرَّتا ... عليَّ الرَّزايا ثُمَّ لي تَجْعَلُ الذَّنْبا

• هذا وإنْ كان شيخنا يحيى قد ذَكر العينَ ودورها في الفصل والوصل، إلا أنها ليست وَحْدَها في المسئولية؛ فما ينطبق على العين ينطبق على الأُذُنِ أيضًا فهي ثانيةُ المُرْسِلات لِمَن له عينان. وقد تُنافسُ العينَ أحيانًا، كما في قول بشار الأعمى:

يا قَوْمِ أُذْني لِبَعْضِ الحَيِّ عاشِقَةٌ ... والأُذْنُ تَعْشَقُ قَبْلَ العَيْنِ أحْيانًا

والأذن إذا أرسلها صاحبُها دون ضابط كانت كحاطب ليل في وادي الثعابين جاءته بكثير من الأباطيل، فعلى المريد للوصول أن يُجنِّبَها سماع الخَنَا، ويبتعد بها عن مَجالسِ السُّوء وأهله، وإذا سمع شيئًا انتقى أنْفعَه وصان قلبه عما يَشينه ويوجعه. قال تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

* * *

٢٠٤- «لا تَعْرِفُه حتى تَعْمَى عن الخَلْق» [الحلية: ١٠/ ٥٩].

• في معنى الحكمة التي قبلها.. أو بمعنى مَن عَرَفَ الحَقَّ جل جلاله لا يرَى سِواه من الخَلْق.

* * *

٢٠٥- «من رأى غيرَ المحبوبِ فما رأى المحبوبَ»

وهذه العبارة حول معنى الحكمتين السابقتين أى أنه محجوب عن مولاه من نظر إلى سواه، لأن كل ما خلاه باطل، وكل ما عداه فان وزائل؛ ويُحكى أن رجلاً رأى امرأة جميلة، فانشغل بها قلبه أيما انشغال، فتقدم إليها مغازلاً: كلِّى بك مشغول. فقالت له: إن كان كلك بكلى مشغول، فكلى لك مبذول.. ولكن لى أخت لو رأيت حسنها وجمالها أخشى أن تنسانى ويتحول قلبك إليها ولا تذكرنى.. فقال: أين هى؟.. فقالت هى وراءك.. فنظر خلفه، فلطمته على قفاه وقالت: يا كذاب، لو كنت صادقًا فيما قلت عن حبك لى لم تلتفت إلى غيرى.

* * *

٢٠٦- «مَحْبوبُ اليوم يعقب المَكْروهَ غدًا، ومَكْروهُ اليوم يعقبه المحبوبُ غدًا».

• إن اللَّعبَ واللَّهْوَ تعشقه النفوسُ وتميل إليه بغريزتها بخلاف الأمور الجادَّة.. ومنها سَماعُ العظات؛ فهى إنْ أقبلتْ عليها، سرعان ما يصيبها الضَّجَرُ ويعتريها المَلَلُ، وقد راعَى مُعلِّمنا ورسولُنا ﷺ هذا فى تعليمه لصحابته رضوان الله عليهم، يروى البخارى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: «كان النبىُّ ﷺ يَتخوَّلنا بالمَوْعِظة فى الأيام (أى يُراعى الأوقات فى تذكيرنا) كَراهة السآمة علينا».

والدنيا - كما نعتها باريها جل شأنه: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ.....﴾ [الحديد: ٢٠]. ولذا كانت موضع حبهم ومحل تنافسهم، ولكن عمرها قصير كعمر الزهور، ثم يعقبها حساب وجزاء.. والدنيا والآخرة ضرتان، متى أرضيتَ إحداهما أغضبتَ الأخرى، ونعود إلى تتمة الآية الكريمة فى وصف الدنيا: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]. فلينظر العبد أيهما أولى بحبه، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

* * *

٢٠٧- «لا تَجْعَلْ الزُّهْدَ حِرْفَتَك لتكسب بها الدنيا، ولكن اجعلها عبادتك لتنال بها الآخرة، وإذا شكرك أبناءُ الدنيا ومدحوك، فاصْرِفْ أَمْرَهم على الخُرافات» [الحلية: ٥٧].

• «إنما الأعمالُ بالنِّيَّات، وإنما لِكُلِّ امرئٍ ما نَوَى، فَمَن كانت هِجْرَتُه إلى الله ورسوله، فهجرتُه

إلى الله ورسوله، ومَن كانت هجرتُه إلى دُنْيا يُصيبها، أو امرأة يَنْكحُها، فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه» رواه الشيخان وغيرهما. وروى أحمد ومسلم «مَن سَمَّعَ سَمَّعَ الله بُه، ومَن راءَى راءَى اللهُ به» ومادام قصدُك يا أخى بالزُّهد وَجْهَ الله فحاولْ أن تستره عن الناس، وإن اكتشفوا أمْرَك ومدحوك على فعْلك، فلا تأخذ كلامهم مَحَلَّ التصديق بل خُذْه على أنهم واهمونَ وحاول أن تتنصَّل ممّا مَدَحوكَ به بأن تقول لهم مثلاً: هذا حُسْنُ ظَنٍّ منكم، هذا يعكس طهارة قلوبكم، وكان أشياخُنا إذا وصفهم الناس بالخير يقولون له: اللهم مَن حسَّن بنا الظَّنَّ أو حسَّنا به الظن لا تُخيِّبْ ظَنَّنا ولاظَنَّه.. وذلك حتى لا يدخل العجبُ عليك فى عملك فتحبطه وذلك لأن الزاهد يخْشى عليه من ثناء الخَلْق، بينما العارفُ لا يَرى الخلق؛ ولذلك لا ينقبض لثناء الناس عليه، وكان أبو بكر الصِّدِّيق رضى الله تعالى عنه إذا مدحه أحدٌ يقول داعيًا: اللهمَّ أنت أعلمُ منِّى بنفسى، وأنا أعلم بنفسى منهم، فاجعلنى خَيْرًا مما يظنون، واغفرْ لى ما لا يعلمون، ولا تُؤاخذْنى بما يقولون.

* * *

٢٠٨- «لِبْسُ الصُّوف مِن غَيْرِ إماتة النَّفْسِ جَهالةٌ» [طبقات الشعرانى: ١/ ١٨٣].

● قال سُفيان الثَّوْرىُّ: الزُّهْدُ فى الدنيا قصرُ الأَمَل، وليس بأكل الغليظ ولبْس الخَشن». وهناك من اهتمَّ بتَحْليَة الظاهر وإهمال الباطن، وهم لا يعرفون من الدِّين إلا اسمه ومن الزهد إلا رَسْمَه.. وعَهِدْنا بأن الإناء بما فيه يَنْضحُ.. فيا حَبَّذا أن يكون الظاهر هو انعكاس للباطن وترجمة له، ويَنْعى الشاعرُ على الذين اهتموا بالمَظْهَر دُونَ الجَوْهَر فيقول:

أغايَةُ الدِّينِ أنْ تَحُفُّوا شَواربَكُمْ ... يا أُمَّةً ضَحِكَتْ من جَهْلها الأُمَمُ

ولأستاذى وشيخى فضيلة الشيخ مرْوان أحمد مروان تخميس على الأبيات المشهورة فى بيان حقيقة التصوف بعيدًا عن المظهرية والادعاء:

يا سائلى عَنْ طريق القَوْمِ أتْبَعُهُ ... وهَلْ لَهُ سَنَدٌ فى الدِّين أرْفَعُهُ

هاكَ البَيانَ أخى إنْ رُمْتَ تَجْمَعُهُ ... (ليس التصوُّفُ لِبْسَ الصُّوف تُرَقِّعُهُ

(ولا بُكاؤُكَ إنْ غَنَّى المُغَنُّونا)

وليس فَلْسَفَةً كَلاً ولا خُطب ... ولا تُواكُل فى سَعْيٍ ولا هرب

ولا دَعاوَى ولا أكل ولا كَذب ... (ولا صِياح ولا رَقص ولا طرب

(ولا اختباط كأن قد صِرت مجنونًا)

بل إنَّهُ سُنَّةُ المُخْتارِ من مُضَرِ ... مَن ذاقَهُ يَلْتَقِى بسيِّد البَشَر

حقٌّ فما فيه من زَيْف ولا خَطَرِ ... (بل التصوف أن تصفو بلا كَدر)

وتَتْبَعَ الحَقَّ والقُرآن والدينا)

وأنْ تُراقِبَ رَبًا حـاضـراً وهبـا ... وأن تَقُـوم بمـا فى شَـرْعِـه وَجَـبـا
تـكُـفُّ عـن حُـرَمٍ وتـلـزم الأَدَبا ... (وأَنْ تُرَى خـاشـعًـا لله مُكْتَـئِـبًـا)
(على ذُنوبك طُولَ الدَّهْـر مَـحْـزُونا)

* * *

٢٠٩- «لِبْسُ الصُّوفِ حانُوتٌ، والكلامُ فى الزُّهْدِ حِرفة» [الرسالة: ١٣١].

• من حديث سعد بن أبى وَقَّاص رضى الله عنه فيما رواه أحمد ومسلم عن النبى ﷺ: «إنَّ الله تعالى يُحبُّ العَبْدَ التَّقىَّ الغَنىَّ الخَفىَّ»، وقيل: إنْ كان المرادُ غِنى القلب فيشمل الفَقيرَ الصابرَ والغَنىَّ الشاكر الذى لا يشغله غناه عن مَوْلاه.

أمـا الذين يُتاجرون بالدِّين فهـذا شأنهم والله مِن ورائهم مُحيطٌ.. وقد قيل لمتزهِّد: اخْلَعْ مُرقَّعتك، فقال: كيفَ؟ وهل رأيتَ صَيَّاداً بلا شَبكة. وقال الشاعرفيمن لَبِسَ القِناع للاسترازق..

لا تَـصْـحَـبَنَّ عِـصَـابَةً ... حَـلَقُـوا الشَّـوارِبَ لِـلطَّمَعْ
يَـبْـكُـوا وجُـلُّ بُـكـائِـهِـمْ ... مـا لِـلْفَـرِيْسَـةِ لا تَقَعْ

ومن قصيدة للمقدسى رحمه الله فى وصف هؤلاء البطالين:

لَبِـسُـوا الدلـوقَ مُرقَّـعًـا وتَقَـشَّـفُـوا ... كـتَـقَـشُّـفِ الأبْطـال والأبْدالِ
قَطَعُـوا طَريـقَ السَّـالـكينَ وأظْلَمُـوا ... سُـبُلَ الهُـدَى بجَـهـالة وضَـلالِ
عَـمَـرُوا ظَهـواهِرَهُمْ بأثوابِ التُّـقَى ... وحَـشَـوْا بـواطنَـهُمْ مِن الأدْغـالِ
ومنهـا: جَـعَلُوا المِرا فَتْحًا وألْفاظَ الخطا ... شطـحًـا وصـالُـوا صَـوْلَةَ الإدْلالِ
وتَرَصَّـدُوا أكْلَ الحَـرامِ تَخـادُعًـا ... كـتـخـادُعِ المُتَلَصِّصِ المحـتـالِ

* * *

٢١٠- «طَلَبُ الزُّهْدِ من مَشَقَّةِ الأعمالِ الشاقَّةِ بَطالَةٌ» [طبقات الشعرانى: ١/ ١٨٣].

• «الزهد فى الدنيا يُريح القلبَ والبدنَ» حديثٌ ضعيف لم يَصِح سنده ولكنه جايز فى العقل لو صح النقل؛ وذلك لأن مَن يكتفى بالقليل من متاع الدنيا ارتاح بدنه من السَّعْى لتحصيل الكثير، وقلَّ لذلك همُّه. والزاهد حقاً لا يفرح بموجود ولا يأسف على مفقود قلبًا وقالبًا، أمـا مَن يتعلل

بالزهد أو يدَّعيه سترًا لهروبه من مشقة الأعمال فهذه بطالة ممقوتة لا يرتضيها الإسلامُ الذى يدعو إلى السَّعْى فى الأرض وتعميرها لتوفير الحياة الحرة الكريمة له ولمن حَوْله، رُوى عن الفاروق عمر رضى الله تعالى عنه قال «لا يَقْعُدَنَّ أحدُكم عَن طلب الرِّزْق، ويقول: اللهمَّ ارزقْنى، فلقد علمتُم أن السماء لا تُمْطِر ذَهَبًا، وأن الأرض لا تنبت فضة». وإنْ كان الشغل مجهدة، فالفراغ مفسدة.

* * *

٢١١- «الزاهدُ صافِى الظاهِرِ مُخْتَلطُ الباطِنِ، والعارِفُ صافى الباطن مختلط الظاهر» [طبقات السلمى: ٢٧].

• الزاهد صافى الظاهر؛ فقد تجنَّب المُزاحَمَةَ على الدنيا مع طلابها، وتنزَّهت سُلوكِيَّاتهُ عن الطَمَع والغِشِّ والخِداع، أما باطِنُه ففى صِراعٍ بين دَواعِى الطَّبْعِ وفضيلة الزُّهد.

• العَارف صافى الباطن، فقد عرف الله على الحقيقة، عرفه بأسمائه وصفاته، فاطمأن قلبُه وحسنت سَرِيرتُه، أما ظاهره فمحل متغيرات حسب ما يَرِد عليه: ومِن صفاته:

١ - دَوامُ التفكير لأنه كلما ازداد معرفةً بالله ازداد تَحيُّرًا فيه.

٢ - مُلازَمةُ الصَّمْت ويقطعه فَيْض العين بالدمع ممّا عَرَفَ من الحَقِّ.

٣ - متبرم بالبقاء فى هيكله لما عرف أنَّ مَن أَحَبَّ لقاءَ الله أحب اللهُ لقاءَه.

٤ - تَغلبُ عليه صفةُ الرحمة والحلم مع الناس جميعًا.

٥ - دائمُ الذِّكْر لله، كما أنَّ مَن يَراه لا يملك إلا أنْ يَذْكر اللهَ.

٦ - ذُو همةَّ فَعّالة، وصاحبُ غَيْرة على مَحارِم الله أنْ تُنْتَهَكَ.

٧ - تبدو عليه علامة الفَقَيْرْ مع ما هو فيه من عِزَّة وغِنًى عن الخلْق.

٨ - يَرْتَقى فى معرفته من حال إلى حالٍ أَرفَعَ، ولذا قالوا: «العارفُ ابنُ وَقْته»، وكذلك قال عنه ذو النون: «كان هُنا وذَهَبَ».

* * *

٢١٢- «الزاهدُ فى عَرَضِ الدُّنْيا، والعارِفُ فى الآخِرَة».

• الزاهد مَن زهد فى عَرَض الدنيا ومَتاعها، أمّا العارفُ فلا يُعرض عن الطيِّبات من الرزق التى أخرج الله لعباده، إنما زُهدُه أن لا يفرح بمَوجود ولا يَأسَفُ على مَفقود، فقد استقرَّ فى وجْدانه أن ما كان له لا يَفوته، ولا يدرُكه ما ليس له، واستَراح قلبهُ من ناحية الطلَب والزُّهد أيضًا، فالدنيا لا تشغله حتى يزهد فيها، فهو لا يرى سوَى ربِّه. وهذا هو أيضًا الفَرْقُ بين زهد الذاهد، وزهد الصُّوفى.

وقالوا على لسان العارف:

تَجَــرَّدَ عَنْ مَــقــامِ الزُّهْـدِ قَلْبِى ... فَــأَنْتَ الحَقُّ وَحْــدَكَ فى شُــهُــودِى
أأَزْهَـدُ فـى سِــــواكَ ولـيس شَـىْءٌ ... أراهُ سِــــواكَ ياسِــــرَّ الوُجـــودِ

* * *

٢١٣- «كـيف يَكونُ زاهدًا مَن لا وَرَعَ له؟ تورع عمـا ليس لك، ثم ازهد فـيمـا لك»
[طبقات: ابن الملقن: ٣٣١].

● الزهد - كمـا يُعَرِّفـه الإمام الغزالى - يـقع فى الحلال والحرام، فـهو فى الحـرام فَرْضٌ، وفى الحلال نَفْلٌ. هذا هو الزهد، أمّا الورعُ فيزيد عن الزهد أمْرًا آخَرَ، وهو الوقوف عند المشتَبهات التى هى المسافـة بين الحلال البـيِّن والحرام البيِّن، والتـى جاءت فى حديث النُّعـمان بن بشـير رضى الله تعالى عنه، قال قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الحلالَ بَيِّنٌ، وإنَّ الحرامَ بَيِّنٌ، وبينهـما مُشْتَبِهاتٌ، لا يَعْلَمُهُنَّ كثيـرٌ مِن الناس، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُـهاتِ فقد استبرأ لدينه وعِرْضِه» وعلى ذلك فـقد لا يكون الزاهدُ وَرِعًا.

* * *

مكررة- «كُلُّ مُرِيدٍ لـم يُحَوِّلْ نَفْسَه عن لَذَاذةِ الدنيا فقد صار ضُحْكَةً للشَّيْطانِ».

● انظرها فى الباب الثانى والعشرين، باب الدنيا، عبارة:٣١١.

* * *

٢١٤- «الزاهِدُ يَسْعَطُكَ الخَلَّ والخَرْدَلَ، والعارِفُ يُشِمُّكَ المِسْكَ والعَنْبَرَ»
[الرسالة: ٩٥].

● الخَلُّ: ما حَمُضَ مِن عَصير العنب وغيره، وهو ذو مذَاق لاذِعٍ ورائحة نَفّاذَة؛ الخَرْدَلُ: نباتٌ عُشْبِىٌّ حرِّيفٌ، ينبت فى الحـقول وعلى حواشى الطـرق، تستَعـمل بذوره فى التَّطبيب، ومنهـا ما يُستعمل توابلَ؛ سَعَطَه أسْعَطَه الدَّواءَ أى أدْخَلَه فى أنْفه؛ المسْكُ: طيبٌ غالِى الثمن، وهو نوعان: يتخذ أحدهما من نوع من الغزْلان، والآخَرُ من نبات اسمه مَسْكُ البَرِّ؛ العَنْبر: مادةٌ صُلْبَةٌ غاليةٌ لا طَعْمَ لهـا ولا رائحةَ إلّا إذا سُحقَتْ أو أُحْرِقَتْ، والعنبر يُفْـرزه نوعٌ من حيـوان البحـر هو حُوتُ العنبر، ويقال: إن العنبر رَوْثُه.

● ومعنى العـبارة: أن الزاهد حيثمـا قابلتَه أو زرتَه تَزْكُمُ أنْفَكَ منه رائحـةُ الخَلِّ والخَرْدَل، وهما أساسُ غذائه لتـقشفه؛ بينما العـارف لا تشم منه إلا رائحة المِسْك والعَنْبَر.. فهو لا يحـرم نفسه من

متع الحياة التى أخرج الله لعباده والطيبات من الرزق، ولسان حاله يقول: إنها فى أيدينا وليست فى قلوبنا.

* * *

٢١٥- «طَلَبوا الزهدَ فى بُطون الكُتُب؛ إنما هو فى بطون التوكُّل لو كانوا يعلمون» [الحلية: ١/ ٥٤].

• ليس الزهد لما حَوَتْه الكتبُ من الترهيب بجبروت الله وحسابه وشدةِ عقابه، إنما حقيقته السُّكونُ إلى وَعْد الله، فيستوى عند العبد ما توافر لديه وما غاب، عنه من الأرزاق ومن الأسباب المؤدِّية إليها.. وهذا السُّكونُ إلى مَوْعود الله فى الأرزاق هو التوكُّلُ، ولا ينعقد ذلك فى قلب العبد إلا بالعلم بأن كُلَّ شىء فى هذا الكون لا يتحرك إلا بقضاء الله وقَدَره؛ فإنْ تيسَّر له شىءٌ من أمور الدنيا علَمَ أن هذا بتيسير الله له، وإنْ تعثَّر أَمْرٌ عَلِمَ أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. وقد سأل بعضُ المريدين الجُنَيدَ رحمه الله.

- أين نجد الرزق؟
- إنْ علمتم أين هو فاطلبوه.
- نسأل الله؟
- إن علمتم أنه ينساكم فذكِّروه.
- أندخل البيت ونقفله علينا ونتوكل؟
- التَّجْرِبَةُ مع الله شَكٌّ.
- فما الحيلةُ؟
- تَرْكُ الحيلة.

• ومن حكم ابن عطاء الله فى هذا المعنى: ربما دلّهم الأدبُ على تَرْك الطَّلَب، اعتمادًا على قسمته، واشتغالاً بِذِكْره عن مَسْألته، إنما يُذكِّر مَن يجوز عليه الإغفالُ، وإنما يُنَبَّه مَن تمكَّنَ منه الإهمالُ.

* * *

٢١٦- «الزُّهْدُ يُورِثُ السَّخاء بالمِلْك، والحُبُّ يورث السخاء بالرُّوح» [الرسالة: ٩٤].

• سُئل الشِّبْلىُّ عن الزهد فقال: «لازُهْدَ فى الحقيقة؛ لأنه إمّا أن يزهد فيما ليس له فليس ذلك بزُهْد، أو يزهد فيما هو له، فكيف يزهد فيه وهو منه وعنده، فليس إلا ظَلَف النَّفْس (أى الخشونة

فى المعيشة) وبذل ومواساة».

فالبَـذْلُ والمواساةُ عند الشبلى دليلٌ على الزهـد، وقد أكَّد هذا المعنى سُفيانُ الثَّورىُّ فى عـبارة مُوجَزة فقال: «نَعْتُ الفقير السُّكونُ عِنْدَ العَدمِ، والبَذْلُ والإيثارُ عند الوجود».

* أما الحُبُّ فـيورث السَّخاءَ بالروح. والإسـلامُ غَنِىٌّ بصور البَذْل والفـداء: بذل الدم والفداء بالروح.. وسنكتـفى هنا بلقطة قـصيرة مِـن الساعـات الحَرِجة يـوم أُحُد.. هذا رسـول الله ﷺ وقد أحاطت به كَـوْكَبَةٌ من أصـحابه تَتَرَّسُـوا حوله وجعـلوا صدورهم هَدَفًا وغَـرَضًا لسهـام المُشركينَ دُونَه.. منهم أبو دُجَانَة سماك بن خَرَشَةَ الذى أنحنىَ على النبى ﷺ يَقيه بجسمه حتى كَثُر فيه النَّبْلُ فقام مُصعبُ بن عُمَيْر يُقَاتِلِ دونه حتى قُتل، وغيرهما، وغيرهما، رضوان الله عليهم. فالمحبَّةُ إيثارٌ، وعلامتـها أن لا يدع المُحِبُّ لخاطر محـبوبه ميسـورًا إلا بَذَله ولا مُمْكنًا إلا قدَّمه ولـو كانت روحه التى بين جنبيه، يقول عمر بن الفارض:

مـــالـى سِـــوَى رُوحِى وبـاذِلُ رُوحِـــه ... فى حُـبِّ مَن يَهْـــواهُ لَيْس بِمُـسْــرِفِ
فلَئِنْ رَضِـيتَ بهـا فـقـد أَسْـعَـفْـتَنى ... يا خَـيْـبَـةَ المَسْـعَى إذا لـم تُسْـعِـفِى

* * *

٢١٧- «إنما تَلْقَى الزاهد فى الدنيا - أحيانًا - لِيَرْفُقَ بعباد الله إذا زَلُّوا»

[الحلية: ١٠/ ٦٧].

• ليس الزهد فى الإسلام - كـما يقول الدكتور التـفتازانى رهبانيَّةً أو انقطـاعًا عن الدنيا، وإنما معنى يتـحقق به الإنسان، يجعله صـاحبَ نظرة خاصة للحيـاة الدنيا، يعمل فيـها ويَكِدُّ، ولكنه لا يجعل لهـا سُلطانًا على قلبه، ولا يَدَعُهَا تصـرفه عن طاعة ربه. ا.هـ. وعلى هذا فليس غـريبًا على الزاهد رِفْقُه بِمَن زَلَّ بعد اسـتقامة، أو سقط فى أحضان الفـانية يخصها بكل اهتمامـه، مصروفًا عن طاعـة ربه.. ويَروى لنا أبو نُعيم فى حليـته أن الزاهد العـابد مالكَ بـن دينار رحمـه الله رَأَى رجُلاً يُسِىءُ فى صلاته، فـقال: ما أَرْحَـمَنى بعياله، فـقيل له: يا أبا يحيى، يـسىء هذا فى صلاته وترحم عياله؟! قال: إنه كبيرهم ومنه يَتعلَّمون.. وها هو سفيان الثورى وهو من زُهَّاد الكوفة الأوائل، قال لرجل رآه يجلس قَرِيبًا من المِنْبَر: شَغَلْتَنى يا فُلانُ بقُرْبكَ من المِنْبَر، أما خَفت أن يقولوا قَوْلاً عَجيبًا، فـيجب عليك رَدُّه؟!. فَـقالَ الرَجل له: أليس يقال: أُدْنُ واسْتَمِع؟!. قَـال: ذاك لأبى بكر وعمـر والخلفاء، فأمَّا هؤلاء فتَباعَدْ عنهم، حتى لا تسمع كلامهم ولا تَرى وجُوههم. فسفيان يخشى عليه من سطوة الحـاكم إن أخطأ فردَّه، ويخـشى عليه الوقوع فـى الذنب إن سمع خطأً وقـصَّر فى رده، فَنصحه بالبعد عن المنبر حتى يَسْلَمُ له دِينُه وبَدَنُه.

* * *

٢١٨- «تَزْكِيَةُ الأَشْرارِ هُجْنَةٌ بِكَ، وحبهم لك عيب عليك» [الأعلام].

• شيخنا يحيى هنا يخاطبُنا بأن لا نُزَكيَ الأشرارَ، فهذا قُبْحٌ وعَيْبٌ يَشين تصرفاتنا، وهذا ابن علان في شرحه على الأذكار للنووى يَذكر أن المُبْتَدِع والفاسقَ والمُجاهرَ بالذَّنْب لا نُسَلِّم عليه؛ فكيف نزكِّيه.. وتزكيتُنا له تعنى التسليم له بمُمارَساته الشِّرِّيرة وإقراره على سلوكه. وخلاف ذلك هو الأوْلَى بالفعل حتى يرتدع.. قال ابن عمرو: «لا تَعُودُوا شُرَّابَ الخَمْرِ إذا مَرِضوا»، وقال أيضًا: «لا تُسلِّموا على شَرَبَة الخَمْرِ» (الأدب المفرد للبخارى).

وقد وردت العبارة بزيادة (لك) بعد كلمة الأشرار.. فتزكية الأشرار للرجل الصالح لا يرفع من شأنه فهم لا تصح شهادتهم، أما بخصوص أن حبهم له عيب عليه، فهذا الحكم غير مطرد، فقد يحب اللِّص الرجل الأمين، ويحب الجاهلُ الرجل المتعلم.

❋ ❋ ❋

٢١٩- «وُجُودُ الرِّزْقِ مِن غَيْرِ طَلَبٍ دَلالةٌ على أنَّ الرزقَ مأمورٌ بطَلَبِ صاحِبِه».

• روى الطبرانى فى الكبير وابن عدى فى الكامل عن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ: «إنَّ الرزقَ لَيَطْلُبُ العَبْدَ أكثَرَ مِمّا يطلبه أجَلُهُ» (صحيح الجامع الصغير). ولا يتم الزهد إلا بالتوكل على الله جل وعلا.

❋ ❋ ❋

٢٢٠- «فى سَعَةِ الاختلاف كُنوزُ الأرزاق».

• اقتضت حكمتُه جَلَّ وعَلا أن تتابين الثِّمارُ فى النبات، وكذلك تتابين الحيواناتُ والطيورُ؛ حتى حيوان البَحر منه مئات الآلاف من الأنواع.. وعلى الجانب الآخر تختلف فى الإنسان الأمزجة والأذواقُ والمواهبُ والمَهاراتُ كما تتابين الأشكالُ والألوانُ؛ فتختلف تبعًا لذلك المِهنُ والحِرَفُ والأرزاقُ، وفى أمثالنا الشعبية: «لَوْلا اختلافُ الأذواق لبارَتِ السِّلَع».

❋ ❋ ❋

٢٢١ – من أحب أن يعرف الزهد فلينظر فى الحكمة» [الصفوة: ٤/ ٩٧].

• الحكمة: إن كان يقصد بها الطب والتطبيب.. فكتب الطب القديم والحديث يدعوان إلى الاعتدال فى كل شىء وكذلك يرى كل حكيم.

❋ ❋ ❋

٢٢٢ - قال رجل ليحيى بن معاذ: متى أدخل حانوت التوكل، وألبس رداء الزهد، وأقعد مع الزاهدين؟ قال: إذا صرت من رياضتك لنفسك فى السر إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام، لم تضعف فى نفسك، فإما أن تبلغ هذه الدرجة وإلا فجلوسك على بساط الزهد جهل، ثم لا آمن عليك أن تفتضح». [الرسالة: ٩٥].

● انظر فى باب التوكل العبارة رقم ١٤٩.

* * *

٢٢٣- سئل يحيى بن معاذ: ما صفة الزاهد؟

فقال: الزاهد، قُوتُه ما وجد، وسَكَنُه حيث أدرك، ولباسه ما ستر عورته، والدنيا سجنه، والفقر ضجيعه، والخلوة مجلسه، والشيطان عدوه، والقرآن أنسه، والله همه، والذكر رفيقه، والزهد قرينه، والحكمة سلاحه، والصمت كلامه، والاعتبار فكرته، والعلم قائده، والصبر وسادته، والتوبة فراشه، واليقين صاحبه، والنصيحة تهمته، والصدِّيقون إخوته، والعقل دليله، والتوكل كسبه، والعمل شغله، والعبادة وقته، والتقوى زاده، والبر مطيته، والمعروف وزيره، والتوفيق مستعمله، والحياة سفره، والأيام مراحله، والجنة منزله، والله عز وجل معتمده. [الزهد الكبير: رقم ٧٦].

● ....

* * *

٢٢٤ - «الزاهد حقاً من يخلو قلبه عن المرادات كما تخلو يده من الأسباب».

● كيف يصح لزاهد زهده إذا حرم نفسه من متاع الدنيا بينما قلبه يعتمل بمختلف المرادات فجوارحه فى واد وقلبه فى واد آخر.. الزاهد حقاً من تخلو يده من الدنيا وكذلك قلبه.

* * *

الباب السابع عشر

التواضع

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى:

٢٢٥ - «عدم التَّواضُع خصالُ مِنَ فاتَه عِلمُه بما خُلِق له، وما خُلِق منه، وما يَعود إليه» [الحلية: ١٠/ ٦٨].

• التواضُعُ من الضَّعَة، أى رضا الإنسان بمنزلة دُونَ ما يَستحقُّه فَضْلُه ومكانته، وذلك تَفضُّلٌ منه بين ذوى فَضْلٍ يَعرفون قَدْرَه، وإلا كان مَنْقَصةً.

• وأكبر ظَنُّ المَرْء بنفسه أنه مُتميِّزٌ عن غيره، والمُتكبِّر مَن أظهَر ذلك. وروى مسلم عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ قال: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن كان فى قَلْبه مثقالُ ذَرَّة من كِبْر» قيل: إن الرجل يُحب أن يكون ثَوْبُه حَسَنًا، ونَعْلُه حَسَنَةً، قال: «إنَّ الله جَميلٌ يُحبُّ الجَمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ الناس». بطر الحق: دَفْعُه وعَدَمُ قَبُوله إما لأنه يُخالفُ هواه، أو لأن القائل به مختلفٌ معه أو يُحسُّ أنه دُونَه. وغمط الناس: احتقارهم واستصغارهم.

• وبالغَ قَومٌ فقالوا: إنَّ التواضع أن لا تحس أنك متواضع، فإحساسك أنك مُتميِّزٌ عمن حولك وأنك تتنازل عن بعض ما تستحقه من منزلة لكى تتواضع للناس - لا يُعَدُّ هذا تَواضُعًا، بل إنه عَيْنُ الكِبْر فى داخلك.

• والكِبْرُ خَصلَةُ مَن فاته العلمُ بما خُلق له. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧] فالكلُّ مُتساوون.. الكل عبيد.. مَظهرُهم واحدٌ وتكاليفهم واحدة وبواطنهم يَعلمها الله.. التمايز بينهم بالتقوى فى عَمل ونيَّة، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ويروى عن رسول الله ﷺ «لا فَرْقَ بَيْنَ عَرَبِىٍّ ولا عَجَمىٍّ ولا أبيض ولا أحمر إلا بالتقوى» فمَن تجاوزَ صفته وهى العبودية وادَّعى أن له صِفةً يستحق التكبُّرَ من أجلها على الناس، فقد نازَعَ اللهَ صفته (المُتكبر) بغير وجه حق.

• والكبر خصلة مَن فاته العلمُ بما خُلق منه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]، أى ماء حَقير وهو النُّطْفَةُ. مرَّ الفاتح العظيم المُهلَّب بن أبى صُفْرَةَ يومًا يتبختر على مطرف بن عبد الله بن الشِّخير، فقال له: هذه مِشْيَةٌ يُبغضها اللهُ ورسولهُ. فقال المهلَّبُ: أما تعرفنى؟ فقال: بل، أعرفك: أولك نُطفَةٌ مَذِرَةٌ (مذرت أى فسدت، فهى قابلة للفساد سريعًا)، وآخرك جِيفةٌ قَذِرةٌ، وأنت تحمل فيما بين ذلك العَذِرَةَ. (أى الغائط) فى جوفك بين النشأة

والجيفة.. فلا شيء يهم من البداية إلى النهاية.

• الكبر خصلة مَن فاته العلمُ بما يَعود إليه.. فسيعود حتمًا مهما طال به العمر إلى أُمِّه الأرض، ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] فى هذه الآية الكريمة مرحلتان يصير إليهما المرء بعد النشأة: المرحلة الأولى: أنه زائلٌ بالموت ويترك خلفه مَنصبَه ووجَاهتَه وماله حتى اسمه فَقده فيما فَقد من أسباب التكبر ومُفْردات الغطْرسَة، وصار يُرمَز إليه بالجُثَّة، أو مع أحسن الاحتمالات وقمة التوقير يرمزون إليه بالمرحوم. أما المرحلة الثانية: وهى البَعْثُ وما بَعْدَه من حساب وجَزاء؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].. أى كل ما كنتم تفاخرون به فى دنياكم وتتكبرون به كان عارية منّا.. ثم كان الحساب، والحديث القدسى :«الكِبْرِياءُ رِدائِى، والعَظمةُ إزارى، فمَن نازَعَنى واحداً منهما قَذَفْتُه فى النار».

وقال الشاعر:

أَرَى أَبْنَاءَ آدَمَ أَبْطَرَتْهُمْ ... حُظُوظُهُمُو مِن الدُّنْيَا الدَّنِيَّةْ
فَلِمَ بَطِرُوا وَأَوَّلُهُمْ مَنِىٌّ ... أَوِ افْتَخَرُوا وَآخِرُهُمْ مَنِيَّةْ

* * *

٢٢٦- «لا يُفْلِحُ مَن شُمَّت منه رائحةُ الرِّياسة» [الحلية: ١٠/ ٥٣].

• شُمَّت منه رائحة الرياسة أى الكِبْرُ وحُبُّ الظُّهور، وهو قاصمٌ للظهور، ولا يفلح فى طريق الله مَن استعلَى على مَن حَوْلَه بعَرضٍ من أعراض الدنيا، كمال أو علم أو عمل أو جاه .. وقال الإمام الشافعى «أَرْفَعُ الناسِ قَدْراً مَن لاَ يَرَى قَدْرَه، وأكثرهم فَضْلاً مَن لاَ يرى فَضْلَه».

• ولا تدعو عبارة شيخنا يحيى إلى الخُنوع والرِّضا بالدُّون وسفاسف الأمور. والحديث الصحيح :«إنَّ الله تعالى يُحبُّ مَعالِيَ الأمور وأشْرافَها ويكْرَه سَفْسافَها» (السَّفْساف: الردئ الحقير من كل شيء والجمع سفاسف). ولكن يدعو إلى التواضع وهضم النفس. وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال :«رأيتُ التواضُعَ أَنْ تَبدأ بالسلام على مَن لَقِيتَ من المُسلمينَ، وأَنْ تَرْضَى بالدُّون من المَجْلسِ، وأن تكره أن تُذْكَر بالبِرِّ والتَّقْوَى» ويُروى أن أبا هريرة رضى الله تعالى عنه لما تولَّى إمَارة المدينة فى خلافة مروان بن الحكم. كان يحمل حزمة الحطب إلى بيته على ظهره، وذات يوم رأى ثابت بن أبى مالك فى الطريق فقال له مازحًا :وسع الطريق للأمير يا ابن أبى مالك، أو قال: طَرِّقوا لأميركم. ويُروى أيضا أن رجلاً حَمَّلَ سَلْمان الفارسى أشياءَ اشتراها فى السوق وهو لا يَعرفه، وكان سَلْمانُ وقتها أميرًا على البلد. فحملها راضيًا، وسار فى الطريق،

وجَعل يَتلقاه الناسُ ويقـولون: أَصْلَحَ اللهُ الأميرَ، نحن نَحمل بدلك. ولما سـمع الرجلُ هذا اعتذر لسلمان خَجَلاً وحاوَلَ أن يحمل عنه فرفض حتى أَوْصَلَها إلى منزل الرجل.

* * *

٢٢٧- «التَّواضُعُ حَسَنٌ فى كُلِّ أَحَد، لكنه فى الأغنياء أَحْسَنُ
والكِبْرُ سَمِجٌ فى كُلِّ أَحَد، لكنه فى الفُقَراء أَسْمَجُ» [الرسالة: ١١٨]

• قد تتقـبل النَّفْسُ غَنيًا متكبِّرًا على مَـضَض، لكنها لا تَتقبل مُطلقًا فـقيرًا متكبِّرًا، وهذا الفـقير المتكبِّر له مثالٌ فى تاريـخنا القريب.. فقد كان الأتراك ينظرون إلى المصريين نظرة استعلاء عليهم، وحدث أن افتقر رجُلٌ من الأتراك فقام يسأل المصريين الصَّدَقَةَ قائلا :«حَسَنَةٌ وأنا سَيِّدُكَ».

أما التواضع فـخلة طيِّبةٌ سواء إذا تحلَّـى بها الفقيرُ أو الغَـنىُّ، لكنها على رأس الغَنِىِّ تاجٌ لدُرَّاته بَريقٌ أَخّاذٌ فى عيـون الناس يجمـع القلوب حوله، غـير حـسن المثـوبة عند الله. وقال جـوبان بن مسعود الدنيسرى المتوفى ٦٨٠ هـ يصف المتكبر:

إذا كُـــبـــرت نفْـسُ الفــتـى قلَّ عـقـلُه ... وأمـسى وأضـحى سـاخِطًا مـتـعـتـبًا
وإن جـاء يسـتـقْـضِى من الناسِ حـاجـةً ... يرى أنهـــا حقٌ عـليـــهم مـــرتـبــا
وإن طالبـــوه النــاسُ يومــا بـحــقِــهم ... لوى وجـــهَـــه غــيـظًا عليــهـم وقطَّبــا
يرى أن كـلَّ النـاسِ قــد خُلِـقــوا له ... عــبـيــدًا وفى كـل القلوبِ مُـحــببــا
فـــلا يـرتضى إن لـم يكنْ تحـت أمْـــرِه ... من الـكونِ يجـــرى مــا أراد ومـــا أبى

• ويروى عن الإمـام على قوله : السَّفل إذا تعلموا تكبـروا، وإذا تمولوا استطالوا، والعِلْية إذا تعلموا تواضعوا، وإذا افتقروا صالوا.

* * *

٢٢٨- «التكبُّرُ على مَن تَكبَّرَ عليك بمالِه: تَواضُعٌ» [الرسالة: ١١٨].

• قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. ومع أن الكِبْرَ صفةٌ مَرْذُولةٌ إلا أن شيخـنا فى هذه العبَارة يُحوِّلُ التكبـر إلى تواضع إذا ما قام به الفـقير فى حضـرة مَن يتكبر على الناس بماله وواجَـهَه بـذلك. وقال عـبد اللـه بن المبارك رحـمه الـله تعالى :«التكـبر على الأغنيـاء والتـواضع للفقـراء من التواضع». وروى الأزْدىُّ عن أبى ذَرٍّ - رضى الله عـنه - حديثـا مرفـوعًا :«لَعَنَ اللهُ فَقيرًا تواضَعَ لِغَنِىٍّ مِن أَجْلِ مالِه» والحَديثُ موضوعٌ.

* * *

مكررة - «إذا شَكرك أبناءُ الدنيا ومدحوك فاصرف أمرهم على الخُرافات».

• سبق أن وردت هذه العبارة فى الباب السادس عشر باب الزهد تحت رقم (٢٠٧).

* * *

٢٢٩- «المُتـواضعُ مَن ظَنَّ أنه مِـن أَذْنَبِ أَهْلِ الأرضِ، ومَن آثَر صُـحْبَـةَ المسَـاكِـين» [الحلية: ١٠/ ٦٨].

• ظَنُّ المرء فى نفسه أنـه أَذْنَبُ أهل الأرض لا يُبقى له ما يَفخر به ويـتَعالى معه، وقـد أهمهُّ ما اعتـقده، وشـغله ما نَزل به من سُـوء ظَنٍّ في نَفْسـه، ونظر إلى الناس من أَسْفَلَ إلى أعلى، فـالكُلُّ أَتْقياءُ مُـخْلصون، وهو العاصِى لربه الجاحدُ لأنْعُـمه فأقبل على الطاعـات يُصلِح ما فات بما بَقِى؛ وقال مالكَ رحمه الله تعالى : إذا مدح الرجلُ نَفْسَهُ ذهب بهاؤه.

• وإيثار صحبة المسَاكين على غيرهـم فيه فَضْل كبير فهو يلين القلب، ويحث على البذل. وقال القشـيرى فى الرسـالة ومن حق العبد أن يعـتقـد أن باعتزاله عن الخلق يَسْلَـم الناس من شره، ولا يقصد سلامـته من شر الخلق.. فالأول نتيجة اسـتصغار نفسه والثانى شـهود مزيته على الخلق ومن استصـغر نفسه فهو مـتواضع ومن شهد أن له مزية على أحـد فهو متكبر - وقـال بكر بن عبد الله المزنى البصـرى الفقيـه - ت ١٠٨: ما رأيت أحداً إلا رأيت له الفضل عـلىّ، لأنى من نفسى على يقين، وأنا من الناس فى شك.

وإيثار صـحبة المسـاكين دليلٌ على التواضع وخـاصة إذا كان المُجـالسُ لهم على قَدْركبـير من الثَّراء أو الوَجاهة فَوْقَ قَدْرهـم.. ودعاء النبى ﷺ :«اللهمَّ أَحْيِنى مسْكينًا وأَمِتْنى مسْكينًا، واحشُرْنَى فى زُمْرَة المسَـاكين» (صحـيح الجامع الصغيـر).. والمسكين فى المعجم الوسـيط: مَن ليس عنده ما يَكفى عـيالهَ أو الـفقـير، وأيضًـا: الخـاضعِ الضَّعـيفُ الذَّليلُ. وفى النـهاية لابن الأثيـر: .. أراد به التواضُعَ والإخْبَاتَ وأن لا يكون من الجَبارين المتكبِّرينَ.

• وقال ابن الحاج فى فضل التـواضع «إذا ثبت التواضعٌ فى القلب ثـبت فيه جـميعُ الخَـير من الرَّأفَة والرِّقّة والـرَّحْمة والاستكانة والقُنوع والرِّضـا والتوكُّل وحُسْن الظن وشدَّة الحَـياء، وحُسْن الخُلقَ، ونَفْى الطمع، وجهاد النفس وبذل المعروف وسلامة الصدر، والتشاغل عَن النفس، والمبادرة فى العمل بالخير، والبعد عن الشرِّ، وكل امرئ على قَدْرِ ما فيه من البرِّ يكون فعلُه.

* * *

الباب الثامن عشر

السَّخاء

٢٣٠- قال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله: «تَمام المَغْفِرة فى ثلاثة: حُسْنِ القَبول، وتَقليدِ العِلْمِ، وبَذْلِ الفَضْلِ» [الحلية: ١٠/ ٥٤].

● سبق أنْ جاءت هذه العبارةَ فى باب العلم بلفظ :«وبذل النصح».

والبَذْلُ المحمود: هو ما خلصت فيه النِّيَّةُ، وما كان فى حدود الطاقة، لكل محتاج بقدر استحقاقه من غير مَنٍّ ولا أذًى.

والسَّخاءُ غَريزةٌ تدعو إلى البَذْل، يُقابله الشُّحُّ، ولكون السخاء غريزةً فلا يُوصَف بها الله جَلَّ جلالُه، إنما يُقال له: كَريمٌ. والسخاءَ إنْ أَخَذ شكْلَ التنفيذ كان جُودًا يُقابله بُخْلٌ.

● وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ :«السَّخِىُّ قَرِيبٌ من الله، قريبٌ من الناس، قريبٌ من الجنَّة؛ والبخيلُ بَعيدٌ عن الله، بَعيدٌ عن الناس، قَريبٌ من النار، ولجاهلٌ سَخِىٌّ أَحَبُّ إلى الله تعالى من عابد بَخيل» (تيسير الوصول).

ويُروى أن أحد الأنبياء الْتَقى يومًا بالشيطان ودار بينهما حوارٌ بدأه النبىُّ:

- مَن أَحَبُّ الناس إليك، ومَن أبغضهم إليك؟
- أحبُّ الناس إلى قلبى التَّقىُّ البَخيلُ، وأبغضهم إلىّ الفاجرُ السَّخىُّ.
- ولماذا تكره الفاجرَ السخى، وفُجُوره عَيْنُ مُرادكَ؟
- لأن الله قد يَطَّلع عليه فى واحدة من مَرّات سَخائه فيغفر له.

* * *

٢٣١- تَأبَى القُلوبُ للأَسَخياء إلا حُبًا وإنْ كانوا فُجّارًا

وللبُخلاء إلا بُغْضًا وإنْ كانوا أَبْرارًا» [الحلية: ١٠/ ٦٦].

● لعل شيخنا استوحى هذه العبارة من معنى حديث :«جُبِلت النفوسُ على حُبّ مَن أَحْسَنَ إليها، وبُغض مَن أساء إليها»، والحديث فى سنده مُتَّهَم بالكذب - (كشف الخفا: ح: ١٠٦٣). ومعناه مقبول فى العقل ..، لو صح النقل!

* * *

٢٣٢- «مَن حَرَصَ على الدنيا فإنه لا يأكل فَوْقَ ما كتب اللهُ له، ويدخل عليه من العيوب ثلاث خصال.

أولها: أن تراه أبدًا غير شاكرٍ لعطية الله.

والثاني: لا يُواسِي بشيءٍ مما قد أُعطِيَ من الدنيا.

والثالث: يشتغل ويتعب فى طلب ما لم يَرْزُقْه الله حتى يَفوتُه عَمَلُ الدِّينَ. [الحلية: ١٠/ ٦٦].

● الحريص على الدنيا لا يشكر الله لأنه يَستقلُّ ما عنده ويطمع فى أكثر مما أعطى لزَعْمه أنه يستحق أكثر.. ولو علم الغَنِي أن شُكْرَه للمُنْعِم يحقق مقصوده فى الزيادة ما سكت عن شكره؛ قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] والشكر يكون باللسان وبالأفعال قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ : ١٣] فإخراجُ الزكاة شُكرٌ، والتحدثُ بالنعمة - فى غير خُيلاء شُكرٌ - لَفْظًا أو فعْلاً، والحديث :(إن الله يُحبُّ أن يَرى أثر نِعْمتِه على عِباده»)، ومُواساةُ الفُقراءِ شُكْرٌ على النِّعْمةَ.

● والعَيْبُ الثاني: لا يُواسِي بشيءَ خَشْيَةَ نُقْصانه، وإنْ أَعْطَى القليل ظنه كثيرًا، ولا مانع - وهذا حاله - لو تصدق بشيء أتبعه بالمنِّ والأذَى.

● العيب الثالث: وهو ثالثة الأثافى: نراه قد وظف قلبه وعقله للتفكر فى ابتكار أساليب جديدة لزيادة أمواله، كما أن وقته كله موظف لهذه الغاية، فلا عجب وهذه حاله أن يفوته العمل بالدِّين؛ والحديث القدسى فيما رواه مسلم «يا ابن آدم أنفق أنفق عليك».

* * *

٢٣٣- «إنَّ الدِّرْهَمَ عَقْرَبٌ، فإنْ لم تُحْسِنْ رُقْيَتَه فلا تأخذه بيدك، فإنه إنْ لَدَغَكَ قَتَلَكَ» [الحلية: ١٠/ ٦٠].

● نرى الحُواةَ يَلعبون بالحيَّات والثَّعابين، فى اطمئنان بلا خَوْف ولا وَجَل، وحُقَّ لهم ذلك بعد أن نزعوا أنيابها وأفْرغَوا مُحتواها من السم، فأصبحت هى والحبالُ سواءً.. والمال إنَ اجتهدت فى تحصيله من حَلال تزيد الصَدَقةُ فى تزكيته (أى تطهيره)، فبالصدقة يطهر المالُ ويزكو وهذه رقية المال الأولَى، والثانيَة إنفاقُه فى وجوه الحَلال، والثالثة عَدَمُ اكتنازه لمصلحة غير شرعية وإلا كان فى الآخرة، مكْوَاة يحمي عليها فى نار جهنم فَتكوى بها جِباهُ الكانزين وَجُنُوبُهم وظُهورُهم. ومن المجاز: كَوَتْه العَقْربُ أى لدَغتْه (أساس البلاغة).

* * *

٢٣٤- «هان عليك من احتاج إليك» [الأعلام]

• وهذا سلوك غالبية الناس، وعبر عنه البعض، فقال أبو عبيد الله: من أكل من ثريدنا (الثريد: الفتة) وطئنا رقبته. وقال غيره: أحسن إلى من شئت تكن أميره واحتج إلى من شئت تكن أسيره.

ويقول الشاعر:

الله يغضب إن تركت سؤاله وبنى آدم حين يُسأل يغضبُ

وقال آخر:

ومن يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

* * *

مكررة :«ليس على وجه الأرض أحدٌ إلا وفيه فَقْرٌ وحرْصٌ، ولكن من أخلاق المؤمنين أن يكونوا حُرصَاءَ على طلب الجنة، فُقراءَ إلَى ربهم، والمُنَافِقُ حَرِيصٌ على الدنيا فقيرٌ إلى الخَلْقِ» [الحلية: ١٠/ ٦٦].

• سبق أن وردت هذه العبارة فى الباب العاشر «الافتقار» عبارة رقم ١٢٩.

* * *

مكررة :«الزُّهْدُ يُورِثُ السَّخاءَ بالمِلْكِ، والحُبُّ يُورِثُ السَّخاءَ بالرُّوحِ».

• سبق أن وردت هذه العبارة فى الباب السادس عشر «الزهد» عبارة ٢١٦.

* * *

الباب التاسع عشر

الخَلوة

قال شيخنا يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى:

٢٣٥- «العبـادةُ حرْفةٌ حَوانيتُها الخَلْوَةُ، ورَأسُ مالِهـا الاجتهادُ بالسُّنَّة، وربحُـها الجَنَّةُ» [طبقاَت السلَمى: ٢٦].

● الخَلوةُ هى العُـزْلةُ عن الناس، يُقابِلُهـا الخُلْطَةُ، وكلٌّ منهمـا له عائده فى الدِّين والـدنيا، وإن كانت الخَلوةُ لهـا الغلبة فى أمور الدنيـا والآخرة.. والخلوة قد تكون ضَـرورية فى أوَّل الطريق لمريد الآخرة، والحديث الشريف فيما رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى: «إذا رأيتَ الناسَ قد مرجت عهودهم (أى فسدت) وخَفَّت أماناتُهم، وكانوا هكذا - وشبك بين أنامله - فالزم بَيْتَك، واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف (أى من أمر الدِّين) ودَعْ مـا تُنكِرُ، وعليك بخاصَّة أمـر نفسك، ودع عنك أمر العامّة» أى كافة الناس فلا تشغل بالك بهم.

سُئل نجم الدين كبْـرى عن الخلوة فـقال: انقـطاعٌ من الخَلْقِ إلى الخالق؛ لأنـه سَفَـرُ النفس إلى القلب، ومن القلـب إلى الروح، ومن الروحِ إلى السِّرِّ، ومن السـر إلى خالـقِ الكل، ومسـافـة هذا السفر بَعيدَةٌ جداً بالنسبة إلى النفس، وقريبةٌ جداً بالنسـبة إلى الله تعالى.

● فوائد الخلوة:

أ- التفرُّغ للعبادة والتفكُّر فى خلق الله.

ب- تحصيلُ قَدْرٍ كبيرٍ من الطاعات والمواظَبة عليها.

جـ- مُناجاةُ الله، وتحقُّقُ الأُنْسِ به.

د- إخلاصُ العبادة لله بعيداً عن الرِّياء والسُّمْعَة.

هـ- توفر الهدوء وعدم الانشغال بأمور الدنيا، فيُعينه ذلك على جَمعِ قَلْبه على الله.

و- الكَفُّ عن المعاصى التى يتعرَّضْ لها بالمخالطة كالغِيبـة والنَّميمة والنِّفاق والسِّباب. فالعزلة فى الحقيقة هى اعتزال الخصال المذمومة.

ز- عدم مسارقة الطَّبْع للصفات الذَّميمة مِن جُلساء السُّوء.

● وإنْ كان فى الخلوة كـلُّ هَذه الفوائد؛ فإن فى الخلـطة فوائد تَنفَرِد بهـا؛ منها: التَّـعلُّمُ وتَعليمُ الغَيْرِ، والنَّفعُ والانتفاعُ، ونقل الخبرات.

● ووردت هذه العبارة فى شذرات الذهب ٢/ ١٣٨ بزيادة بعد الخلوة (وآلاتها المخادعة) أى التخفى عن عيون الناس، وأيضا مخادعة النفس حتى تستجيب للقيام بالطاعات وتعتادها.

* * *

٢٣٦- «الصَّبْرُ على الخَلْوةِ مِن علامات الإخلاصِ» [طبقات ابن الملقن : ٣٢٢].

● فى انقطاع العبد عن الناس بعضَ الوقت للعبادة دليلٌ على الإخلاص لبُعْده عن المُراءاة؛ فلا يَشهد عبادته أحدٌ؛ وقال الحسن البصرى رحمه الله: أن كان الرجل لقد جمع القَرآنَ (أى حفظه) وما يشعر به جارهُ، وأن كان الرجلُ لقد فَقِه الفِقْهَ الكثيرَ، وما يشعر به الناسُ، وأن كان الرجل لَيُصَلِّ الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزُّوّارُ وما يَشعرون، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عملٍ يَقدرون أن يعملوه فى السِّرِّ فيكون علانية أبدًا. والإنسان لا يستطيع أن ينقطع عن الخَلْقِ بالكلية، ولكن يجب أن يكون بقَدْرِ الحاجة وقضاء المَصْلحة.. فتكون الخلطة كالدواء يأخذ منه بقدر ولا يزيد عن المُقَرَّر.

* * *

٢٣٧- «عَجبتُ لمنَ يَصحبُ الخَلْقَ، والخالقُ يَستَصْحِبُه!!»

وعجبتُ لمن يمنع المالَ، واللهُ يَستقرِضُه!!» [تاريخ الإسلام: ١٦/ ٣٧٤].

● الذاكرُ فى مَعيَّة الحقِّ: والحديث القدسى:«عبدى أنا عند ظَنِّك بى،وأنا معك إذا ذَكَرتَنى..».. ومن المعلومَ أن الله كان ولا شىء معه، ولا يزال على ما كان عليه، فهو مع الأشياء بعلْمه وإحاطته، ونحن لسنا معه لأنا لا نَعلمه، وهذه هى المعية العامَّةُ التى تشير إليها الآية الكريمةَ : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] أمّا المَعيَّةُ الخاصَّة، وهى معية الحفظ والتَّولِّى لأوليائه، والتولِّى والتأييد لأنبيائه فهى ما تُشير إليه الآية الكريمة (طه: ٤٦) وفيها يخاطب الحق موسى وأخاه هارون عليهما السلام بشأن إبلاغ فرعون الدعوة؛ ﴿ قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فالحقُّ يُنبِّههما أنه معهما يَسمع ويَرى، وقد تكفَّلَ لهما بالحماية.. والحديث القدسى : (.. وما يَزال عبدى يَتقرَّب إلىَّ بالنَّوافلِ حتى أُحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سَمْعَه الذى يسمع به وبَصرَه الذى يُبصرُ به..) فكيف بالعبد يترك معية الله ويبحث عن صُحْبة الخَلْق، قال تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة:٦١] وقالوا: من صبر على العزلة صار العز له.

● قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧]، فالمالُ مالُ الله على الحقيقة خَلَفَ عليه آدمَ يتصرف فيه وأولاده، أو

أن هذا المال كان لمن قبلكم ثم انتقل إليكم ثم ينتـقل لمن يجيء بعدكم .. وكل هذا تهوينًا من شأن المال، ثم إذا طلب منكم مالك المال في الحقيقة أن تنفقوا منه في وجوه البر امتنعتم مع أنه سيجازيكم بأرباح تفوق الخيال غير الغفران، قال تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

* * *

٢٣٨- «الوَحْدَةُ مُنْيَةُ الصِّدِّيقِينَ، والأُنْسُ بالناسِ وَحْشَتُهم» [السلمى: ٢٧]

• الصِّدِّيق هو مَن صَدَّقَ بقوله واعتقاده، وحَقَّق صدْقه بفعْله، والصِّدِّيق دُونَ النبى فى الفَضيلة، والوحدةُ مُنيةُ الصديقين ومُبتغاهم لمعرفتهم لقدرها ولأنسهم بالحق فيها؛ والأُنْسُ بالناس وحشتهم فلا يميلون إليه لأن الفرق عظيم.. وقديمًا قالوا :«الأُنْسُ بالناسِ مِن عَلامات الإفلاسِ»

* * *

٢٣٩- «الوَحْدَةُ جَلِيسُ الصِّدِّيقينَ» [الرسالة: ٨٦].

• فى معنى ما قبلها.

* * *

٢٤٠- «انظر أُنسك بالخَلْوة، أو أنْسك معه فى الخلوة؛ فإذا كان أُنْسُك بالخلوة، ذَهَبَ أُنْسُك إذا خرجتَ منها؛ وإنْ كان أنسك بـه فى الخلوة، استوت لك الأماكنُ فى الصَّحارِى والبَرارِى».

• إذا كان أنسك بالخلوة فأنت مُشاهدٌ لعملك بَعيدٌ عن ربِّك، أما إذا كان أنسك به فى الخلوة فقد غلب الحُضورُ عليك ولم تَرَ سواه.. بعدها يَتساوى عندك الخلطة مع الخلوة ففى كليهما القَلْبُ مُشتغلٌ بالله لا يُحسُّ سواه. وهذا ما عبرت عنه رابعة العدوية رحمها الله تعالى:

إنِّ جَعلْتُكَ في الفُؤاد مُحدِّثي ... وأَبَحْتُ جِسْمِيَ مَن أرادَ جُلوسي

فالجِسْمُ مِنِّي للجَليس مُؤانسٌ ... وحَبيبُ قَلْبِيَ في الفُؤادِ جَليسى

وسمع ذو النون المصرىُّ شيبانَ المصابَ يقول : «مَن آنَسَه اللهُ تعالى بقربه أعطاه أربع خصال: «عزًا من غير عَشيرة، وعِلْمًا من غير طلب، وغِنى من غير مال، وأُنسًا من غير جماعة».

* * *

٢٤١- «الصَّبْرُ على العُزْلة عَلامةُ وجودِ الطَّريق والتَّعبُّدُ مع تضييعِ العِيال جَهْلٌ». [جمهرة الأولياء: ٢/ ١٤١]

• الثَّباتُ على العزلة أَمامَ مُغْريات الخلطة والأنس بالناس إشارةُ مُرورٍ تدل على صحة الطريق فى فرار العبد إلى الله.

• والتعبُّد مع تضييع العيال جَهْلٌ.. أى أن قَصْد التفرغ للعبادة إذا أدَّى إلى إهمال التكسُّب لتوفير حاجات بيْته، وإهمال تربية أولاده، فهذا جَهْلٌ جَسيمٌ، والحديث الشريف :«كفَى بالمَرْءِ إثمًا أنْ يُضيع مَن يَقُوت» (رياض الصالحين). وقال ابن عطاء الله فى الحكمة الثانية من حكمه :«إرادتُكَ التجريدَ (أى ترك التكسب) مع إقامة الله إياكَ فى الأسباب (أى هيأ لك العملَ مع السلامة لك فى دينك) من الشهوة الخفية (أى أن رغبتك الإنقطاع للعبادة مع السلامة من شهوات النفس لعدم وقوفك مع مراد الله). وإرادتُك الأسبابَ (أى العمل للكسب) مع إقامة الله إياك فى التَّجْريد (أى يَسَّر لك القُوتَ من غير جُهْد، واطمأن قلبُك إلى أن رزقها آتيها وإنْ تعذر بعض الوقت) انحطاطٌ عن الهِمَّة العَلِيَّة. لأنه أراد النُّكوصَ إلى الخَلْق بعد أنْ كان مُتعلِّقًا بالحقِّ.

* * *

٢٤٢- «تَرْكُ المَكاسِبِ مع الحاجة إليها كَسَلٌ والكَسْبُ مع وجود الاستغناء عنه كُلْفةٌ» [طبقات الشعرانى: ١/ ١٨٣].

• والكُلْفَةُ: ما يُنْفَقُ على الشيء لتحصيله مِن مالٍ أو جُهْد.

وانظر شرحنا للعبارة السابقة.

* * *

٢٤٣- «ليَكُنْ بيتُك الخَلْوةَ، وطعامُك الجُوعَ، وحديثُك المُناجاةَ، فإما أن تموتَ بدائك، أو تَصل إلى دوائك». [الصفوة: ٤/ ٩١].

• الزم بيتك بعد انتهاء عملك اليومى، لا تخرج منه إلا إلى صَلاة أو عَمل يَرْضَى عنه الله تعالى، كصلةَ رحم، أو عيادة مَريض، أو سَعْي فى إصلاح ذات بَيْن، وما شابَه ذلك؛ واجعل طعامك الجَوع؛ فمنْ رَوَّضَ نَفْسَه بالجوع نجح فى صَدِّها عن الحَرام وفَطْمِها عن المعَاصى؛ وأدم الذِّكرَ واجعله حياتك، فإما أن تموت بدائك، ويُحشَر المَرْء مع مَن أَحَبَّ، أو تصل إلى وصلة مع الله، وكلاهما خَيْرٌ.

* * *

٢٤٤- «إذا أَحَبَّ القَلْبُ الخَلْوَةَ، فقد يُوصله حُبُّه إلى الله والأنس به، ومَن استغنَى بالله استوحَشَ مِن غيره». [الكواكب الدرية ١/ ٢٧٣].

• الذاكر فى الخلوة قد يَعْرض له فى أول الأمر هَواجسُ النفس، وهُمومُ الحياة، ونَزَغاتُ الشيطان وما أكثرها واختلاف أشكالها وألوانها.. ولكن بالمداومة على الذِّكْر وبَذْل الجهد فى جمع القلب على الله يصفو له الحال، ويعين على ذلك مُتابعةُ القلب لما يجرى على اللسان مِن ذِكْر بإجراء معناه على القلب، أو ما يقترب من مَعْناه ويُناسب الذِّكْرَ، فمثلاً مع لا إله إلا الله يجرى على قلبه: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلا الله، ومع ذِكْرِ الجلالة يجرى عظيم، ومع سائر الأسماء: فتّاح.. بذلك تَتَوارَى هَواجسُ النفس ودَسائسُ الشيطان وتتبدل بإلهام الرحمن والتفريد بالله والأنس به وفائدة أخرى تتحقق بمتابعة القلب لمعنى الذكر باللسان وهى الرد على من يعترض على الذكر بالاسم المفرد.

***

٢٤٥- جاء رجل إلى إسماعيل الأخ الكبير ليحيى بن معاذ يسأله:

- مع مَن يريد أن يعيش أخوك يحيى وقد هَجَرَ الخَلْقَ؟

(ولمّا لم يَعْرِفْ إسماعيلُ بماذا يُجيب الرجلَ ذهب إلى يحيى بالسؤال، ويَردُّ يحيى قائلا:

- ألا قُلتَ له مع مَن هجرهم فيه؟! [الصفوة: ٤/ ٩١].

• سئل بعض الحكماء: من أين معاشك؟

قال: من عند من ضيّق على من يشاء من غير قلة، ووسع على من يشاء من غير علة.

***

٢٤٦- قال يحيى فى اعتزال الناس:

سَلِّمْ عَلَي الخَلْقِ وارْحَلْ نَحْوَ مَوْلاكَ ... واهْجُرْ علي الصِّدْقِ والإخلاصِ دُنياكَ

عَساكَ في الحَشْرِ تُعْطَي ما تُؤَمِّلُهُ ... ويُكرِمُ اللهُ ذُو الآلاءِ مَثْواكَ

[الحلية: ١٠/ ٦٣]

• ....

***

الباب العشرون

الصُّحبةُ

٢٤٧- قال شيخنا يحيى بن معاذ رحمه الله: «ما بَعُدَ طَرِيقٌ إلى صَدِيق. ولا استوحَشَ فى طريق مَن سَلَكَ فيه إلىَ حبيب» [الوفيات: ٧/ ١٦٦].

● الصَّداقةُ من الصِّدْق، تَتفاوتُ، فإنها إذا قوِيَتْ صارت أُخُوَّةً؛ فإن ازدادت صارت محبة، فإذا ازدادت فوق ذلك كانت خُلَّةً.

وما بَعُدَ طَرِيقٌ إلى صديق، روى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: «مَن عادَ مَريضاً أو زارَ أخًا له فى الله تعالى ناداه مُنادٍ: أَنْ طِبْتَ وطابَ مَمْشاكَ، وتَبَوأتَ من الجنة مَنْزِلاً» صحيح. وقالوا: «إن المَرِيَض يُعادُ، والصَّحيحٌ يُزارُ». وقال أبو أُمامةَ الباهليُّ: امْشِ مِيلاً وعُدْ مَريضًا، وامْشِ مِيلَيْنِ وزُرْ أخًا فى الله، وامْشِ ثلاثَةَ أَمْيالٍ وأَصْلَحْ بيْنَ اثنينِ».

● ولا استوحَشَ فى طريق مَن سلك فيه إلى حبيب؛ فإن المحبة تتضاءل أمامها المَتاعبُ وتَهونُ فى سبيلها المَصاعبُ، وكلما اقترب فى الطريق من الحبيب شبراً كلما ازداد شَوْقًا فنَسِى وَحْشَةَ الطريق ورغب فى قَطْعِ بقِيَّة المَراحِلِ، هذا فى كُلِّ السُّبُلِ حتى فى الطريق إلى الله:

وأَبْرَحُ ما يكونُ الشَّوْقُ يَوْمًا ... إذا دَنَتِ الخِيامُ مِن الخِيامِ

* * *

٢٤٨- «أَخوكَ مَن عرَّفَكَ العُيوبَ وصَديقُكَ مَن حذَّركَ الذُّنوبَ» [الكواكب الدرية: ١/ ٢٧٢].

● «المُؤْمنُ مرآةُ المُؤْمنِ» (سلسلة الأحاديث الصحيحة) يَلْفتُ نظره إلى ما فيه من عُيوب فى هُدوء وصدق كما تفعل المرآةُ.. فالنُّصح على الملأ تَقريعٌ وفضحيَةٌ، وما كان فى السِّرِّ سَتْرٌ ونَصيحةٌ، وكانَ صلى الله عليه وسلام إذا رأى مالايَستحسنه فى واحد من أصحابه لا يجابهه به، بل يقول للجميع: «ما بالُ رجالٍ منّا يقولون كذا أو يفعلون كذا»، ومن الأحاديث الصحيحة عن السيدة عائشة رضى الله عنها قَالَتْ: «كان إذا بَلَغَه عن الرجُلِ شَىْءٌ لم يَقُلْ: ما بالُ فُلانٍ يقول؟ ولكن يقول: «ما بال أقوامٍ يقولون كذا وكذا».

● وصديقك مَن حذّرَكَ الذُّنوبَ.. قبل الوقوع فيها ببيان حُرْمتها، وأن يَصْدُقَه النُّصْحَ إنْ جاءه مُستشيراً، والحديث الصحيح: «المُستشار مُؤْتَمَنٌ».ولا يُوافقه فيما يُخالف الحقَّ والدِّينَ، فلا يصدقه

كاذباً، ولا ينصره ظالماً، ولا يُمالأه في باطل، والحديث الصحيح: «انصُرْ أخاكَ ظالماً أو مظلوماً، قيل. كيف أنصره ظالماً؟ قال تحجزه عن الظُّلم، فإنَّ ذلك نَصْرُه» (أحمد والبخاري والترمذي)

* * *

٢٤٩- «بِئْسَ الأَخُ تَحْتاجُ أن تَعْتَذِر إليه عند زَلَّتِكَ».

• هذه العبارة لا تَنْهَى المُخْطِئَ في حَقِّ أخيه عن اعتذاره له؛ فهذا واجبٌ عليه كما أنه أدْعَى لدوام الصُّحبة، وتَنقية حبْلِ المَودة ممّا يَعْلَقُ به، وأيضاً لعدم تراكُم الأخطاء ولو دَقَّتْ؛ فإن التراكمات الكَيفيَّة تُعْطِي تراكمات كَمِّيَّةً لا تقوم معها مودة ولا وئام.. هذا من جانب المخطئ، فماذا من جانب الطرف الثاني؟. يجب أن يُقابله بالمُسارعة في قَبُول عذره، ولا يُضيِّق عليه في العذر الذي يُبديه، بل يقبله بدون مناقشة ولو كانَ مُلَفَّقاً.. وخَيْرٌ من هذا تلمسُ الأخ الأعذارَ لأخيه قبل اعتذاره، على حد قول أحدهم:

رُبَّما جئت لأسلفه العذ ... رلبعضِ الذُّنُوبِ قَبْلَ التَّجنِّي

وقال آخر:

إذا مَرِضْنا أتيناكُمْ نعُودُكُمُ ... وتُذْنِبُونَ فَنأتيكُمْ ونَعْتَذِرُ

وكذلك لا يُكثر الصَّديقُ من العتاب؛ فإن كثرته تَذهب ببهاء المَودَّة، وقد تُعجِّل بالافتراق، ورُبَّ عتابٍ جرَّ إلى شِقاقٍ. ويقول الهجويري: العذر شرط الغربة، والغربة جفاء في الصحبة.

* * *

٢٥٠- «بِئْسَ الصَّديقُ صَديقاً.. يَحْتاجُ أَنْ يُقال له: اذْكُرْني في دُعائك، وبئس الصديق صديقاً يحتاج أن يُعْتَذَر إليه، وبئس الصديق صديقاً تحتاج أن تَعيش معه بالمُداراة» [طبقات ابن الملقن: ٣٢٢؛ كشف المحجوب: ٢/ ٥٨٣؛ طبقات الشعراني: ١/ ١٨٢]

• بئس الصديق صديقاً يحتاج أن يُقال له اذكرني في دعائك، أي أن الصديقَ الصادقَ يُحِبُّ لأخيه الخير كما يُحبُّه لنَفْسه، ويدعو له في غَيْبته أكثر ممّا يدعو له في حَضوره.

وبخصوص ما جاء في الأثر من أن النبيَّ ﷺ قال لعُمر بن الخطاب: «لا تَنْسَنا يا أخي من دعائك»، وفي رواية: «أشْرِكْنا يا أخي في دعائك»؛ فإن الرسول ﷺ كان يَسُنُّ لنا أن نسأل غيرَنا الدُّعاءَ؛ فإن سيدنا عمر بن الخطاب لا يحتاج إلى تَذكير حتى يدعو لإخوانه بالدعاء عند الكعبة وهم في قَلْبه وعقْله.. لاحظْ «نا» المتكلمين في الحديث في «لا تنسنا»، وفي «أشركنا».

* بئس الصديق صديقاً يحتاج أن يعتذر إليه... أنظر شرحنا للحكمة السابقة.

* وبئس الصديق صديقاً تحتاج أن تعيش معه بالمداراة.

معنى أن تعيش معه بالمداراة.. أنه غَيْرُ ذي ثِقة، فتُداري أُمورَكَ عنه، ولا تطلعه على سرِّك، وتعامله في كثير مِن الحِرْصِ، وتتكلَّف له.

* * *

٢٥١- «فقدنا ثلاثًا، فما تراها ولا أراها تزداد إلا عزةً، حُسْنُ الوجه مع الصِّيانة، وحسن القول مع الدِّيانة، وحُسْنُ الإخاء مع الوفاء»

• حُسن الوجه مع الصيانة: أى حبَّذا لو اجتمعت صفاتُ الشَّرف مع مَلاحة الوجه سواء في ذلك الرجل والمرأة. ويقول الإمام على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه:

لَيْسَ الجَمالُ بأثْوابٍ تُزَيِّنُنا   إنَّ الجَمالَ جَمالُ العِلْمِ والأدَبِ

وقد يقصد شيخنا بحسن الوجه طلاقته، والحديث الشريف فيما يرويه مسلم: «لا تَحْقِرنَّ من المَعْروف شيئًا، ولو أنْ تَلْقَى أخاكَ بوَجْهٍ طَليق». ويكون هذا مع الصيانة إذاكانت طلاقة الوجه ترجمة صادقة لسَلامة سَريرته؛ فإنَّ ذَا الوَجْهَيْنِ لا يكون وَجيهًا عند الله.

• حسن القول مع الديانة: أى طَرافة الحديث وحَلاوة اللسان مع التديُّن فالكلمة لا ينطق بها إلا بعد عَرْضها على ميزان الشرْع، والحديث الصحيح: «إنَّ الرجُلَ ليتكلم بالكلمة مِن رِضْوان الله تعالى، ما يَظُنُّ أن تبلغ ما بَلَغَتْ، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة؛ وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سُخْطَه إلى يوم القيامة» (صحيح الجامع الصغير).

فلا يقول العبد إلا حقًا، ولا يَنطق إلا صدقًا، وهذا مَجالٌ واسعٌ ومنه: النصح، ورد الأخ عن الخطأ، والثناء على أخيه بما فيه، والدفاع عنه في غيبته....

• حُسن الإخاء مع الوفاء: أن يتفقد أحواله دُون تَطفُّل، فَيعوده إنْ مَرضَ، يَفرحُ لِفرحه، ويسوءه ما يحزنه، ويُسارع إليه بالنجدة إنْ كان فى شدَّة، والوفاء لِذَويه إنْ غاب أو مات، ومن الوفاء إذا أيْسَرَ أو عَلَتْ مكانتُه أن يَذكر إخوانه، ويقول الشاعر:

إنَّ الكِرامَ إذا ما أيْسَرُوا ذَكَرُوا   مَن كانَ يألَفُهُمْ في المَنْزِلِ الخَشِنِ

* * *

٢٥٢- «لا تَتَّخذُوا من القُرَناء إلا ما فيه ثلاثُ خصال: مَن حَذَّركَ غَوائلَ الذُّنوبِ، وعَرَّفك مَدَانسَ العُيوبِ، وَسايَرك إلى عَلاّمِ الغُيوبِ» [الحلية: ١٠/ ٦٨].

• الغائلةُ: الفَسادُ والشَّرُّ والداهيةُ، والجمع: غَوائلُ. وللذُّنوبِ مَضارٌ وعقوبات رتبها الله عليها تَرْهيبًا للناس منها. ومن هذه المَضارِّ في الدنيا إقامةُ الحدود وغير ذلك من العُقوبات، هذا غير العقاب في الآخرة.. قال تعالى: ﴿فلما آسفونا انتقمنامنهم﴾ وقال ﷺ: «ما اخْتَلَجَ عرقٌ إلا بذَنْبٍ». والصَّديقُ الصادقُ في مَودَّته يُحذِّر أخاه من المَعاصي ويذكِّره بمضارها.

• الدَّنَسُ: الوَسَخُ، والجمع: أَدْناس، ومَدانسُ العُيوب: مَصادرُها ومَنابعُها.

• وسايرك إلى علام الغيوب، أي سار معك فهو عالمٌ غيرُ جاهلٍ وعاملٌ بما عَلِمَ، يقتدي به، يذكرك بربك، ويَحثُّك على طاعته ويُحذِّرك معصيته، ويدعو لك، ويُعينك على العبادة وعلى حدِّ قول القائل:

ولا عَيْشَ إلا مَعْ رِجالٍ قُلُوبُهُمْ   تَحِنُّ إلى التقْوَى وتَرْتاحُ للذِّكْرِ

ومن كلام ذي النُّون: «بصُحْبةِ الصالحين تَطيبُ الحَياةُ، والخَيْرُ مجموعٌ في القَرينِ، إنْ نَسيتَ ذَكَّرك، وإنْ ذكرتَ أعانَكَ، عليك بصحبته تذكرك بالله رُؤيتهُ، وتقع هيبتهُ علي باطنك، ويزيد في عملك مَنطقُه، ويزهِّدك في الدنيا عملُه، ولا تَعْصِ الله ما دُمتَ في قُرْبه، يَعِظُكَ بلسان فعْله، ولا يعظك بلسان قوله».

وقد جمع عَلقمة العُطاردي في وصيته لابنه مَحاسنَ الرجال فقال حين حضرته الوفاةُ: «يا بُنَيَّ إذا عرضت لك على صحبة الرجال فاصْحَبْ مَن إذا خَدمتَه صانك، وإن صَحِبْتَه زانك، وإذا قعدت بك مؤنة مانَكَ (أي قام بمؤنتك). اصحب مَن إذا مددتَ يدك بخير مَدَّها، وأنْ رأىَ منك حَسَنةً عَدَّها، وإنْ رأى سيئةً سَدَّها؛ اصْحَبْ مَن إذا سألتَه أعطاكَ، وإنْ سكَتَّ ابتداك، وإن نزلت بك نازلةٌ واساك، اصحب مَن إذا قُلتَ صَدَّقَ قولك، وإنْ حاولتما أمراً أَمَّرَكَ، وإنْ تنازعتما آثَرَكَ، وقيل إنه أوصاه بهذا حتى لا يَصحب أحداً؛ فإنها لا تجتمع في أحد هذه الصفات».

* * *

٢٥٣- «في لِقاءِ الإخوانِ مُدافَعةُ ما فَضَلَ مِن النَّهار» [الحلية:١٠/ ٦٧]

• الوقت: أصيل بعد صلاة العصر مناسب للزيارات ولقاء الإخوان في الله، فلا تصلى نافلة حتى آذان المغرب، قد فرغ مَعْظَمُ الناس من أعمالهم، لا حَرَجَ للزائر أو المزور؛ فليس الوقت وقت طعام أو نوم.

- وليس الوقت وقت نَوْم، وهو أفضل من لقاء الليل حيث يلزم تنظيم الليل بين النوم والقيام للتهجد؛ وقالت السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها: «لا سَهر إلا لثلاث: «مصلٍّ أو عروس أو مسافر».

والحديث الصحيح عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال: «نَهى النبى ﷺ عن النَّوْمِ قبل العشاء، وعن الحديث بعدها» (صحيح الجامع الصغير).

* * *

٢٥٤- «اجتنبوا صُحبةَ ثَلاثة أصناف من الناس: العلماء الغافلينَ، والفقراء الَمداهنِينَ، والُمتَصوِّفة الجاهلينَ» [كشف المَحجوب: ١/ ٢١٢؛ وَفى طبقات الشعرانى: ١/ ١٨٢ بزيادة: الَّذين يتعبدون قبل تعلمهم فروض دينهم]

ونذكر هنا ما كتبه الهجويرى على هذه العبارة:

• أما العلماء الغافلون، فهم أولئك الذين جعلوا الدنيا قِبْلَةَ قُلوبهم، واختاروا السُّهولة من الشَّرْعِ، واتخذوا عبادة السلاطين، وصيروا بلاطهم مطافهم، وجعلوا جاهَ الخَلْقِ محْرابَهم، وانخدعوا بغرور مَهارتهم، وشغلوا قلوبهم برقة كلامهم، وأطلقوا لسان طعنهم فى الأئمة والأساتذة، وانشغلوا بقهر علماء الدِّين بكلام مزيّد عليه، ومَن صيَّروا الحقْدَ والحَسَدَ مَذْهبًا.

• وعن الفقراء المداهنين: قال الهجويرى: هم أولئك الذين حين يكون فعْلُ شخص مُوافقًا لهواهم، وإنْ يكن باطلاً، فإنهم يمدحونه به، وحين يعمل عملاً على خلاف هواهم، وإنْ يكن حَقًّا، فإنهم يَذُمُّونه به؛ وهم بمعاملتهم يطمعون فى الجاه من الخَلْقِ، ويداهنونهم على الباطل.

• أمّا المتصوِّفُ الجاهلُ هو الذى لم يصحب شيخاً، ولم يَتلقَّ الأدبَ عن كبير، ولم يَذُقْ عرك الزمان له، ويلبس ملابسَ الصوفية، ويلقى بنفسه بينهم، ويسلك فى الخزى طريق الانبساط فى صحبتهم، وقد حَمَلَه حُمْقُه على أن يظن الجميع مثله، ومِن ثم يشكل عليه طريقُ الحقِّ والباطل، انتهى (٢١٢/ كشف المحجوب).

وقد جاء فى طبقات الصوفية بخصوص العبارة تحريف فى كلمة الفقراء حيث وردت القرّاء.. والقَرّاءُ فى القاموس المحيط: الناسكُ المتعبِّد، وعند الحكيم الترمذى فى ختم الولاية: قُصد بها علماء الظاهر، ووصفهم بأنهم (الُمدَّعينَ للصِّدْق)؛ لأنهم أنكرو الكَرامات بزعمهم أنها من آيات الُمرسَلينَ؛ فإذا أثبتنا ذلك لمنْ دُونَهم أبطلنا حُجَجَ المرسلين، ويردُّ عليهم بأنهم لم يُميزوا بين الكرامات والآيات؛ فالكراماتُ من كَرَمه والآياتُ من قُدْرته، ولم يُقرُّوا بالكرامات ليأسهم منها لما فيهم من الأدْناسِ والتخليط، وأُرجِّح أن عبارةَ يحيى يوافقها كَلامُ الحكيم الترمذى؛ لأن مَشْرَبَهما وَاحدٌ.

ولنا إضافةٌ أيضا بخصوص المتصوِّف الجاهل.. وهو أيضاً مَن يَتعبَّد قبل تعلُّمه ما تَصحُّ به العباداتُ، وهذا مرفوضٌ عند المتصوِّفه الحَقَّة، قال الجنيد: «الطريقُ إلى الله مَسدودٌ على خَلْق الله عزَّ وجَلَّ إلا على المقتفين آثار رسول الله ﷺ في شريعته، واتباع سُنَّته، ولزِم طريقته؛ فإن طريق الخيرات كلها مفتوحة عليه»، وقال أيضاً: «علمُنا مَضبوطٌ بالكتاب والسُّنَّه». وقال نجم الدين كبرى: «الشريعةُ كالسَّفينة، والطريقة كالبحر، والحقيقة كالدُّرِّ، ومَن أراد الدُّرَّ ركب السَّفينةَ ثم شرع في البحر، ثم وصل إلى الدر، فمَن ترك هذا الترتيب لم يَصِلْ إلى الدر». وقيل: المتعبد على غير فقه كحمار الرحَى يدور ولا يبرح مكانه.فالواجب على مُريد الوصول اتباعُ الأُصول، ومعرفة ما تصحُّ به العبادَاتُ قبل التفكير في الأحوال والمُكاشَفات.

* * *

٢٥٥- «مَن صَحب الأولياءَ بصدْق أَلْهاه ذلك عن أهله وماله، وعن جميعِ الاشتغال؛ فإذا صَحَّ له ذَلك معهم تَرَقَّى إلى مَقام الاشتغال بالله، فاشتغل به عَمَّن سواه، وإن لم يصح له هذا المقام مع الأولياء، لا يشم رائحة الاشتغال بالله أبداً» [طبقات الشعراني: ١/ ١٨٣]

• صُحبةُ الوَلِيِّ على صدْق تُوصلُ المُصاحبَ إلى الاشتغال بالله وتَرْكِ ما عداه، ومن الدعاء الجميل: اللهمَّ دُلَّنا على مَن يَدلُّنا عليكَ، اللهمَّ ارزقنا حبَّكَ وحُبَّ مَن يُحبُّكَ، وحُبَّ مَن يُقَرِّبنا إلى حبِّك».

* * *

٢٥٦- «مَن خالَطَ الناسَ واراهم، ومَن داراهم راياهم» [طبقات المناوى: ١/ ٢٧٢]

• دارَى الناسَ: أى لاطَفَهم ورفق بهم، ولا يَنهم، واتَّقاهم.

وارى الناس: أى سَتَرَ عنهم ما يَراه سِراً، سَتْراً لِحالِه. وقال ابن شرف القيرواني:

وإنْ تَرْمِكَ الغربَةُ في مَعْشَرَ قد جُبل الطَّبْعُ عَلَى بُغْضِهم
فَدارِهِمْ ما دُمْتَ في دارِهِم وأَرْضِهِمْ ما دُمْتَ فى أَرْضِهِم

وقال أبو سليمان الخطابى رحمه الله:

ما دُمْتَ حَيّا فدارِ النّاسَ كُلَّهُمُ فإنَّما أنْتَ فى دارِ المُداراة

* * *

٢٥٧- «الصبر عَلَى النّاسِ أَشَدُّ من الصَّبْرِ عَلَى النّارِ» [الحلية: ١٠/ ٦٦]

النارُ يُمكن تجنبها، أمّا الناسُ فلا يمكن تَجنبُ مُعاشَرَتهم، فالإنسان مَخْلوقٌ اجتماعيٌّ بفطْرته، حَياتُه تقـوم على غيره... وقد يكون مَصْدَر أذاه واحدٌ من ذَوى قُرْباه، وطَعْنَةُ الصَّـديق أشدُّ إيلامًا من طعنة العدوِّ.. والناس تختلف طبائعُهم كـما تختلفُ أشكالُهم وألوانُهم. ومَن أراد السلامة فى دينه عليـه بالصبـر فى مُعامَـلة الناس، فالصـبر على بُعْـد الحبيب والأخ الـوفىِّ مَشَقَّـةٌ، والحِلْمُ فى مَواقف الجَهْاد مَشقَّةٌ، والعفْوُ على أذى الناس مشقة ورحم الله الشاعر الحكيم:

ومِن نَـكَدِ الـدُّنيـــا عـلَىَ المَرْءِ أنْ يَرىَ ... عَـــدُوًا لـه مـــا مِن صَـــداقـــتِـــه بُدُّ

وقالوا اقتربْ مِن الناس كاقترابك مِن النار لِتَستفيدَ منها، ولا تقترب أكثر فتُحْرِقَكَ.

* * *

٢٥٨- «لا تُضيِّعْ حَقَّ أَخيك اتِّكالاً على ما بينك وبينه مِن المَوَدَّة»

• لقد رأينا الأنْصارَ - رضى الله تعالى عنهم - يُفسِـحون لإخوانهم المهاجرين رضى الله تعالى عنهم - فى حقوق الأُخُوة حَـتَّى عَرض سعدُ بن الربيعَ على عبدالرحمن بن عـوف أن يُقاسمه فى ماله وأن يُطلِّق إحدى زَوْجَتَـيْه فيتزوجها عـبدالرحمن بعد انقضاء عدَّتهـا ويرفض عبدالرحمن بن عـوف عرض أخـيه الأنصـارى ويقول له: بارك الله لك فى مـالك وأهلك، بل دلنى على السـوق. وحتى قال المهـاجرون للنبى ﷺ : «يا رسولَ الله ما رأينا مـثْلَ قَوْم قَدمْنا عليهم، أَحْـسَنَ مُواساةً فى قَليل، ولا أَحْسَنَ بَذْلاً من كثيـر، كَفَـوْنا المَؤنَةَ، وأشْرَكُـونا فى المهنأ، حتى لقـد خشينـا أن يذهبوا بالأَجْرِ كُـلِّه (أى ولا يأخذ المهـاجرون شيـئاً). قـال: لا ما أثنيـتم عليهم ودعـوتم لهم...» هذا هو السلوكَ الإسـلامى السليم. وليس أن تضيـع حقـه، فلا تُنزِلَه مَـنْزِلَتَه، ولا تُوَفِّـيَه حَـقَّه من الإكـرام والتكريم إنْ لاقَيْتَه، ولا تسلبه شيئًا بماء الوجه. فما أُخذ بماء الوجه فهو حَرامٌ، ومِن أمثالنا الشعبية: «إنْ كان حبيبك عسل ما تلحسوش كله».

* * *

٢٥٩- «لِيَكُنْ حَظُّ المُؤْمِن مِنك ثلاثَ خِصال:

إنْ لم تَنْفَعْه فلا تَضُرَّه

وإنْ لم تَسُرَّه فلا تَغُمَّه

وإنْ لم تَمْدَحْه فلا تَذُمَّه» [الوفيات : ٦/ ١٦٧، والصفوة: ٤/ ٩١]

• دَعا شيخُنا في هذه العبارة إلى مُراعاة الأخ لأخيه المُسلم والحرْص على نَفْعه، وتفقُّد حاله في احتشام لتقديم العوْنِ له إنْ لَزِمَ، وأوجه النفع كثيرةٌ.. تَنصحُه وتُبصِّره بما عليه من حقوق لله وللناس، وإدخال السرور عليه، ومدحه بما يستحق، وإن لم يكن هذا مُتاحًا فليَكُنْ حالُك معه كما قال الشاعر:

لا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيها ولا مالُ ... فَلْيُسْعِدِ النُّطقُ إنْ لم يُسْعِدِ الحالُ

فإنْ لم تنفعه فلا تضره، وإنْ لم تَسُرَّه فلا تغمه، وإنْ لم تمدحه فلا تذمه؛ وروى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لا تَحاسَدُوا ولا تَناجَشُوا (النجش: أن يزيد في ثمن سلعة لا يريد شراءها بل يقصد الإضرار بغيره) ولا تَباغَضُوا ولا تَدابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكم على بَيْعِ بَعْضٍ، وكُونُوا عِبادَ الله إخْوانًا، المُسْلمُ أخو المسلم، لا يَظْلمه ولا يَحْقِرُه ولا يَخْذُلُه، التَّقْوَى ههنا (ويشير إلى صدره ثلاث مرات) بِحَسْب امرئٍ من الشَّرِّ أنْ يَحْقِر أخاه المُسْلِم، كُلُّ المُسْلِمِ على المسلم حَرامٌ: دَمُه ومالُه وعِرْضُه».

* * *

٢٦٠- «لا يَكون الرجُلُ حَليمًا حتى يَلْحَظَ النِّساءَ بِعَيْنِ الشَّفَقَةِ، لا بعين الشَّهْوة»
[طبقات الشعراني ١/ ١٨٣]

• النساء كما في الحديث الصحيح «خُلِقْنَ من ضِلَعٍ أعْوَجَ» وهذه هي البداية، ثم «وأعْوَجُ ما في الضِّلَعِ أعْلاه» وأعلا الإنسان رأسُه. وهذا العوج يتركز في شيئين: أنها تُحكِّم عاطفتها فيما يخصها ولا تحكم عقْلها، قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾.

والأمر الثاني: رغبتُها الضاغطة في السيطرة على آدم رغبة الجزء في السيطرة على الكل فترتكب بعضهن في سبيل ذلك كثيرًا من الحَماقة كالغَيْرَة وسُوء التدبير بل والترخُّص أحيانًا.. ومَن كان هذا حاله فهو يَستحقُّ الشَّفَقَةَ؛ وعن النبي ﷺ: «اللهُمَّ إني أحرج حَقَّ الضَّعيفين: اليتيم والمرأة». واليتيمُ فاقدُ الأب؛ فلا رعاية ولا بصر له بالأمور، والمرأة لما تَقَدَّمَ، كما أنها تستحق الشفقة لما تُعانيه بحكم تركيبها البيولوجي فهي تُعاني كثيرًا من آلام الحَيْضِ والحَمْلِ والوَضْع؛ فالنظر إليها بعين الشفقة أفْضَلُ ممّا كان ينظر إليها بعين المثل العربي القديم «النِّساءُ لحم على وضم».

• وعَوْدٌ إلى الحديث الشريف: «اسْتَوْصُوا بالنساء خَيْرًا، فإنَّ المرأة خُلقت من ضِلَعٍ أعْوَجَ، وإنَّ أعْوَجَ ما في الضلع أعلاه؛ فإنْ ذَهبتَ تُقيمُه (أي تُصْلحه» كَسَرْتَه، وإنْ تركتَه لم يَزَلْ أعوجَ فاستوصُوا بالنساء» [رياض الصالحين]. لاحظْ أن الحَديث بدأ وانتهى بعبارة «واستوصوا بالنساء..» ومِن الحديث انحتمت الشفقة وحبقت.

٢٦١- «حبُّك للفقراء من أخلاق المرسلين؛ وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين» [موعظة المؤمنين: ٣٤٨]

• حب الفقراء ومجالستهم مما دعت إليه الشريعة الغراء وحثت عليه، قال تعالى ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]. ومن الحديث الصحيح: «أبغونى الضعفاء فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم»، والحديث: «بئس الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء ويترك الفقراء».

ونبى الرحمة صلوات الله وسلامه عليه لا يكتفى بالدعوة إلى صحبة الفقراء ومصاحبتهم فى الدنيا بل يرجو ربه أن تكون هذه الصحبة موصولة بصحبتهم يوم الحشر، فيقول فى دعائه: «اللهم أحينى مسكينا، وأمتنى مسكيناً واحشرنى فى زمرة المساكين» وفى رواية فى الصحيحين «ليس المسكين الذى يطوف على الناس، ترده اللقمة واللقمتان، والثمرة والثمرتان، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس».

والفرار من صحبة الفقراء من علامة المنافقين المتكبرين، فكلنا لآدم وآدم من تراب، والمال مال الله جعل الناس مستخلفين فيه، وفيه حق معلوم للسائل والمحروم، قال تعالى : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ① فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ② وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾.

* * *

الباب الحادى والعشرون

النَّفْسُ - القَلْبُ - الرُّوحُ

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى :

٢٦٢- «أنت لا تُكلَّفُ مِن الدنيا إلا نَفْسًا واحدةً، فأنت إنْ أَصْلَحْتَها، لم يَضُرَّكَ فَسادُ غَيرِها» .

• قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠] صدق الله العظيم.

خُلق الإنسانُ وله أعداء منهم ما هو ظاهرٌ جَلِىٌّ وهو معروفٌ له، ومنهم ما هو خَفِىٌّ كالشيطان ومعنوى كالهوى، وهما أَعْدَى أعدائه.. وعَداوةُ الشيطان قديمةٌ وموروثةٌ من يوم امتناعِ إبليس عن السُّجود لأبينا آدم عليه السلام. أما الهوى فهو المعبَّر عنه بالنفس الأمَّارةَ فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]

ومتى استجابت النفسُ لما ركب فى صاحبها من غريزتى الشهوة والغضب تآلَفَ معها الشيطانُ، واجتمع على الإنسان عَدُوَّاه ينزلقان به إلى حضيض الحيوانية وسُلوكيات الشياطين. ولما زكت النفسُ صارت لَوّامةً، فحمدها الله وأقسم بها فى كتابه العزيز : ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]. وهذه النفس هى نفس الإنسان أى ذاته وحقيقته العالمةُ بالله وبسائر المعلومات. وهى المَرْحَلَةُ الأُولى فى مدارج الرُّقِىِّ إلى النفس المُلْهَمَة، فالمُطمَئنَّة، فالراضية، فالمَرْضِيَّة، فالكاملَة.

• وإصلاحُ النفس يمر بمرحلتين :

الأولى : عملية مَعْرِفيَّة حتى يُميِّزَ العبدُ فى مجال الاعتقاد بين الحقِّ والباطل، وفى مجال الأقوال بين الصِّدْق وغيره، وفى مجال الأخلاق والأفعال بين ما حَسَّنه الشَّرْعُ وقبَّحه الشَّرْعُ .

المرحلة الثانية ولها شِقّان :

١- عَمَلٌ فى الظاهر: وهو تَرويضُ النفس على شئون العبادة، بإلزام الجوارح طاعةَ الله فى العبادات والمُعاملات، فى افْعَلْ ولا تَفْعَلْ بعزم وحزم واهتمام.

٢- عَمَلٌ باطِنِىٌّ: وهو ترويض النفس على شئون العُبودية، ويتم ذلك عن طريقين:

(أ) تصحيح النِّيَّات: فيكون العمل كله خالصاً لله، لا يَقصد به إلا وجهه؛ قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] .

(ب) مُراقَبَةُ النفس فى سعيها إلى باريها، ومُتابَعة التزامها بخُلوص النِّية لله وَحْدَه فى كل عمل قلَّ أو جَلَّ، وهذا الإخلاص هو المعيار الحقيقى لعملَ الظاهر، وعلى أساسه تكون قيمته، ومن ثَمَّ عائده الدنيوى والأخروى، ومن هنا يَلزم دوامُ المراقبة والمتُابعة، وعدمُ الركون إلى صلاح النفس... لأن النفس لا تَنْفَكُّ عن طبيعتها المُتقلِّبة... وهل تخلَّى الشيطانُ عن الكيد لها والوسوسة إليها؟! وهل أهملت الدنيا زينتَها؟! كَلاّ، فالنفسُ إنْ طَهُرتْ بالمجُاهدة من الصفات الدَّنِيَّة كالحسد والبخل والرياء والحقْد.. وغير ذلك، تحولت الحرباءُ إلى حُبِّ الثناء من الناس، وحُسْن المنزلة عندهم، وإلى الرغبة فى المَقامات العُلا عند الله، عوضًا عن الموبقات التى تحولت عنها... ورغباتها هذه وإنْ كانت أقلَّ من سابقتها فى المخالفة، إلا أنها مما يَشين العُبوديَّة الحَقَّة، ومن هنا كانت المراقبة والمتابعة للنفس، ونصبُ ميزان المحاسبة دَوْمًا لها، ضَرورةٌ يجب أن لا يغفل عنها المُريدُ لطريق الله وحده، كما لا يترك الاستعانةَ بالله أبداً وإنْ تراءى له سُكونُ النَّفْس، فقد تهدأ بعضَ الوقت كبعض البراكين ثم تثور مُنَفِّثَةً عما يعتلج فى داخلها من نار وفَوَران. قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾ [النمل:٦٢]. وقال ابن عربى رحمه الله لا يصل إلى القربات إلا مَن كان طالباً للذّات. بهذا ينصلح حالُ النفس - إنْ شاء الله تعالى - ولا يَضره فَسادُ مَن حولها مِن الأنفس إذا مَا تَجنَّبَها، ووقى نفسه منها إلا لضرورة خالَطَها.

***

٢٦٣- «من سَعادة المَرْء أن يكون خَصْمُه فهِمًا، وخَصْمى لا فَهْمَ لَهُ. قيل له ومَن خَصْمُكَ؟ قالَ: خَصْمى نَفْسى ولا فَهْمَ لها، تَبيعُ الجَنَّةَ بما فيها من النعيم المُقيم والخُلود فيها بِشَهْوة ساعة فى دار الدُّنْيا» [الصفوة:٤/ ٩٤]

• فى الأمثال العربية: عَدُوٌّ عاقلٌ خَيْرٌ من صَديق جاهل» وهذه التى تبيع الخُلودَ فى جنات النعيم فى مُقابل شَهوة مُعجَّلة، قد لا تَصل إلى ساعة ستِّين دَقيقةً من شهوات الدنيا الفانية؛ ليست بأقلَّ حُمْقاً من الدُّبِّ فى الحكاية القديمة - الذى أراد أنْ يَطْرُدَ الذُّبابَ عن وجه صاحبه النائم، والذُّبابُ لَحُوحٌ بطَبْعه، كُلّما ذُبَّ آبَ، فلما يئس الدُّبُّ من طَرْده جاء بحجر كبير ورمى به رأسَ صاحبه ليقتل الذبابَ فقتل صاحبه. وخطورة النفس أشدُّ وأقْسَى؛ فالدب حرم صاحبه من الدنيا، والنفس تحرم صاحبها من نعيم الآخرة، والآخرةُ خَيْرٌ وأبْقَى.

***

٢٦٤- «لا تَسكُنْ إلى نَفْسكَ وإنْ دَعَتْكَ إلى الرَّغائب» [الحلية: ١٠/ ٥٦]

• الرَّغائبُ مُفْرَدُها رَغيبةٌ أى المَرغوبُ فيها، واصطلاحاً الأعمال الطيبة التى يرجى من فعلها الثَّوابُ العظيمُ.

● والنفس من حمقها تبغى الفائدة المعجلة، ففى ذلك حَظُّها وسَعادتُها، وتَكيد لصاحبها فتقترح عليه طاعةً ما، ويَظن الغافلُ أنها رفعت الرايةَ البيضاء، وأنها بهذا تطلب الصُّلحَ وتَنتهج الصَّلاحَ... لا، فَتِّش عن السُّمِّ الذى دَسَّته فى العسل الذى اقْترحَته، تجد أن لها فى هذه الطاعة حَظاً تبتغيه، وبذلك لا يكون العملُ خالصًا لوجه الله. يَروى لنا الغزالىُّ حكاية عن أحمد بن أرقم البلخى رحمه الله: نازعَتْه يومًا نَفْسُه أنها راغبةٌ فى الخُروج للغَزْو. فاستغرب منها هذا والله يقول: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:٥٣]. وخَمَّن أنها تريد بهذا أن يخرج بها إلى الناس - وقد هَجرهم - فيسمع بها الناسُ ويعظِّمونها. ولكنها نفت هذا التخمين فأخذ يفكِّر ويقترح غيره وغيره، وهى تَنفى كُلَّ هذه التُّهم معلنة أنها تريده أن يخرجَ للقتال حاسراً فيكون أول قتيل، ولما يَئس من معرفة الهدف من اقتراحها اتجه إلى الله داعيًا أن يُنبِّهه إلى مقصودها، فكُوشفَ بها كأنها تقولَ له: إنكَ تَقتلُنى كل يوم مَرّات بَمنْعكَ إياى من الشهوات»، ولكن إذا خرجتَ إلى الغزو قتلتنى قَتْلَةً واحدةً فنجوتُ منك، ثمَّ يتسامع الناسُ فيقولون: استُشْهد أحمد، ويكون لى شَرَفٌ وذكْرٌ.. وقعد أحمد ولم يخرج للقتال عامهُ هذا.. فانظر إلى حمق النفس وغرورها وكيف أنها تُرائى الناسَ بعد الموت بعمل لم يَتمَّ بعد. ويقول البوصيرى رحمه الله:

فخالف النَّفْسَ والشَّيطان واعْصِهما   وإنْ هُما مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فاتَّهِم

● ويُحكَى أن أحد الصالحين كان إذا اقترب مَوْسِمُ الحَجِّ وجد فى نفسه نَشاطًا وخفَّةً وتَجهُّزَ للخروج.. وذات يوم سألته أمُّه العَجوزُ أن يأتيها بكُوب من الماء لتشرب، فقام مُتثاقلاً كأنما يحمل المُقطَّمَ على كَتفَيْه، ومن فضل الله عليه أن تنبَّه لذلك. فأجرى فى نفسه موازَنَةً بين خفته ونَشاطه للحج وكَسَلَه وتثاقُله لَسقْيِ أُمِّه.. وعَرَفَ أن خروجه للحج سنوياً لم يكن خالصًا لله إنما كان حظ نفس ليقول الناسُ بصَلَاحه أوْ بيُسرِ حاله.. ورحم الله البوصيرى حين يقول:

وراعِها وهْيَ فى الأعْمالِ سائمَةٌ   وإنْ هى استَحْلَت المَرْعَى فلا تَسِمِ

* * *

٢٦٥- «مُحاربَةُ الصِّدِّيقينَ لُنفوسهم من الخطرات، ومحاربة الأبدال مع الفكرات ومحاربة الزُّهّاد مع الشهوات، ومحاربة التائبين مع الزلات» [طبقات الشعرانى: ١٨٣/١]

● الخاطرُ: ما يَخْطُرُ على القلب من رَأْى أَو مَعْنىً، يرد لأول مرة، أو تذكر لأَمْر سابق، والجمع: خَواطرُ، فالخواطر هى المُحرِّكاتُ للإرادات، فمبدأ الفعل: الخاطرُ الذى يُحرِّكُ الرَّغْبَةَ، التى تَحرُّكُ العزْمَ، الذى يحرك النِّيَّةَ، والنيةُ تحرك الأعضاءَ.

• والخواطرُ من حيث المَصْدَرِ خَمْسَةٌ:

١، ٢- خاطرُ النفس، وخاطر الشيطان، وهما خاطِرا سُوءٍ لأنهما مع الهَوى وضِدُّ العِلْمِ.

٣، ٤- خاطر رباني، وخاطر مَلَكي، وهما خاطرا خَيْرٌ لأنهما مع العِلْمِ؛ وللتفريق بينهما ينظر فى ذلك من ثلاثة أوجه:

أ- إن كان قوياً ومستمراً فهو رباني؛ وإن كان متردداً غير ثابت فهو ملكى، وهذا شأن الناصح.

ب- إن كان عقب اجتهاد فهو من الله ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلَنا﴾؛ وإن كان مبتدأ فهو فى الغالب ملكى.

جـ- إذا كان فى الأصول والأعمال الباطنة فهو من الله؛ وإن كان فى الأعمال الظاهرة فى الفروع فهو ملكى غالباً.

وقد يجئ خاطرُ خير من الشيطان استدراجاً إلى شر يؤسسه عليه، ولكشفه انظر هل لزمتك وأنت تفعله خشية أو تأن أو بصارة للعاقبة فإن كان كذلك فافعله فإنه ربانى أو ملكى . وإذا كان خلاف هذا فهو شيطانى فاجتنبه.

٥- خاطر العقل وهو الذى أضافه شيخنا يحيى إلى الأبدال فى عبارته وسمَّاه بالفكرة

• الفكْرةُ رأىٌ بين العَقْلِ والشَّهْوة؛ فإذا ارتفعتْ نحو العقل صارت رَفيعةً وولَدتِ المَحاسنَ، وإذا اتضعت نحو الشهوة والهوى كانت وَضيعةً، وولدت القبائحَ.

• الشهوة: الرَّغْبَةُ الشَّديدةُ، ومُحارَبتُها أى الوقوف عند فضولها.

• الصدِّيق: الذى يُطابقُ عَمَلُه قَوْلَه وهو فى قمَّة الصالحينَ.

• الأبدال: واحدهم البدل، وهم دُونَ الصدِّيقينَ فى المَرْتبَة.

• ومعنى العبارة في إجمال: أن الصديقين والأبدال والزهاد والتائبين، الجميع فى جهاد، كُلٌّ يجاهد فى العَقَبَة التى فى مستواه.

* * *

٢٦٦- «إذا كانت نَفْسُكَ ناظرةً لقلبك فأدِّبْها بمُجالَسَةِ الحكُماء».

قُلوبُ الصالحينَ مَحلُّ تَنزُّلاتِ الرَّحْمة، ومَعادنِ المُشاهَدَة، وكُنوزِ الحكْمة، وهم بين يدى الله تعالى بقلوبهم، فلا تستطيع النفسُ أن تأخذهم بعيداً عن الطاعات، فتنظر إليهم بحَسَد على ما مَنَّ الله عليهم به؛ يقول تعالى فى أهْلِ عَداوته: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣]؛ وشيخنا يحيى يُخاطبُ هنا بهذه العبارة مَن كانت هذه حالَه ويَنصحه بأن يُجالسَ العُلماءَ والحُكماءَ حتى ينصلح حالُ نفسه. فإن النفس

تخشى القَلْبَ وتَتَجنَّبُ نقْـدهَ ولَوْمَه وشده وجذبه، فلو غرقت الجـوارح فى التهم لسارعت النفس بكتمان ذلك على القلب، وأحـياناً تُموِّهْ عليه فتـزكى جوارحها بالقول والعظات، بل أحـيانا تأخذ جانباً عـملياً فتسـارع إلى العبادات كالصيـام أوالصلاة، وهكذا. وبمجالسة الحكمـاء وهم العلماء العاملون تتأدب النفس وتساير القلب فى اتجاهه، ولا تدخل عليه العجب فيما وصل إليه والاغترار به، فـالجلوس مع الصالحين فـيه شـفاء للنفـوس. وفى الحديث القـدسى «هم القوم لا يشـقى بهم جليسهم» أى يسعد وينصلح حاله.

* * *

٢٦٧- «حـينمـا خاطَرُوا بالنـفوس اقْـتَـرَبُوا، وهذا طَعْمُ الخَـبَرِ، فكـيف بطعم النَّظَرِ» [الحلية: ١٠/ ٥٩]

• روى البخـارى عن أنس وعن أبى هريرة رضى الله عنهـما، عن النبى ﷺ عن رَبِّ العـزة عزَّ وجلَّ: «إذا تَقَرَّبَ إلىّ العَبْدُ شبْراً، تَقربتُ إليـه ذراعًا، وإذا تقرب إلىّ ذراعاً تقـربتُ منه باعًا، وإذا أتانى مَشْيًا أتيتهُ هَرْوَلَةً» وروى أحمد فى مسنده عن أنس رضى الله تعالى عنه ﷺ عن ربه عزَّ وجلَّ قال: «يا ابن آدم إنْ ذكرتَنى فى نفسك ذكرتُك فى نفسى، وإنْ ذكـرتَنى فى مَلأ ذَكرتُك فى ملأ خَيْر منهم، وإنْ دنوتَ منِّى شبراً، دنوتُ منك ذراعًا، وإن دنوتَ منى ذراعًا دنوتُ مِنك باعًا، وإنْ أتيتنى تمْشى، أتيتُ إليك أُهَرْوِلُ».

بهذين الحديثين من المُبشِّرات يَفْرَحُ العـابدون فَرَحًا لا يَعدله فَرَحٌ، إلا أنه دُونَ فَرحهم يوم يَرَوْنَ ربَّهم جل وعلا. قـال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٥- ١٧]، وهل هناك من قُرَّة أعيُن فَـوْقَ رُؤية ربِّهم. وهذا طَعْم النَّظرِ. روى البُخارىُّ وغيره عن جـرير بن عبد الله رضى الله عنه عن النبى ﷺ قـال: «إنكم ستَـرَوْنَ ربَّكم كمـا ترونَ هذا القمَـرَ، لا تُضامُونَ فـى رؤْيته (أى لا يَظلم بَعـضُهـم بعضاً فى هذه الرؤية) فـإن استَطعـتُم ألا تُغلَبـوا على صلاة قـبل طلوع الشـمس، وصلاة قبل غروبهـا فافعلوا». يَرَوْنَه بغير كَيْف ولا تشبـيه، كما أنهم يعرفونَه فى الدنيـا بغير كيف ولا تشبِّيـه، وقال ابن عباس فى قـوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحـسنى وزيادة﴾ قال: الزيادة النظر إلى الله تعالى بلا كيف. وفى قولـه تعالى ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [الأنعام:١٠٣] قالوا: الإدراك علم إحاطة وهذا لله وحده، أما الرؤية فمـن قال بها احتجّ بقوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢]، وقوله تعالى فى وصف من غلبت عليهم الشقوة ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

* * *

٢٦٨- «دَواءُ القُلوبِ خَمْسَةُ أشياء: قِراءةُ القرآن بالتَفكُّرِ، وخَلاءُ البَطْنِ وقِيامُ الليل، والتضرُّعُ عند السَّحَرِ، ومُجالسَةُ الصالحين» [الصفوة: ٤/ ٩٢].

● قراءة القرآن بالتفكر.. قالوا: الهدف من القراءة هو تَصحيحُ مَبانيها لظهور مَعانيها، للعمل بما فيها. وعن حُذَيْفَةَ رضى الله تعالى عنه قال: كان النبى ﷺ إذا مرَّ بآيةِ خَوْفٍ تَعوَّذَ، وإذا مرّ بآية رحمةٍ سأل، وإذا مرّ بآية فيها تنزيهٌ سَبَّحَ.

● خلاء البطن يُقلِّلُ النَّومَ، ويُزيح الكَسَلَ، ويبعث على النشاط للقيام بالعبادات.

● قيام الليل، وفيه فَضْلٌ كثير.. عن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إن فى الليل لَساعةً لا يُوافقُها عَبْدٌ مُسْلمٌ يسأل الله تعالى فيها خَيْرًا من أَمْرِ الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كُلَّ لَيْلَة». رواه أحمد ومسلم. ومن صفات عباد الرحمن ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان:٦٤].

● التضرع عند السحر. يقول تعالى فى صفة المتقين: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٧ - ١٨]. وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ: إذا مَضَى شَطْرُ الليل أو ثُلثاه يَنزل اللهُ إلى السماء الدنيا، فيقول: هل مِن سائلٍ فيُعْطَى؟ هل مِن داعٍ فيُستجابَ له؟ هل مِن مُسْتَغْفِرٍ فيُغْفَرَ له؟ حتى يَنفجر الصُّبْحُ» رواه مسلم.

● مجالسة الصالحين: الجلوس معهم يُصْلِحُ القُلوبَ، فجَلَساتُهم فى العِلْمِ أو الذِّكْرِ ولا مُخالفاتٍ فيها؛ والحديث القدسى: «.. هم القَوْمُ لا يَشْقَى بهم جَليسُهُم».

* * *

٢٦٩- «ما جَفَّت الدُّموعُ إلا بقَساوة القُلوب وما قست القلوبُ إلا لكثرة الذنوب، وما كثرت الذنوبُ إلا من كَثرةِ العيوب» [تاريخ الإسلام: ١٦/ ٣٧٥].

● الدُّموعُ الصادقةُ تَعبيرٌ من القلوب الرَّقيقة عَمّا يعتلج بداخلها؛ جاء رجل إلى طبيب القلوب ﷺ يَشكو قَساوةَ قَلْبِه، فقال له ﷺ: «إذا أردتَ أنْ يَلينَ قَلْبُكَ فأطعم المسكين، وامسح رأسَ اليَتيم» صحيح الجامع الصغير. وما أسباب قساوة القلوب حتى تتجنبها؟ يجيبنا الإمام الغزالى رحمه الله تعالى فى منهاج العابدين له عن ذلك فيقول:

إذا طَوَّلتَ أَمَلَكَ، قَلَّتْ طاعتُك، وتأخرت توبتُك، وكثُرتْ مَعْصيتُك، واشتَدّ حرصُك، وقسا قلبُكَ، وعظُمتْ غفلتُك عن العاقبة، فذهَبتْ والعياذ بالله - إن لم يرحَم اللهُ تعالى - آخِرتُك.

* * *

٢٧٠- «القُلوبُ كالقُدور فى الصُّدُور تَغْلى بما فيها، ومَغارِفُها أَلْسِنَتُها، فانظر الرجلَ حتى يتكلم؛ فإنَّ لسانه يَغترف لَكَ مَا فى قلبه من بين حُلْو وحامِضٍ، وعَذْب وأُجاجٍ، يُخبِرُك عن طعم قلبه اغترافُ لِسانه» [الحلية: ١٠/ ٦٣].

• قُلوبُ الرجال صَناديقُ مُغْلَقَةٌ مفاتيحُها الألسنةُ، تكشف عما فيها مِن ذَكاءٍ أو عِيٍّ، وحُبٍّ أو بُغْضٍ، وما يشغلها: اللهُ أو سِواه.

وكما أن هناك القِدْر العادى والقدر الكاتم، أيضاً هناك القلب الناطق والقلب الصامت، والذين تضيق صدورُهم بما يرد على قلوبهم مِن فُيوضات فتَفورُ على ألسنتهم، يتأخر صلاح قلوبهم عمن سواهم، فكلامهم قد يكون رياءً وعجباً وقد يجر حسد غيره له، بخلاف الكاتم فإنه يَستوى قَبْلَ غيره.

* * *

٢٧١- «مَن أقام قَلْبَه عند الله سَكَنَ، ومَن أَرْسَلَه فى الناس اضطرَبَ» [الحلية: ١٠/ ٦٧].

• مَن جمع قلبه على الله فلا يَشغله سواه، فإذا كان له مَطلَبٌ قصد الله، وفى كل أمر يكون رجوعه إلى الله سكن قَلْبُه واطمأنت نَفْسُه؛ ومَن أرسله فى الناس اضطرب؛ لِما يَرى مِن اختلاف أحوالهم ومَساوِئ أفعالهم. وروى الترمذى عن أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ: «مَن كانت الآخرةُ هَمَّهُ، جعل الله غناه فى قلبه، وجمع له شَمْلَه، وأتته الدنيا وهى راغمةٌ؛ ومَن كانت الدنيا هَمَّهُ، جعل الله فَقْرَه بين عَيْنَيه وفَرَّق عليه شملَه، ولم يأته مِن الدنيا إلا ما قُدِر له» (صحيح الجامع الصغير).

* * *

٢٧٢- «مَجالسُ المُخالَفَة تُعْمِى الرُّوحَ، ورؤيةُ الأضداد تَمنع الذَّوْقَ» [اللمع: ٢٦٧].

• الروح مخلوقة كالبدن، ولكنها ليست مِن طينته، فهى جِسْمٌ لَطيفٌ أو معنى وسط جسم كثيف، وهى فى داخل الجسم ذاتٌ قائمةٌ بنفسها حَرَّةُ الحركة، لا يُقَيِّدها الجسمُ فى شىء، تَروح وتَجىء وتَسكن كما تشاء، ولا تنقص شيئاً لو بُتِر عُضْوٌ أو أكثرُ مِن صاحبها. وتشبيهها بالتيار الكهربى فى عدم رؤيته وسريانه فى الأجهزة لتحريكها أقْرَبُ مثال.

وباتحاد الروح والبدن تكون النَّفْسُ؛ والنفس والبدن يتأثر كُلٌّ منهما بالآخر ويأخذ عنه، فيكتسب البدنُ الطَّيِّبَ أو الخبث مِن طيب النفس أو خبثها، كما تكتسب النفس الطيب أو الخبث

من طيب البدن أو خبثه... ومجالس المخالفات تَعُجُّ بالمَعاصي التي تُرْضي شهوات الجسد وتُعْمي النَّفْسَ، قال الحسن البصري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤]، قال: هو الذَّنْبُ على الذَّنْبِ حتى يَعْمَى القَلْبُ.

• ورؤية الأضداد تمنع الذوق: الأضـداد مفردها ضِـدٌّ وهنا بمعنى الشَّكّ والقدح فى العقـيدة أو انشغال قلب العبد بغير الرَّبِّ.

والذوق: هو مَبادى التجليات الإلهيـة.. وهى علوم وأسرار لا تـخضع لمنطق العلْم بالمعنى المتعارَف عليه، ومنها مثلاً العلْمُ بالشوق والوجد والرى والحضور وغير هذا والتى لا تخضع للنظر العقلى، إنما المدار فى معرفتها على القلب.. فمثلاً لو قرأ إنسانٌ جميع الكتب التى كُتبت عن عسل النحل لا يعـرف حلاوته إلا بعد أن يذوقـه.. ولهم فى ذلك قَوْلٌ مَـشهـورٌ: «مَن ذاقَ عَرَفَ»، وهو الشُّرْبُ عند الطوسى فى اللمع له حيث يقـول: تلقى الأرواح والأسرار الطاهرة (أى مواضع السر إذا تجرد من جميع الأشغال، وتفرد بمراقبة ذى الجلال صار طاهراً فلا تعارضه خـواطر قاطعة ولا عوارض مانعة عن التوجه والأقبال والقرب والاتصال) لما يرد عليها من الكرامات وتنعمها بذلك. فشبَّه ذلك بالشرب لتنعمه بما يرد على قلبه من أنوار مشاهَدَة قُرْب سيِّده.

* * *

مكررة- «يا ابن آدم ما ركن إلى الدنيا أَحَدٌ إلا لزمه عَيْبُ القُلوبِ، ولا مكَّنَ الدنيا من نفسه أَحَدٌ إلا وقع فى بحر الذنوب».

• سترد فى الباب الثانى والعشرين باب الدنيا عبارة رقم (٢٨٤).

* * *

مكررة- «يا ابن آدم لا يَزال دِينُك مُتَّمزقاً ما دامَ قَلْبُكَ بِحُبِّ الدنيا مُتَعلِّقًا».

• سترد فى الباب الثانى والعشرين باب الدنيا عبارة رقم (٢٧٣).

* * *

مكررة- قيل ليحى: كيف يَتعبَّد الرجُلُ من غير بضاعة تُعينُه على العبادة؟ قال: أولئك بضاعتُهم مَوْلاهم، وزادُهم تَقْواهم، وشغلهم ذِكْراهم، ومَن اهتَمَّ بعشائه، لم يَتهنَّ بغدائه، ومَن أراد تسكين قلبه بشىء دون مولاه، لم يَزِده استكثاره من ذلك الشىء إلا اضطراباً».

• وردت فى الباب الثانى عشر باب التوكل عبارة (١٤٦).

* * *

مكررة- «تأبى القلوبُ للأسخياءِ الإحبّا وإنْ كانوا فُجّاراً، وللبُخلاءِ إلا بُغْضاً وإنْ كانوا أبْراراً».

• وردت فى الباب الثامن عشر، باب السخاء عبارة (٢٣١).

* * *

مكررة- «ربما رأيت أحدهم يقول: عشرين سَنَةً أَطْلُبُ رَبِّى، وَيحَكَ، رَبُّكَ لا تَجدهُ على تضييع نفسك أبداً، اطلب نفسك حتى تَجِدهَا، فإذا وجدتها فقد وجدتَ رَبَّكَ».

• وردت فى الباب الثانى «العلم والحكمة» عبارة (٧)

* * *

مكررة- «لا تربح على نفسك بشىءٍ أَجَلَّ مِن أن تشغلها فى كُلِّ وَقْتٍ بما هو أَوْلَى بها».

• وردت فى الباب الرابع عشر «المجاهدة» عبارة (١٦٩).

* * *

مكررة- لبس الصوف من غير إماتة النفس جهالة».

• وردت فى الباب السادس عشر: الزهد، العبارة: ٢٠٨.

* * *

مكررة- «الكيّس من سُلط على تعذيب نفسه فى طاعة الله، فإن تعذيبها ينجيها، وترفيهها يُرْدِيها».

• وردت فى الباب الرابع عشر، المجاهدة، عبارة:١٩٣.

* * *

الباب الثانى والعشرون

الدُّنيـــا

٢٧٣- قال شـيخنا يحيى بن مـعاذ رحمه الله تعـالى: «يابن آدم لا يزال دينُك مُتَمـزِّقًا، مادام قَلْبُكَ بحُبِّ الدُّنيا مُتعلِّقًا» [الصفوة: ٤/ ٩٣].

● قال تعـالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]. والناسُ أمام زينة الدنيا رَجُلان:

رجل أخذ منها بمنهج الله مـا يحتاجه فى حياته ويحقق خلافته فى تعمـيرها دون أن تشغله عن عبادة ربِّه، وأنفق فيها بمنهج الله أيضًا.

رجلٌ تعلَّق قَلْبُه بحبِّها؛ يجمع منها فوق مـا يحتاجه، لا تقف أطماعُه عند حد، تجاوزَ حدود الله فى تحقيق أغراضه ومراميه.

فالأول عَمـرَّ دُنياه وأُخراه، والثانى خَسِر نَفْسَه وعمَّر دنياه، وخـرَّب أخراه، ويقول إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى:

نُرَقِّعُ دُنْيـــانا بتَــمْـــزِيق ديننا ... فـــلا دينُنا يَبْـــقَى ولا مـــا نُرَقِّعُ
فطُوبَى لعَـــــبْـــــدٍ آثر اللهَ ربَّهُ ... وجـــادَ بدُنْيـــاه لمـــا يَتـــوَقَّعُ

***

٢٧٤- «من الدنيا لا ندرك آمالَنا، وللآخرةِ لا نقدم أعـمالَنا، وفى القيامة غدًا لا ندرى ماَ حالُنا» [الحلية: ٥٦].

● مَن شَغَلَتـه الدنيا وجـرى وراء بُروق الأطماع قَلَّ رصيدُه من الأعمـال الطَّيِّـة للآخرة، ولم يُحقِّق آماله فى الـدنيا.. وخَفِى عليه مآلُه فى الآخـرة، وروى عن عيسى عليه السـلام، قال: «الدنيا والآخرة ضرتان، فبقدر ما تُرضِى إحداهما تُسْخِطُ الأُخرى».

***

٢٧٥- «مَـفـاوِزُ الدنيا تُـقْطَعُ بالأقـدامِ، ومفـاوز الآخـرة تقطع بالقُلوب» [الصفـوة: ٣/ ٩٣].

● المفاوز: مفردها مَفازَةٌ؛ وهى الصحراء الخالية من أسباب الحياة، وسُميت كذلك تيمنًا لأن مَن عَبَرها وخرج حيًّا فقد فازَ.. وعبارة شيخنا عن مفاوز الدنيا - فإنها على الحقيقة تقطع بالأقدام والدواب وما استجدَّ من سُبل المواصلات، أما مفاوز الآخرة فهى على التمثيل، فالطريق إلى الجنة يحتاج إلى أعمال القلوب أكثر من أعمال الجوارح من عقيدة سليمة، ونية خالصة لله إلى جوار عمل الجوارح، وهذه البنود الثلاثة هى ما تشير إليه الآيةُ الكريمة: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩] يقول رسول الله ﷺ: «حُفَّت الجَنَّةُ بالمَكاره، وحُفَّت النارُ بالشهوات» [صحيح الجامع الصغير] وما أصدق المثل الشعبى: «مَفيش حَلاوة من غير نار».

***

٢٧٦- «يابن آدم، طلبتَ الدنيا طَلَبَ ما لابُدَّ منها، وطلبتَ الآخرة طَلَبَ مَن لا حاجةَ له إليها، والدينا قد كُفيتَها، وإنْ لم تطلبها، والآخرة بالطلب منك تَنالُها؛ فاعقل شأنك» [الصفوة: ٤/ ٩٣].

● من غَباء ابن آدم التكالُبُ فى السعى لتحصيل الرزق وهو مضمونٌ له، وتهاونه فى فعل الطاعات وهو مكلَّف بالقيام بها، فنراه يطلب الدنيا كأنها منتهى أمله، ويركب الصَّعْبَ فى طلبها، ويرتكب المُوبقات من غشٍّ وتَدْليس وتَزْوير ونفاق وسَرِقَة وقَتْل لنَيْلها، وقد ضمن الله له الرزق؛ قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم: ٤٠] فما يتم الخَلْقُ إلا ويَجرى عليه الرزقُ.. ويقابل هذا تهاونه فى طلب الآخرة بينما هو مُطالَبٌ بها، ولا تتم سعادته فيها إلا بمقدار ما سعى لها؛ والله لا يُضيع أجْرَ مَن أحْسَنَ عملا.. فلمَ التهاونُ فيما هو مطلوبٌ، والاجتهاد فيما هو مضمون.. أين عقلُك يابن آدم، قال شقيقُ بن إبراهيم: «وافَقَنى الناسُ فى أربعة أشياء قَوْلاً، وخالَفونى فيها فعْلاً: أحدها: أنهم قالوا إنا عَبيدُ الله ويعملون عمل الأحرار؛ والثانى: قالوا: إن الله كفيلٌ لأرزاقنا، ولا تطمئن قلوبهم إلا مع شىء من الدنيا؛ والثالث: قالوا: إن الآخرة خيرٌ من الدنيا، وهم يجمعون المالَ للدنيا؛ والرابع: قالوا لابُدَّ لنا من الموت، ويعملون أعمال قومٍ لا يموتون».

***

٢٧٧- «مُصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد - فى ماله عند موته - يُؤخَذُ عنه كلُّه، ويُسأل عنه كله» [الصفوة: ٤/ ٩٢].

● إذا مات ابنُ آدم مات عن ثلاث: مالِه، وأهْلِه، وعَمَلِه.. فإذا خرج فى نَعْشِه خَلَّف وراءه ماله،

وإذا واروهُ الترابَ رجع أهلُه، ولم يَبْقَ معه إلا عملُه.. وكان أول ما ترك خلفه ماله الذى أفنى شبابَه وصحتَّه فى جمعه وقد يكون قد أغضبَ ربَّه فى جمعه وتحصيله، تركه كله لغيره، وقد يئول إلى عدوِّه من بعده، والمصيبة العظمى أنه يُحاسَب عليه يوم القيامة مليمًا مليمًا، كيف اكتسبه من حلال أو من حرام؛ وفيم أنفقه: فى مَرْضاة الله أو فى معصيته. هل أخرج منه زكاةَ المال أم بخل وضَنَّ بها على الفقراء والمساكين.. وقال رسول الله ﷺ: «لا تزولا قَدمَا عبْد حتى يُسْأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله، من أين اكتسبه، وفيِّم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه» [صحيح الجامع الصغير].

***

٢٧٨- «الدنيا خَمْرُ الشيطان، مَن سَكِر منها لا يُفيق إلا فى معسكر الموتى نادمًا من الخاسرينَ» [الصفوة: ٤/ ٩٨].

● الخَمْرُ: ما خامَرَ العقل أى غَطّاه وستَره، أى عطَّل وظيفته، والشيطان العدو الأول للإنسان الذى أقسم أنه سيخنس لابن آدم فى كمائن للشر، وسينصب له حَبائلَه فى كل مكان، يشغلهم بالدنيا ويزيِّن لهم حرامها ويُكرِّههم في حلالها، ويُغريهم بمَلذّاتها، فتخبطوا فى طلبها لا على هدى ولا رشاد كأنهم سُكارَى وماهم بسُكارى.. .ويظلون على حالهم، ولا يُفيقون منها إلا على سكرات الموت، وشدةَ الحساب، (وقد ذهبَت السكْرة وجاءت الفكرة)، وتمثل لهم بشاعةُ ما فعلوا، وعظيمُ ما صنعوا.. وندموا ولات ساعة مَنْدَم.. وحالهم هذ يذكِّرنا بحال امرئ القيس الشاعر العرِبيد وقد جاءه خبرُ مقتل أبيه وهو فى مجلس شُرْب فقال: «اليوم خمر وغداً أمر...» لكنَ أَمْرَ غدِهم ليس فى يدهم، فالأمر يومئذ لله.

***

٢٧٩- «الدنيا دارُ خَراب، وأخربُ منها قَلبُ مَن يُعمِّرها؛ والآخرةُ دار عُمْران، وأعْمَرُ منها قلبُ مَنَ يطلبُها» [الصفوة: ٤/ ٩٥].

● الدنيا دار خراب وذلك لقصَر عمرها بالنِّسبة للآخرة، كما أن عُمْرَ الإنسان فيها قَصيرٌ، كما أن نَعيمَها لا يخلو من مَرارة، هذا غَير المصائب والمحَن، قد كتب علينا فيها الكَبَدُ، كما أنها .. كما جاء فى الخبر: «حَلالُها حسابٌ وحَرامُها عَذابٌ»، وقال ابن عمر رضى الله تعالى عنهما: «مَن أصابَ شيئًا من الدنيا نَقصَ من آخرته، وإنْ كان كريماً على الله تَعوَّذَ بالله منْ مكر الله...».

ومَن جعل الدنيا هَمَّه ونَسى آخرته كان قلبه خربًا لا يُعمِّره ذكرُ الله ولا الشوق إلى لقائه فى دار البقاء فى جنات عرْضُها السموات والأرض لا يتحول عنها أبداً..

***

٢٨٠- «أيُّها المُريدون، إذا اضطُررتُم إلى طلب الدنيا، فاطلبوها ولا تُحبُّوها، واشغلوا بها أبدانكم، وعلِّقـوا بغيرها قلوبكم، فإنهـا دارُ مَمَرٍّ، وليست بـدارِ مَقَرٍّ، الزادُ منها، والمَقيلُ في غيرها» [الصفوة: ٤/ ٩٥].

٢٨١- «إياكم والرُّكون إلى دار الدنيا؛ فإنها دار ممر، لا دار مقر، الزاد منها، والمقيل فى غيرها» [طبقات الشعرانى: ١/ ١٨٣].

● أى اطلبـوا الدنيـا شَأنَ المُضطرِّ؛ وتناول المضطر غَيْـرَ باغٍ ولا عـاد، السَّـعْيُ فـيـهـا يكون بجوارحكم، أما قلوبكم فاجعلوها مع الله، متوكِّلَةً عليه، وليكن سَـعْيُكم فيها على أساس أنها مَمَرٌّ نهايته الآخرة، منها التزود لحياة طويلة، فاحرص أن تكون في جنات النَّعيم.. عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه؛ قال: أَوْصانى خليلى بأربع كلمات هُنَّ إلىَّ أَحَبُّ من الدنيـا وما فيها، فقال: «يا أبا ذر، أَحْكِم السَّفـينَة فإن البَحْرَ عَـميقٌ، واستكثِر مِـن الزاد فإن السفر طويل، وخـفِّف الظهر فإن العقـبة كؤدٌ، وأخلِص العمل فإن الناقِدَ بَصيرٌ».

ويقول الشاعر:

النَّفْسُ تبكى على الـدُّنْيـا وقـد عَـلِمَتْ ... أَنَّ السَّـلامـةَ فـيـهـا تَرْكُ مـا فـيـهـا

لا دارَ للـمَـرْءِ بَعْـدَ المَوْتِ يَسْكُنُهـا ... إلا التـى قَـبْلَ المـوتِ بانيـهـا

* * *

٢٨٢- «الدنيا قَنْطَرَةُ الآخرة، فاطلبوها ولا تعمروها» [الحلية: ١٠/ ٥٣].

٢٨٣- «ليس مِن العَقْلِ بنيانُ القُصور على الجُسور» [الحلية: ١٠/ ٥٣].

● روى البخارى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما - يرفعه: «كُنْ فى الدنيا كأنَّكَ غريبٌ، أو عابرَ سَبيلٍ» وزاد أحـمد وغيره: «وعُدَّ نَفْسَك مِن أهل القُبور» وقـال ﷺ: «مالى وللدنيا، ما أنا فى الدنيا إلا كَراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها» صحيح الجامع الصغير.

وكان ﷺ قـد نام يوماً على حـصير فـقام وقد أثَّـر فى جَنْبه؛ فقـال له أصحـابه: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء. فقال: الحديث.

وذكـر الغزالى - رحـمه الله - فى الإحـيـاء: الدنيـا قنطرة الآخـرة فاطلبـوها ولا تعمـروها، إن الجسـور للعبور، ليـست لتشييـد القصور، وقـال إن المسيح عليه السـلام هو قائلها.. وقـد جاء فى الزهد للإمام أحمـد قال عيسى عليه السـلام: «يا مَعْشَرَ الحواريين أيكم يسـتطيع أن يبنى على موجِ

البحر داراً، قالوا ياروح الله، ومَن يقدر على ذلك؟! قال: وإياكم والدنيا فلا تتخذوها قراراً.

***

مكررة- «تَرْكُ الدنيا فضيلةٌ، وترك الذُّنوب فَريضةٌ وأنتم إلى إقامة الفرائض أحوج منكم إلى الحسنات والفضائل» [المختار: ٢٣٩].

• جاءت هذه العبارة فى الباب التاسع، باب الورع، عبارة رقم (١١٩).

***

مكرَّرَةً- «لست آمركم بترك الدنيا، بل آمركم بترك الذنوب».

• سبق أن وردت هذه العبارة فى الباب التاسع، باب الورع، عبارة رقم (١١٨).

***

٢٨٤- «يابن آدم ما رَكَنَ إلى الدنيا أَحَدٌ إلا لزمه عَيْبُ القلوب، ولا مكَّن الدنيا مِن نفسه أحدٌ إلا وقع فى بحر الذنوب» [الحلية: ١٠/ ٥٢].

• القلوب عند حاتم الأصم خمسة: قَلْبٌ مَيِّتٌ، قلبٌ مريضٌ، قلب غافلٌ، قلب مُتَنَبِّهٌ، وقلب صَحيحٌ سَليمٌ. والقلبُ المعيوبُ يبدأ بالغَفْلَة ثم يمرض ثم يموتَ، ومَن مَرِضَ قلبُه لا تنفعه مَوْعظةٌ، ولا ينتهى عن غيِّه، وذلك كركون العبد إلى الدنيا، وانشغاله بها عن ربه، يزين له الشيطان أعماله، ويَصْرِفه عن طاعة ربه، ويجره إلى المُوبقات والمعاصى.

• سؤال: كيف نتجنب الغَفْلَةُ وهى بداية لكل الشرور والآثام؟

يجنبنا الله الغفلة وهو المعين بأسباب منها:

١ - الإكثار مِن ذكْر الله ﴿ألا بذِكرِ الله تطمئنُ القُلوبُ﴾ ومنه ما قاله أبو بكر الكتانى: رأيت رسول الله ﷺ فى المَنام فقلت: يا رسولَ الله ادعُ الله لى أن لا يموت قلبى: فقال: قل فى كل يوم أربعين مرة: «يا حَىُّ يا قَيُّومُ لا إله إلا أنت، فإن الله يحيى قلبك».

٢ - «الله ناظرٌ إلىّ، الله شاهدٌ علىَّ، الله معى» تكررها عدة مرات فى الصباح والمساء، وكلما خطر لك خاطرٌ سُوء من النفسَ والشيطان.

٣ - محاولة التيقُّظ لكل فعل قبل الهَمِّ به. وعرضه أولاً على شرع الله، فإنْ كان موافقًا له، دقق فى الباعث عليه بسؤال نفسه لماذا هذا العمل ولمن.. هل هو لله أو لحظ النفس، ثم يحاولَ أن يحرر

النية من حظوظ النفس والهوى، فيصير الفعل خالصًا لله، وإنْ لم يكن الأمر موافقًا لله عاد على نفسه باللائمة. ويقول الشاعر:

إذا دَعَتْك النَّفسُ يَوْمًا لِشَهْوَةٍ ... وكان عليها للخلاف طَرِيقُ

فخالف هواها ما استطعت فإنما ... هواها عدو والخلاف صَدِيقُ

* * *

٢٨٥- «الدنيا أَميرٌ مَن طَلَبَها،وخادمٌ من تركها» [الحلية: ١٠/ ٥٣].

● هذه العبارة فى معنى حديث رواه الخطيب عن أبى مسعود، وفى إسناده الحسين بن داود البلخى، والحديث موضوع، ونصُّه «أَوْحَى الله إلى الدنيا» أن أخدمى مَن خدمنى، واتعبى مَن خَدَمَكِ» حديث ٢٣٨ الفوائد المجموعة وانظر تنزيه الشريعة ٢/ ٣٠٣. ومما يروى عن أنس رضى الله تعالى عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «مَن كانت الآخرة هَمَّه (أى فى بؤرة اهتمامه) جعل الله غناه فى قَلْبه، وجمع له شَمْلَه، وأَتَتْه الدنيا وهى راغمةٌ، ومَن كانت الدنيا همَّه، جعل الله فَقْرَه بين عينيه، وفَرَّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له» صحيح الجامع الصغير. ويروى عن نبى الله عيسى عليه السلام، قال: «لا تتخذن الدنيا ربًا، فتتخذك الدنيا عَبْدًا».

* * *

٢٨٦- «الدنيا طالبةٌ ومطلوبة، فمن طلبها رفضته، ومن رفضها طلبته» [الحلية: ١٠/ ٥٣].

● هذه العبارة فى معنى التى قبلها. وقال حاتم الأصم: الزم خدمة مولاك تأتك الدنيا راغمة، والأخرى راغبة. وقال حكيم: الدنيا كظلك ملازم لك، إما أن يكون أمامك تجرى وراءه، وإما يكون خلفك يطارد خطواتك.

* * *

٢٨٧- «اترك الدنيا قَبْلَ أَنْ تَتْركَكَ، واسترض رَبَّك قبل مُلاقاته، وعَمِّر بَيْتَكَ الذى تَسْكُنه قَبْلَ انتقالكَ إليه» يعنى القبر. [الحلية: ١٠/ ٥٣].

٢٨٨- هذه العبارة جاءت فى تنبيه الغافلينَ للسمرقندى على النحو التالى: «العاقلُ المُصيبُ مَن عَمِلَ ثلاثًا: ترك الدنيا قبلَ أن تتركه، وبنى قَبرًا قبل أن يدخل فيه، وأَرْضَى خالقَه قَبلَ أَنْ يلقاه».

• متاعُ الدنيا إمّا تاركُك هو أو تاركُه أنت، فـفيم العَناءُ.. يقول أبو حازم: وجـدتُ ما أُعطيتُ من الدنيا شيئين: شيئًـا منها يأتى أَجَلُه قَبْلَ أجَلِى فأُغْلَبُ عليه، وشيئًا منهـا يأتى أجَلِى قَبْلِ أجَلِه، فأموتُ وأتركُه لغيرى؛ ففى أى هذين أَعْصِى ربِّى؟!

• واسترضِ ربَّك قَبْلَ ملاقاته؛ فإنه اليوم عَمَلٌ ولا حِسابَ، وفى القَبر حِسابٌ ولا عملَ، وعند الحساب يُعاقَبُ المَرْءُ أو يُثابُ.

• وفى تعميـر القبر والآخرة نكتـفى بقصة سهل بن عبـد الله التُّسترى، وقـد ذهبت أُمُّه وإخوته يشكون إلى عـبد الله بن المبـارك من كثـرة إنفاقـه وأنه لا يَدَّخر شـيئًا، وقـالوا: نخْشَى عـليه الفَـقْرَ وحادثه ابن المبـارك فى مخاوف أهله فقـال سهل: يا أبا عبد الرحـمن، أرأيتَ لو أن رجلاً من أهل المدينة اشترى ضـيعة بالضَّواحى وبَنَى بوسطهـا بَيْتًا، وهو يريد أن يتحول من المديـنة إليها، أيَخْلُفُ بالمدينة شيئًا وهو يسكن فى ضـيعته، وفهم ابن المبارك مقصوده فذهـب إليهم قائلاً: خَصْمُكم يريد أن يتحول من الدنيا إلى الآخرة، كيف يترك فى الدنيا شيئًا؛ وقال الشاعر:

إن لله عـــــبـــــــادًا فُـطُـنًـا ... طَلَّقُـوا الدُّنْيـا وخـافُـوا الفـتـنا
نَظَـرُوا نـيـــهـــا فـلَمّـــا عَلِمُــوا ... أنـهـــــا لَيْـــــسَتْ لِـحَىٍّ وَطَـنـا
جَـــعَلُوها لُـجَّـــةً واتَّخَـــذُوا ... صـالـحَ الأعْـمَـالِ فـيـهـا سُـفُنًا

***

٢٨٩- «من لم يتـرك الدنيا اختـياراً تتـركه الدنيـا إجباراً؛ ومـن لم تزل عنه نعمـتُه فى حياته، زال عن نعمته بعد وفاته» [الزهد الكبير: رقم ٤٨١].

• انظر تعليقنا على الحكمة السابقة.

***

٢٩٠- «مَعاشـرَ المُريدينَ، لا تطلبوا الدنيا، فإنْ كان لابد، فـاطلبوها ولا تُريدوها، فإنْ كان لابد فأَرِيدوها ولا تُحِبُّوها، فإنْ كان لابد فـأحبوها ولا تسكنوا إليها، فإن الزاد منها والمَـقيل فى غيـرِها. وقيل أراد الخـالقُ خَلْقَ إبليس ولم يُحِبَّ ذلك، وأراد أن يخلق آدم، وأَحبَّ ذلك، والسَّعيـدُ مَنِ اجتمع فيـه الإرادةُ والمحبـةُ» [علم القلوب: ١٩٤].

• يُحـذِّرنا شيخُنا مِن الرُّكـون إلى الدنيا بعـد أن تجاوز بنا مـحطات الطلب لهـا ثم الإرادة ثم

المحبة.. وأنها الدنيا ليست المحطة الأخيرة التى فيها المقيل، بل الزاد منها والمقيل فى غيرها.

• كما يُذكِّرنا بأن الله أراد خلق آدم وأحب ذلك.. فاجتمعت فيه الإرادة والمحبة.. والسَّعيدُ فى الدنيا والآخرة مَن اجتمعت فيه إرادة الله ومحبته.

* * *

٢٩١- «مَن طَلَّق الدنيا فالآخرةُ زَوْجَتهُ، فالدنيا مطلقة الأكياس، لا تنقضى عدّتها أبدًا. فخلِّ الدنيا ولا تَذْكُرْها، واذكر الآخرة ولا تَنْسَها، وخُذْ من الدنيا ما يُبلِّغك الآخرة، ولا تأخُذْ من الدنيا ما يَمنعك الآخرة» [الحلية: ١٠/ ٥٤].

• الطَّلاقُ الرَّجْعىُّ لا يُزيل الزَّوْجيَّة أثناء العدَّة فللزوج الحقُّ فى أن يُراجِعَ فيها زوجته بدون رضاها وبدون عَقْد، وعلى المطلقة رجعيًا أن تقيم مع زوجها فى مسكنه مدة العدة لا يمسها إلا إن راجعها وإن انتهت هذا العدة ولم يراجعها أصبحت أجنبية وهكذا يكون حال الأكياس مع الدنيا يساكنها ولا يقربها كأنها معتدة.

• يترك الدنيا ولا يذكرها، ويذكر الآخرة ولا ينساها، فالإكثارُ من ذِكر الشىء يَغْرِس مَحبَّته فى النَّفْس، ثم يصبح دليلاً على محبة الشىء.

* * *

٢٩٢- «مَن كانت الحياةُ قَيْدَه، كان طلاقَه منها موتُه» [الحلية: ١٠/ ٥٧].

• إن النُّفوسَ الكبار لا تحتمل الصّغارَ، فلا تركن إلى الدنيا وهى مَتاعٌ زائلٌ، وخَيالُ حائلُ، ولكنها تَوّاقةٌ إلى لقاء ربها، ويكون يوم طلاقها بالموت هو يوم انطلاقها إلى عالم الملكوت. نُقل عن الإمام الغزالى أنه قال لبعض أصحابه يومًا: ائتنى بثوب جديد، فإنى أريد أن أدخل على الملك، فأتى له بما طلب، فأخذه وطلع به إلى بيته، ولما أبطأ فى النزول، ذهبوا إليه فوجدوه ميتًا، وبجواره هذه الأبيات:

قُلْ لإخوان رَأونى مَيْتًا ... فَبَكونى ورثَوا لى حُزنًا
أتُظنُّونَ بأنّى مَيْتكُمْ ... لَيْسَ ذاك المَيْتُ والله أنا
أنا فى الصُّور وهذا جَسَدى ... كان بَيْتى وقميصى زَمَنا
أنا كَنْزٌ وحجابى طَلْسَمٌ ... من تُراب كان ضَيْقًا وَعَنا
أنا دُرٌّ قَدْ حَواهُ صَدَفٌ ... لامتحانى فنَفَيْتُ المحنا
أنا عُصْفُورٌ وهذا قَفَصى ... طِرْتُ عَنْهُ وبَقى مُرتَهنا

أحْـــــمَــــــدُ اللهَ الَّذى خَلَّصَنى ... وبَنَى لى فى المعــــــالى سَكَنا
كُنتُ قَــبْلَ اليَــوْمِ مَــيْـتًـا بَيْنَكُمْ ... فــحَـــيِــيــتُ وخَلَعْتُ الكَفنا
وأنـا الَيْـــــومَ أُناجى مَـــــلأً ... وأرَى الله جـــــهَـــــاراً عَلَنا
عـــاكِفٌ فى اللَّوْحِ أقْــــرأُ وأرَى ... كُلَّ مـــا كـــان تـنـاآى ودَنا
وطَعـــامِى وشـــرابى واحِـــدٌ ... وَهُوَ رَمْــزٌ فـافـهـمـوهُ حَسَنا
لَيسَ خـمـراً سـائغًـا أوْ عَسَـلا ... لا ولا مـــــــاءً ولكِـنْ لَبَـنا
فـافـهـمـوا السِّـرَّ فـفـيـه نَبَأٌ ... أىّ مَــعْـنًى تَحْتَ لَفْظى كَــمَنَا؟!
فـاهْدِمُــوا بَيْـتى ورَضـوا قَــفَصى ... وذَروا الـطِّـلْـسَمَ يَـعْـلُـوه الـفَـنـا
قـــــد تَـرحَّلْتُ وخلَّفــتُـكُمُ ... لـســتُ أَرْضَـى داركُمْ لـى وَطَـنـا
لا تَـظُنُّـوا المَوْتَ مَـــــوتًا إنَّه ... لَحَــيَــاةٌ وهْـوَ غــايـاتُ المُنى
حىٌّ ذى الدار نـئـــوم مُـــفَـــرَقٌ ... فــــإذا مـــات أطـارَ الـوَثَـنا
لا تَرُعْـكُمْ هَجْـمـةُ المَوْتِ فـمـا ... هـو إلاّ نَـقْـلَـةٌ مِـن هـاهُـنـا
وخُـذوا فى الزاد عَــهْــدًا لا تـنُوا ... لَـيْس بـالـعــــاقل منا مَن ونَى
واحْــــسِنُوا الـظَّـنَّ بـربٍّ راحِمٍ ... شـــاكِــرٍ للسَّــعْى وأتُوا أمنا
مـــا أرى نَـفْـــسِـى إلا أنـتـم ... واعـــتـــقــادى أنكم أنتم أنا
عُنْصُــــرُ الأنْـفُسِ مِنّا واحِـــدٌ ... وكـذا الجِـسْم جـمـيـعًـا عَـمَّنا
فـارحَـمُـونى وارحـمـوا أنـفـسكُم ... واعـلـمــــــوا أنكم فـى أثَـرنـا
أسْـــألُ الله لنَفْـسِـى رَحْـمَــةً ... رحِـمَ الله كـــــريمًـا أمَّـنـا

***

٢٩٣- سُئِل يحيى بن معاذ عن الوسوسة فقال: «إذا كانت الدنيا سجنَك، كان جَسَدُكَ لهَا سجناً، وإذا كـانت الدنيـا روْضتَك، كـان جَسَدُك لهَا بُستانًا» [الحلية: ١٠/ ٥٧].

• مَن كانت الآخرة هَمَّه، وما أعدَّ الله لعباده فى دار المقام مطمعه، نظر إلى الدنيا نظرة السجين

الذى يَعُدُّ الأيامَ والليالى ليوم خَلاصه، لا يَطيبُ له فيهـا عَيْشٌ، ولا يَهْنأ له فيها بالٌ، ويصير جسده أمام الدنيا كأنه قَلْعَةٌ حصينةٌ علت أسْوارُها وسهر حُـرّاسُها، لا يفتح لها باب أمام شهواتها، أما مَن كانت الدنيا هَمَّه، ومُنْتَهى أمله، كان جسده لها سَرْحًا مُباحًا، تعبث بغرائزه وتلهو بأهوائه.

وروى أحمد ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة عن النبى ﷺ:«الدُّنيا سِجْنُ المُؤْمِنِ وجَنَّةُ الكافر».

ذكـر المناوى فى فيض القـدير له (٣/ ٥٤٦) قـال: ذكروا أن الحـافظ ابن حجـر لما كان قـاضى القضـاة مَرّ يومًـا بالسُّوق فى مـوكب عظيم، وهيئة جـميلة فـهجم عليـه يهودى يبيـع الزيت الحارّ وأثوابُهُ مُلطَّخـةٌ بالزَّيْت وهو فى غـاية الرَّثاثة والشَّناعـة، وقبض على لجـام بَغْلتـه، وقال: يا شـيخ الإسـلام تزعُم أن نبيكم قال: «الدنيا سجن المؤمـن وجنة الكافر»، فأى سجن أنت فيه، وأى جنة أنا فيها؟ فـقال: أنا بالنسبة لما أعدَّه الله لى فى الآخرة من النعيم كـأنى الآن فى سجن، وأنت بالنسبة لما أعدّ لك فى الآخرة من العذاب الأليم كأنك فى جنَّة، فأَسْلَمَ الرَّجُلُ.

* * *

٢٩٤- «قد دَعاكَ إلى دار السلام، فانظر من أين تُجيبه؟ من الدنيا؟ أَمْ من قَبْرِكَ؟ إنك إنْ أجبتَه من دُنياكَ وصَلْتَها، وإنْ أَجبتَه من قبرك مُنْعـتَها» [الحلية: ١٠/ ٦٠].

● قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] وقال تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧].. والقـبْرُ أَوَّلُ مَنازل الآخرة، فالتكليف ينتهى بالموت، ويبدأ الحسابُ من القبر.. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، أى أيامك التى قـدَر لك أن تعيشها استثمرها فى طاعة سيِّدك، فإنْ فعلتَ ذلك فقد سَعدتَ فى الدنيا وامتدت هذه السَّـعادةُ مـوصـولةً بسـعـادة الآخـرة، وإنْ لم تُجب داعيَ الله لما يُحْـيـيكَ مُنعتَ دار السـلام ولم تصلها.

* * *

٢٩٥- «الدُّنيا سُـمُّ الله القَتَّالُ لعـباده، فـخُذوا منهـا حَسْبَ ما يُؤخَـذُ السُّمُّ فى الأدوية لعلكم تَسْلَمُونَ» [الحلية: ١٠/ ٦٠].

● تدخل فى صناعـة بعض الأدوية أنواعٌ من السُّـمـوم بقَدْرٍ مَـعْلوم، لو زادت عنه كـان فـيهـا الهَـلاكُ المَحْتـومُ، وهكذا الحـالُ فى تناول شـئون الدنيـا، يجب أن يكونَ باعـتـدال فلا تَفْـريطَ ولا إفراطَ.. فمثلاً الجوع خطرُه كالتُّخمة، وقد دعانا الله إلى الاعتدال، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا

تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].. وقال البوصيرى: فى ميميته:

واخْشَ الدَّسائِسَ مِن جُوعٍ ومِن شِبَعٍ ... فرُبَّ مَخْمَصَةٍ شَرٌّ من التُّخَمِ
كَمْ حَسَّنَتْ لَذَّةً لِلْمَرْءِ قاتلةً ... مِن حَيْثُ لا يَدْرِ أنَّ السُّمَّ فى الدَّسَمِ

* * *

٢٩٦- «الدُّنيا خزانةُ الله، فما الذى يُبغَّض منها، وكلُّ شَىْءٍ من حَجَر أو مَدَر أو شجر يُسَبِّحُ اللهَ فيها، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. فالمُجيب له بالطاعة لا يَستحقُّ أنْ يكون بَغيضًا فى قلوب المؤمنين، ليُعْلَم أن الذَّنْبَ والذَّمَّ زائلان عنها إلى بنى آدم لو كانوا يعلمون» [الحلية: ١٠/ ٦٤].

● الآيتان الكريمتان اللتان وردتا فى العبارة: الآية الأولى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. والثانية ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

● هاتان الآيتان تُنبِّهان على أن لا نبغض الدنيا أو نذمها لسببين: أنها استجابت لله وأطاعت كما أن ما بها من شجر أو مدر (وهو الطين اللين اللزج، وأيضًا القُرى) وكل ما عليها يسبح بحمد الله.. وما داموا لا يستحقون ذَمًّا، فمَن ذَمَّهم يعودُ الذَّمُّ إليه ويبوء بإثمه، ورحم الله إمامنا الشافعى حيث يقول:

نَعِيبُ زَمانَنَا والعَيْبُ فِينا ... وما لِزَمانِنا عَيْبٌ سِوانا
ونَهْجو ذا الزَّمانَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ... ولَوْ نَطَقَ الزَّمانُ لَنا هَجانا

وتحضرنى قصةٌ؟ دخل أحد علماء التابعين - لا يحضرنى اسمه الآن مسجد البصرة ومعه مُصحفٌ، فوضعه بجانبه وقام يخطب الناس فأبكى جميع الحاضرين، وبعد انتهائه من عِظَته بحث عن المُصحف فلم يجده، فقال لهم: كُلُّكم يَبْكِى فَمن سَرَق المُصْحَفَ؟!!

* * *

٢٩٧- «اعلَمُوا أنَّ تَرْكَ الدنيا هو الرِّبْحُ نَفْسُه الذى ليس بعده أَمْرٌ أَشَدُّ منه، فإنْ ذَبحتم بتركها نفوسَكم أحييتموها، وإنْ أجبتم أنفسكم بأخذها قتلتموها، فارفضوها مِن قلوبكم تصيروا بالروح إلى الراحة فى الدنيا والآخرة، وتصيبوا شَرَفَ

الدنيا والآخرة، وعيش الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون» [الحلية: ١٠/ ٦٤].

• النفس بما رُكِّب فيها من الغرائز تَميل إلى الدنيا، ولكن مستقبل حياتها في ضَبْط هذا المَيْل وتَرْشيده، كما أن موتها في الإقبال على الدنيا بلا ضابط.. فهي كالطفل ميَّال إلى اللَّعب بغريزته فإنْ تركناه وشأنَه ظل سادراً في لعبه، وإنْ وَجَّهناه إلى العلم والعمل كان في ذلك مُستَقبَلُ حياته وفَلاحه، ورحم الله البوصيري إذ يقول في البردة:

مَن لي بِردِّ جِماحٍ مِن غَوايتِها ... كما يُرَدُّ جِماحُ الخَيْلِ باللُّجُمِ
فلا تَرُمْ بالمَعاصي كَسْرَ شَهْوتِها ... إنَّ الطَّعامَ يُقَوِّي شَهْوةَ النَّهِمِ
والنَّفْسُ كالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْه شَبَّ على ... حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْه يَنْفَطِمِ
فاصْرِفْ هَواها وحَاذِرْ أنْ تُوَلِّيَهُ ... إنَّ الهَوَى ما تَوَلَّى يُصْمِ أوْ يَصِمِ

* * *

٢٩٨- «على حسب اقتراب قلبك من الدنيا يكون بُعْدُك من الله، وعلى حسب بُعْد قلبك من الدنيا يكون قُرْبُكَ من الله، وكما كان مَعْدومًا وجُودُ نفسك في مكانَيْن، فكذلك معدومٌ وجودُ قلبك في دارَيْن، فإنْ كنتَ ذا قلبين فدونك اجعل أحدَهما للدنيا، وأحدَهما للآخرة، وإن كنت ذا قلب واحد فاجعله لأوْلَى الدارين بالنَّعيم والمُقام والبَقاءِ والإنْعام» [الحلية: ١٠/ ٦٥].

• قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]. وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]. العاقلُ مَن شَغَلَ قَلْبَه بأُخراه، إنها الحيوان لو كانوا يعلمون... وعلى حد قول الشاعر:

كِلانَا يُحبُّ الحياةَ لنَفْسِه ... حَريصًا عليها مُستهامًا بها صَبَّا
فحُبُّ الجبانِ النَّفْسَ أوْرَدَهُ التُّقى ... وحُبُّ الشُّجاعِ النَّفْسَ أوْرَدَه الحَرْبا

* * *

٢٩٩- «ذِكْرُ الدنيا داءٌ، وذِكْرُ الخَلْقِ بَلاءٌ وذِكْرُ العُقْبَى دواءٌ، وذِكْرُ المَوْلَى شِفاءٌ» [علم القلوب: ١٨].

• روى أبو نُعَيْم والدَّيْلَمِيُّ عن عائشة مرفوعًا: «مَن أَحَبَّ شيئًا أَكْثَرَ من ذِكْرِه» [حديث ٢٣٥٢ كشف الخفا]. والإكثارُ من ذِكْرِ الشيء يَنِمُّ عن مَحَبَّتِه أيضاً يُنَمِّي محبته في القلب، وكلُّ ما يَشغُلُك عن ربك فهو داءٌ، نسأل الله السلامة.

• وذِكْرُ الخَلْقِ قد يتدرج إلى ذِكْرِ مَعايبِهم، وهذا بلاءٌ، كما أن التعلُّقَ بالخَلْقِ لغير وجه الحق بلاءٌ.

• ذِكْرُ العُقْبَى يَحُثُّ على اكتساب الفضائل، واجتناب الرذائل، وهذا دواء للنفوس وفيه صلاحُها.

• ذكر المولى الشفاء بعينه للقلوب، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

* * *

٣٠٠- «عند ذِكْرِ الموت تموت الدنيا، وعند ذكر العُقْبَى تموت الدنيا، وعند ذكر المولى تموت الدنيا والعُقْبَى، فعليك بذكر المولى يوصلك إلى العُلا» [علم القلوب: ١٨].

• ذِكْرُ الله يُغْنِيك عن كل شيء ويَحميك مِن كل شيء، ويؤمِّنك مِن كل مخوف، ويجمعك على الله ويُسعدك في دنياك سعادة موصولة بنعيم الآخرة.

* * *

٣٠١- «لَوْ أَنَّ رَجُلاً في عِلْمِ ابنِ عباس - رضى الله تعالى عنهما - وهو راغبٌ في الدنيا لنهيت الناسَ عن مُجالَسَتِه، فإنه لا ينصحك مَن خانَ نَفْسَه» [طبقات الشعراني: ١/ ١٩٣].

• وقال الفضيل في معنى هذه العبارة: العالمُ طبيبُ الدِّين، والدنيا داءُ الدِّين، فإذا كان الطبيب يجر الداء إلى نفسه، فمتى يبرئ غيره، وأنشدوا:

وغَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بالتُّقَى ... طَبِيبٌ يُداوِي النَّاسَ وهْوَ عَلِيلُ

• وهذه العبارة فيها بعضُ التشدد؛ فالمُسْلِمُ مأمورٌ بطلب العِلْمِ والحِكْمة حيثما كانا، كما هو مأمور بحُسن الظَّنِّ في الغير وتأويلِ أفعالهم على خير الوجوه؛ فقد يكون هذا الراغب - في ظاهرِه في الدنيا - يجمع المال لإنفاقه على المُعْوزِينَ أو لعلمه أنّ حاله يستقيم مع الوفرة، وقد

يكون راغبًا في الجاه ليس لذاته ولكن لقضاء حاجات البسطاء من المسلمين، قال تعالى: ﴿ .. مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢] فقد بشرهم الله بأنهم مُحسنون لأنه ضمنهم إلى المُحسنينَ في الوصف، وعطفهم عليهم في المعني.

وهذا الإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقولُ مُتمنّيًا الثروة لإنفاقها على المُحتاجين:

يا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى مَالٍ أُفَرِّقُهُ عَلَى المُقِلِّينَ مِن أَهْلِ المُروآتِ

إنَّ اعتذاري إلى مَن جاءَ يَسْأَلُنِي ما لَيْسَ عِنْدِي لَمِنْ إِحْدَى المُصيباتِ

● ومن قَبْلِ الإمام الشافعي نرى الصحابيَّ الجليلَ سَعْدَ بن عُبادَةَ رضي الله تعالى عنه يدعو ربه: «اللهمَّ هَبْ لي حَمْدًا وهَبْ لي مَجْدًا، لا مَجْدَ إلا بفعال، ولا فعالَ إلا بمال، اللهمَّ إنه لا يُصْلِحُنِي القليلُ ولا أصلح عليه».

وكان أهل الصُّفة إذا أمْسوا انطلق الرجل بالرجل، والرجل بالرجلين، والرجل بالخمسة، فأما سعد بن عبادة فكان ينطلق بثمانين كل ليلة، يقدم لهم العشاء.

وكلمة في هذا الأمْر للحسن البصري رحمه الله؛ جاءه رجُلٌ وقال له: فُلانٌ لا يَعظُ الناسَ ويقول أخافُ أن أقول ما لا أفْعَلُ، فقال الحسن: وأيُّنا يفعل ما يقول؟! ودّ الشيطانُ لو ظَفِر بهذا، فلم يأمُرْ أحَدٌ بمعروف ولم يَنْهَ عن مُنْكَر.

وأُخرى للإمام عليٍّ رضي الله تعالى عنه: «إنما يُعْرفُ الرِّجالُ بالحَقِّ، ولا يُعرف الحَقُّ بالرِّجال».

***

٣٠٢- «الدُّنيا بَحْرُ التَّلَفِ، والنَّجاةُ منها الزُّهْدُ فيها» [الحلية: ١٠/ ٥٦]

● نَسوق في معنى هذه العبارة قِصَّةَ طالوتَ وجنود بني إسرائيل في قتالهم للوثنيين بقيادة جالوتَ، فقد دعا بنو إسرائيل ربهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون أعداءهم الوثنيين تحت إمْرَته، فبعث لهم طالوتَ مَلكاً، وأكّد لهم نبيهم: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ ﴾ [البقرة: ٢٤٨] وتمت الآية وخرج معه للقتال ثمانون ألف رجل كما ذكرهم السُّدِّيُّ... وفي الطريق اختبر طالوت صِدْقَ جنوده وصلابتَهم فقال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ أي كرعوا منه إلا قليلاً منهم، ورجع الذين كرعوا قائلين: ﴿لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ ولم يبق معه إلا ٣١٣ رجلاً منهم داود (نبي

الله فيما بعد) الذى قتَلَ جالوتَ: فقاتَلوا جالوتَ ومن معه: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فالدنيا هى كنَهْرُ الاختبار فى قصة بنى إسرائيل وملكهم طالوت، والذين كرعوا من النهر هم الذين مالوا إلى الدنيا يَعُبُّون ولا يَشْبعون، والذين زَهدُوا فيها هم الذين نَجَوْا، وقد اكتَفَوْا منها بما يُقيم أوَدَهم ويحفظ حياتهم فكان لهم حُسْنُ العاقبة.

***

٣٠٣- «جميعُ الدنيا من أولِّها إلى آخرها لا تُساوى غَمَّ ساعة، فكيف تَغُمُّ نفسك فيها مع قليل نصيبِك منها» [طبقات السلمى:٢٦]

٣٠٤- «الدنيا لا قَدْرَ لها عند ربها، وهى له، فما ينبغى أن يكون لها قَدْرٌ عندك ولَيْسَتْ لَكَ» [الحلية: ١٠: ٥٧]

٣٠٥- «الدنيا لا تعدل عند الله جَناحَ بَعُوضَةٍ، وهو لا يَسْألُك منها جناحَ بعوضة» [النبلاء: ١٣/ ١٥]

• عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ كانت الدنيا تَعْدِلُ عند الله جناحَ بعوضة، ما سَقَى كافراً منها شَرْبَةَ ماء» (صحيح الجامع الصغير). وقالوا: لو كانت تعدل أى تعادل جناح بعوضة من نعيم الآخرة، والدنيا عداواتها كثيرةٌ ومُتنوِّعة، فعداوتها لأولياء الله أنهم تَجرَّعوا مَرارةَ الصَّبْرِ على زينتها حتى خلصت نُفوسُهم من بَراثنها؛ وعداوتها لأعداء الله أنها خدعتهم حتى ركنوا إليها، ثم تخلت عنهم فى الوقت الذى هم فى أشَدِّ الحاجة إليها، فاكتووا بنارها فى حياتهم، ولما انقلبوا إلى ربهم بان لهم زَيْفُها وبدا لهم من الله ما لا يحتسبون، فاستغاثوا ولا يُغاثون، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٨٦]

***

٣٠٦- «مَن أَصْبَحَ بالدنيا مَشْغولاً أَصْبَحَ الخَيْرُ عنه مَصْرُوفاً» [طبقات المناوى ١/ ٢٧٣]

٣٠٧- «فكرتُك في الدنيا تُلهيك عن ربك وعن دِينك، فكيف إذا باشَرْتها بجميع جَوارحك؟!» [الحلية: ١٠/ ٥٤]

٣٠٨- «بقدْر تعلُّق قلبك بالدنيا يكون بُعْدُك عن الله» [الكواكب الدرية ١/ ٢٧٣]

● حاجاتُ الإنسان فى الدنيا كثيرة، وغايةٌ تجر الإنسانَ إلى غاية أُخرى، ويقول الشاعر:

فـمـا قـضى أحَـدٌ مِـنْهـا لُبـانَتَـهُ ... ولا انْتَـهَى أرَبٌ إلاّ إلـى أرَبِ

وقـال آخـر: نَروحُ ونَـغْـدو لحـاجـاتنا ... وحـاجـاتُ مَـن عـاشَ لا تَـنْقَـضِى

وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عنه أحمد والشيخان: «لو كان لابن آدم واد من مال لأبتغى إليه ثانياً، ولَوْ كان له واديان لأَبْتَـغَى لهما ثالثاً، ولا يملأ جَـوْفَ ابن آدم إلا التُّرابُ، ويَتوبُ الله على مَن تابَ».

وقال الشاعر:

أَلَـمْ تَرَ أنَّ المَـرْءَ طـول حـيـاتـه ... مُـعَنَّى بِـأمْـرٍ لا يَـزالُ يُعـالِجُـهْ

يَدورُ كـدُود القَـزِّ يَنْسُجُ دائِمًـا ... ويَهْلِـكُ غَـمًّـا وَسْطَ مـا هُو ناسِـجُـهْ

● القُلوبُ أَوْعِـيَةٌ؛ فمَن كـان يشغل ربُّه قلبَه سلك فى الدنيا وعَـمَّرها حـسب منهج الله، ومَن كانت الدنيا شُغْلَه الشـاغلَ. فبقدر تعلُّقه بها يكون بُعْـدُه عن الله وعن الجنة، فعن ابن عمرو رضى الله تعالى عنهما يرفـعه: «الدنيا حُلوةٌ خَضِرةٌ، فمَن أخذها بحقِّـه (أى حق الله) بُورِكَ له فيها، ورُبَّ مُتخوِّضٍ فيما اشتهت نفسُه، ليس له يوم القيامة إلا النارُ» [صحيح الجامع الصغير].

***

٣٠٩- «الدنيـا دارُ الأشْـغـال، والآخـرةُ دارُ الأهْوال، ولا يزال العـبـدُ بين الأشـغـال والأهوال حـتى يَسْـتَـقِـرَّ به القَـرارُ، إمـا إلىَ الجنَّة، وإمـا إلـى النار» [كـشف المحجوب: ١/ ٢٣٥]

● يعيش العبـد فى الدنيا بين ملذّاتها وبين وعيد الآخـرة.. يتأرجح بينهما حـتى يأتيه اليقينُ، ثم يوم الفَصْلِ إما إلى الجنة أو إلى النار.

***

٣١٠- «طَلَبُ العاقِلِ للدنيا أَحْسَنُ مِن تَرْكِ الجاهِلِ لها» [طبقات السلمى: ٢٦]

● لأنّ تَرْكَ الدنيا مُخـالفٌ لسنَّة الله فى الكوْن، وطلب العاقل للدنيا أحـسنُ من ترك الجاهل لها مِن وجوه: لتحقيق التعميرِ والاستخلاف فى الأرض، كما يحقق للإنسان الحياة الكريمة.

ويقول الإمام الشافعي:

ورزقُكَ لا يفوتك بالتَّواني وليس يَزيد في الرزق العَناءُ
إذا ما كنت ذا قلب قَنوعٍ فأنت ومالكُ الدنيا سَواءُ

***

٣١١- «كُلُّ مُريد لم يُحوِّل نفسه عن لَذاذةِ الدنيا فقد صارَ ضُحْكَةً للشيطان» [تاريخ بغداد ١٤/ ٢٠٩]

• الإنغماس في الملذات يُلهي الإنسانَ عن ربه وعن دينه؛ ولذلك يضحك الشيطانُ ملْءَ شدْقَيْه، فقد حقَّق غايته وبرَّ بقَسَمه: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]. وكيف لا يضحك وقد غرتهم الغَرورُ بزينتها الزائفة، والتي لا تثبت مع مُحبِّيها على حال.. حتى تفنن الواصفون لتقلباتها.. ومن ذلك: إنْ هي حلَتْ أوْحلَتْ، وإنْ هي جلَتْ أوجلَت، وإنْ هي كَسَتْ أوكَسَتْ، وإن هي هنت أوْهَنَتْ، وإن هي أقْبَلَتْ بَلَتْ، وإنْ أدبَرَتْ بَرَتْ، وإن أطْنَبَتْ نَبَتْ، وإن أرْكَبَتْ كَبَتْ، وإنْ أبْهجَتْ هَجَتْ، وإنْ أسْعَفَتْ عَفَتْ، وإنْ أيْنَعَتْ نَعَتْ، وإنْ أكْرَمَتْ رمَتْ، وإن عاونت ونتَ، وإنْ ماجَنَتْ جَنَتْ، وإنْ سامَحَتْ مَحَتْ، وإن صالَحَتْ لَحَتْ، وإن واصلَتْ صَلَتْ، وإن بالَغَتْ لَغَتْ، وإن أوْفَرَتْ فَرَتْ، وإن زوجت وجت، وإن نوهت وهت، وإن دلهت لهت، وإن باسَطَتْ سَطَتْ.

***

٣١٢- «الدُّنيا كالعَروس، ومَن يطلبها ماشطتها، والزاهدُ فيها يُسخِّم وجهها، ويَنْتفُ شَعْرَها، ويَحرِقُ ثُوْبَها، والعارف مُشتغِلٌ بالله لا يَلتفت إليها» [اللمع: ٧٣]

• جاءت هذه العبارةُ هكذا في اللمع ص ٧٣، وفي نفس المصدر ص ٦١ «والعارف مشتغل بسيده».

صورَّ شيخنا الدنيا في هذه العبارة عَروساً وحَوْلَها ثلاثةُ رجال:

الراغب فيها لا يرى إلا مَفاتنَها بعد أنْ زوَّقها بيده، وزينها الشيطان له.

والراغب عنها الزاهد فيها يَذُمُّها ويرميها في وجهها بكل نقيصة

والعارف لا يُحِسُّ بها لانشغاله بسيده، ولا يصيبها منه مَدْحٌ ولا ذَمٌّ.

***

٣١٣- «سُبحانَ مَن يبيع الحَبيبةَ بالبَغيضةِ» [الحلية: ١٠/ ٥٤]

٣١٤- «الجنةُ حَبيبةُ المؤمن يبيعها منه بالبغيضة» [الحلية : ١٠/ ٥٥]

• الجنة حبيبة المؤمن يبتاعها بثَمن زَهيد، وهو عَرَضُ الدنيا الزائل؛ فسبحان الله ما أكرَمَه!! جعل ثمن النعيم المقيم فى جنات النعيم شيئاً زائلاً وهى الدنيا.

***

٣١٥- «اعلَمْ أنَّكَ لم تَسْكُنِ الدنيا لتنعم فيها جاهلاً، وعن الآخرة غافلاً، ولكنك أُسْكنتها لتعبد فيها عاقلاً، وتَمتطىَ الأيامَ إلى ربك عاملاً؛ فإنك بين دنيا وآخَرة، ولكلٍّ واحدة منهما نعيمٌ، وفى وجود إحداهما بطول الأخرى، فانظر أن تحسن طلب النعيم؛ فقد حُكى عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: «غَلِطَ المُلوكُ طَلَبُوا النَّعيمَ فلم يُحْسِنوا» [الحلية: ١٠/ ٦٥]

• قال تعالى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]؛ أى خلقناكم لحكمة هو أن نتعبدكم بالأمر والنهى ثم ترجعوا إلينا فنجازيكم؛ فلا يَغرنَّكم نعيمُ الدنيا فيصرفكم عن نعيم الآخرة.

***

٣١٦- «أنت من الدنيا بين مَنزلتين :

فإنْ زُويت عنك كُفيتَ المؤْنةَ، وإنْ صُرفتْ إليك ألزمتها طاعةَ مولاك. وإنْ كانت طاعتُك لله فى شأنها تُصلحها، ومعصيتك لله فى أمرها يُفسدها، فدع عنك لَوْمَ الدنيا، واحفظ من نفسك وعملك ما فيه صلاحُها، فإن المُطيع فيها محمودٌ عند الله؛ إنما تلزمهَ التهمة وعيب الأخذ لها إلا إذا خاف الله فيها؛ لأن الدنيا مالُ الله، والخَلْقَ عبادُ الله. وهم فى هذا المال صنفان: خَوَنَةٌ، وأُمناءُ؛ فإذا وقع المال فى أيدى الخائنَينَ فهو سببُ دمارهم، ولا عَتب على المال، إنما العتب على فعلهم بالمال، وإذا وقع فى أيدى الأمناء كان سبب شرفهم وإخلاصهم».

ولا معنى للمال، إنما كسب لهم الشرف عند الله فعلُهم بالمال، أدوا أمانة الله فى أموالهم فلحق بهم نفع المال، لا ذنب للمال، الذنب لك، الذنوب إنما تكتسب بالجوارح، وليس للضيعة والحانوت جوارح. إنما الجوارح لك، وبها تكتسب الذنوب.

فعلُك بمالك أسقطك من عين ربك لا مالك؛ وفعلُك بمالك يصحبك إلى قبرك، لا مالك، وفعلُك بمالك يوزن يوم القيامة لا مالك» [الحلية: ١٠/ ٦٥]

● لا عَـيْبَ في الدنيا إنما العـيبُ في أسلوب التـعامُلِ مـعهـا، ولا عَيْبَ في المال إنما العيبُ في طريقة جمعه ومصارف إنفاقه .

* * *

٣١٧- «الدُّنيا مَزرْعةُ رب العالَمينَ، والناسُ فـيها زَرْعُه، والموتُ مِنْجَلُه، ومَلَكُ الموت حاصـدُه، والقبر دارسُه، والقَـيامَةُ بَيْدَرُه، والجنة والـنار بيت أهوائه، فريق في الجنةَ وفريقَ في السَّعير».

المِنْجَل: آلة يدوية لحش الكلأ أو لحصد الزرع. القبر دارسه أبلاه وأذهب أثره أو داسه ففته.

والقيامة بيـدره: البيدر الجرن الذى تجمع فيه الحبوب لتدرس والثمار لتجفـيفها، والجنة والنار بيت أهوائه، فريق في الجـنة وفريق في السعـير، أي كيفـما قضى وقـدر، فلو أن عبداً طائعـاً عابداً وزنت حسناته أمام نعمة واحدة من نعم الله لرجحـت النعمة، فإن شاء أدخله النار وهو غير ظالم، وإن عفا عنه أدخله الجنة برحمته. والحـديث الصحيح «لن ينجى أحداً منكم عملُه» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قـال: «ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحـمته» وبقـية الحديث تأكيـد لهذا المعنى «ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم».

* * *

٣١٨- قال رجل ليحيى بن معاذ: «إنكَ لَتُحِبُّ الدنيا، ودار بينهما حِوارٌ:

الرجل ليحيى: إنك لتحب الدنيا.

يحيى: أين السائِلُ عن الآخرة؟.

الرجل: ها أنا.

يحيى: أيها السائل عنها، أبالطاعة تنال أَمْ بالمعصية؟

الرجل: لا، بل بالطاعة.

يحيى: فأخْبِرْنى عن الطاعةِ، أبالحياة تُنال أَمْ بالَمماتِ؟

الرجل: لا ، بل بالحياة.

يحيى: فأخْبِرْنى عن الحياة، أبالقُوت تُنال أَمْ بِغَيْرِه؟

الرجل: لا، بل بالقُوت.

يحيى: فأخبرنى عن القوت أمِن الدنيا أمْ مِن الآخرة؟

الرجل: لا، بل مِن الدنيا

يحيى: فكيف لاأُحبُّ دنيا، قُدِّر لى فيها قُوتٌ، أكتسب به حياةً، أدرك بها طاعةً، أنالُ بها الآخرةَ.

الرجل: أشهد أن ذلك معنى قولِ النبى ﷺ. «إنَّ مِن البيانِ لَسِحْراً» [طبقات ابن الملقن].

● الحديث: «إنَّ مِن البيان لَسِحْراً» رواه مالك وأحمد والبخارى وأبو داود والترمذى عن ابن عمر

* * *

٣١٩- «من أَحبَّ أن يستوثقَ من أسبابِ المعاشِ فليكثرْ مِن الإخوانِ» [الصفوة:٤/ ٩٧].

● فالرجلُ كثير بإخوانه الصالحين، إن استشارهم نصحوه، وإن مالَ قوّموه، وإن احتاج ساعدوه، فالحياةُ تجارب، والخبراتُ كثيرة وتختلفُ من واحد لآخر.. وفى كثرة الإخوان متسعٌ من المعارف والتجاربِ والخبرات.. هذا فى معاش الدنيا الزائلِ.. أما بخصوص الآخرة فقد يحتاجُ الواحدُ منّا إلى أخٍ صالح.. يعينه فى الدنيا على طاعة ويشفع له في الآخرة، فقد روى الحاكمُ فى تاريخه عن أنس «أكثروا من المعارفِ من المؤمنين، فإن لكل مؤمنٍ شفاعةً عند الله يوم القيامة».

* * *

الباب الثالث والعشرون

الآخـــرة

قال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله تعالى:

٣٢٠- «شَرَفُ المَعاد من ثلاث:

احتمالُ الشَّدائد، وإذْلالُ النَّفْسِ، وكَراهَةُ المَعْرفَة» [الحلية: ١٠/ ٦٨].

• احتمال الشدائد، وهى إما بَلاءٌ وإمّا ابتلاء، وفى الحالَيْنِ الصَّبْرُ هو الحَلُّ.. وإنْ كان رضًا فهذا أفْضَلُ، وقد أجزل الله العطاء للصابرين بغير حساب؛فقال تعالى وهو أصْدَقُ القائلينَ:﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]. وقد أفْرَدنا للصبر بابًا قد سبق فراجعه إنْ شئتَ.

• إذلالُ النفس، بحِرْمانها من المُحرَّمات، والقَصْد فيـما تطلبه من الحلال، وعدم المسارعة بتلبية رغباتها من الحلال، والتواضعَ للآخـرين فى غير مَهَانة، والتماسَ الأعـذار للإخوان، ووَصْلِ مَن قطعك منهم ومن ذوى القُـرْبَى.. وعمـومًا مـخالفتـها فيـما ترغبُ فيـه أو تأمر به، وأيضًـا كشف ألاعيبها وفضح مَقاصدها.

• كراهة المعرفـة: قال ابن عجيبة: أى قـصد الخمول ونفى الجاه، إذ لا يتحـقق الإخلاصُ حتى يسـقط من عَيْنِ الناس، ويسـقط الناسُ من عـينه .. فيـأمن من الظهـور الذى هو قاصم للظهـور؛ والخُمـولُ مَقـصُودٌ عند القومِ فى البـدايات، ومَلحوظٌ فى النهـايات انتهى. ولنا فى أُوَيْـس القرنى شاهدٌ؛ فإنه لمّا اشتُـهر أمْرُه فَرَّ إلى مكان لا يعرفه فيه أحـدٌ .. وكَره بَعضُهم أن يكون له مكَانٌ ثابتٌ يجلس فيه إذا دَخلَ المسجدَ . فيعرف به، ويُسأل عنه إذا غاب. وعَدَّ هذا من الشُهْرَة، كذلك ارتفاع صوت فرد فى قراءة جماعية.

• قال أبـو نُعَيْم فى إيضـاح هذه المُفْرَدَة: معنى كراهة المعـرفة: يكره أن يُعْـرَفَ فى الناس (أى بصلاحه)، ولا يَبـتغى مَعرفةَ الناس، إنما استـئناسه بذكر الله فى الخَلْوة ومع الناس. وروى أبو داود وابن ماجه عن ابن عمر يرفـعه: «مَن لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرةٍ ألْبَسه اللهُ يوم القِيامـة ثوبًا مثله، ثم يُلهب فيه النار» .

***

٣٢١- «غَنيمـةُ الآخرة فى ثلاثة أشيـاء: الطاعَةُ، والبِـرُّ، والعِصْيـانُ: طاعَةُ الرَّبِّ، وبِرُّ الوالِدَيْنِ، وعِصْيانُ الشَّيْطَان» [الحلية:١٠/ ٦٨].

• طاعةُ الله فيما أَمَرَ وفيما نَهَى عنه وزَجَرَ.

• برُّ الوالدين وهى من الطاعات ولكن تخصيصها هنا لقوله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء:٢٣].

• وعصيان الشيطان من البر لأنه لا يحض على خير، كما أنه يُزَيِّنُ الأعمالَ الساقِطةَ لِمَن غَواه.

***

٣٢٢- «قَسَم الدنيا على البَلْوَى، والجنة على التَّقْوَى» [الحلية:١٠/ ٦٧].

• الدنيا دارُ ابتلاء، حَلالُها حِسابٌ وحَرامُها عِقَابٌ وعَذابٌ، والجَنَّةُ دارُ الجَزاء.

***

٣٢٣- قيل ليحى بن معاذ رحمه الله تعالى:

- مِن أى شىءٍ دَوامُ هَمِّكَ؟ [وفى صفة الصفوة: دوام غمِّك].

- قال: «مِن شىءٍ واحِدٍ».

- قيل: ما هو؟

- قال: «خَلَقَنِى ولا أَدْرِى لِمَ خَلَقَنِى» [الحلية:١٠/ ٥٢].

• فهو لا يَدرى أهو مِن أهل الجنة أم مِن أهل النار، وماذا قد كُتِب له.

ويُحكَى أن امرأةً رأت زوجها مَهْمومًا فسألَته: ما الذى يُهِمُّكَ؟! إنْ كان أَمْرًا مِن أمور الدنيا والرِّزْقِ فقد فرغ الله منه. وإن كان الله هَمُّكَ فزادكَ اللهُ هَمًّا.

***

٣٢٤- «حُفَّت الجنةُ بالمكاره، وأنت تكرهها؛ وحفت النار بالشهوات، وأنت تطلبها، فما أنت إلا كالمريض الشديد الداء، إنْ صبَّر نفسَه على مضض الدواء اكتسب بالصَّبر عافية، وإن جزعت نفسه مما يلقى طالت علة الضنا» [الصفوة: ٤/ ٩٤].

• «من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات» فالطريق إلى جهنم مفروش بالورود، يكتظ بالحانات، وعلى جانبيه محلات تعرض

شهوات النفس ورغبات الجسد، كل هذا بلا قيود ولا حدود .. أما الطريق إلى الجنة فيحكمه الالتزام بأحكام الشريعة .. والنفس تكره القيود كما يكره المريض الدواء لمرارته، ولكن فى تناوله والالتزام بمقرراته وأوقاتها الشفاء، وفى إهمال ذلك الشقاء.

***

٣٢٥- «المغبون من عطّل أيامه بالبطالات، وسلّط جوارحه على الهلكات، ومات قبل إفاقته من الجنايات» [الزهد الكبير رقم ٧٧٣].

• المغبون: ضعيف الرأى فاسده .. فقد شغلته الفانية فضيع أيامه بما لا يعود عليه فى أخراه بالخير، وسخر جوارحه فى فعل الموبقات، حتى أتاه الموت قبل أن يرعوى ويفيق من غفلته ويعلن توبته. يقول تعالى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

* * *

٣٢٦- «أَدِم جهازَك، وهيء زادك، وتهيأ للعرض على ربك جلت عظمته» [الزهد الكبير رقم ٤٧٩].

• الإنسان على سفر فى هذه الحياة .. والحديث فيما رواه البخارى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال «أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال «كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك» ... والمسافر الذى لا يعرف متى يُدعى للسفر يجب أن يكون مستعداً وقد جهز حقيبة ملابسه وأعدّ للسفر عدته، وعن أبى ذر رضى الله تعالى عنه قال: أوصانى خليلى بأربع كلمات هن إلىّ أحب من الدنيا وما فيها فقال: يا أبا ذر، أحكم السفينة فإن البحر عميق، واستكثر من الزاد فإن السفر طويل، وخفف الظهر فإن العقبة كؤود، واخلص العمل فإن الناقد بصير».

* * *

٣٢٧- «سبحان من جعل الأرواح روحانية نورانية، والأنفاس جولانية هوائية، فالأرواح تحن إلى عليين معدنها، والأنفاس إلى سجين محبسها» [الحلية:١٠/ ٦١].

• الأنفاس هكذا جاءت فى الحلية ولم أرها فى غيرها؛ وفى قواميس اللغة النَّفْس جمعها

أنفس ونفوس، أما النَّفَس فجمعه أنفاس وهو غير المقصود هنا. وتطلق النّفْس فيما تطلق على الذات كقوله تعالى ﴿فسلموا على أنفسكم﴾، ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾، ﴿يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها﴾. والروح حادثة وقيل إنها تحدث بعد تسوية الجسم وتظل متعلقة به ولها فى ذلك التعلق خمسة أنواع مختلفة الأحكام، أولها: والجنين فى بطن أمه؛ الثانى: بعد مولده؛ الثالث: فى حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه آخر؛ الرابع: فى البرزخ: فلا تنقطع عنه بعد مفارقته بالموت بل تعود إليه لرد السلام على من سلم عليه على هيئة خاصة - لا تعنى حياة البدن قبل يوم القيامة؛ الخامس: عند البعث وهو تعلق متمايز عن كل ما قبله فليس فى احتياج إلى طعام أو نوم، ولا يقبل الفساد.

وسجين هو اسم لشر النيران، بإزاء عليين وهو اسم لأشرف الجنان والزيادة فى المبنى تدل على زيادة فى المعنى . وقيل فى سجين إنه اسم للأرض السابعة؛ والنفس بمعنى الجسد لكونها خلقت من الأرض، فهى تعود إليها لشهواتها الأرضية، والروح لكونها علوية تحن إلى عليين معدنها.

* * *

(مكررة): «مَفاوزُ الدنيا تُقْطَعُ بالأقدام، ومفاوزُ الآخرة تُقْطَعُ بالقُلوبِ».

● سبق أن وردت فى الباب الثانى والعشرين، بابَ الدنيا رقم ٢٧٥.

* * *

(مكررة): سبحان مَن يبيع الحَبيبةَ بالبَغيضة .

(مكررة): الجنّةُ حبيبةُ المُؤمن يَبيعها منه بالبغيضة.

● العبارتان فى الباب الثانى والعشرين، باب الدنيا: ٣١٣، ٣١٤ .

* * *

(مكررة): «من الدنيا لا نُدرك آمالَنا، وللآخرة لا نقدم أعمالَنا، وفى القيامة غَدًا لا نَدرِى ما حالُنا».

●سبق أن وَردت فى الباب الثانى والعشرين باب الدنيا رقم ٢٧٤.

* * *

(مكررة): «مَن أحب زينة الدنيا والآخرة فلينظر فى العلم، ومَن أَحَبَّ رِفْعَةَ الدنيا والآخرة فعليه بالتقوى، ومَن أحب ألا يؤذَى فلاَ يؤذِى».

● سبق أن وردت فى الباب التاسع، باب الورع عبارة (١١٦).

* * *

(مكررة): «من دق فى الدين نظرُه، جلّ فى الآخرة قدرُه»

● سبق أن وردت فى الباب التاسع باب الورع، عبارة ١١٤.

* * *

(مكررة): «الزاهد فى عَرَض الدنيا، والعارفُ فى الآخرة»

● سبق أن وردت فى الباب السادس عشر، باب الزهد، عبارة ٢١٢.

* * *

الباب الرابع والعشرون

الرجـــال

قال يحيى بن معاذ رحمه الله تعالى:

٣٢٨ - «الناسُ ثَلاثةٌ: رَجُلٌ شَغَلَه مَـعاشُه عن مَعـاده، ورجل شغله معاده عن مـعاشه ورَجُلٌ مشتغل بهمـا جَميعًا؛ فالأولى درجةُ الهَالكينَ ، والثـانيةُ درجة الفائزين، والثالـثة درجة المُخـاطِرينَ» [وهى فى الحليـة: ١٠/ ٥٦] رجل شغله مـعاده عن معاشه، فتلك درجة الصالحين، ورجل شغله معاشه لمعاده فتلك درجة الفائزين، ورجل شغله معاشه عن معاده، فتلك درجة الهالكين.

● قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

● ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الأسراء:١٩].

● أما مَن اشتغل بالدنيا والآخرة مَعًا فإنه يخاطر بمستقبله فى الآخرة.. فيخشى عليه أن تستحوذ عليه الدنيا بِزينتها المُعْجلَة فيَميلَ إليها كُلَّ المَيلِ ويَذَرَ الآخرة كالمُعلَّقة

* * *

٣٢٩ - «أولياؤه - جل وعلا - أُسـراءُ نعَمه، وأصفياؤه - جلِ وعـلا - رهائن كرمه، وأحباؤه - جل وعلا - عَبِـيدُ مننَه، فهم عبيد مَحبَّـة لا يُعتَقُون، ورهائن كرمٍ لا يُفكون، وأُسراء نِعَمٍ لا يُطلَقون» [الحلية : ١٠/ ٦٠]

● الثلاثة: الوَلِيُّ، والصَّفِيُّ، والحِبُّ أَسلَموا لله قيادَهم بعد أَنْ عَرَفوا أنه لا يُقْصَد سواه فى خير ولا يُرجَعِ إلى غيره فى أَمْرٍ، وغَرِقوا فى عطاياه.. أَسَلَموا واستسلَموا فصاروا كأنهم ما بين أسير لا يُطْلَقُ، ورهن لا يُفَكُ، وعبْد رقيقِ لا يُعْتَقُ، والجميع ولاؤهم لسيدهم وسعداء بما هم فيه من نعمة القرب والتولى.

* * *

٣٣٠ - «إنّ لله عبـاداً إذا مَـشَـوْا على الأرض اهتـزت تحت أقـدامـهم سـروراً بهم» [الكواكب الدرية: ١/ ٢٧٣]

• اهتزت الأرض تحت أقدامهم سُروراً بهم مَجازاً أى سَعدتْ بمشيهم عليـها، فالأرض تَشْقى وتَسْعَدُ بمَن عليـها .. انظر فعل رسول الله ﷺ عندمـا مرّ بالحَجْر فى غزوة تبـوك، سَجَّى ثَوْبَه على وجـهه، واستَـحثّ راحلته، ثم قـال: «لا تَدْخُلوا بيُـوتَ الذينَ ظَلمـوا إلا وأنتم باكُـون خَوْفًـا أن يُصيبكـم ما أصابهم» ورَوَى نحوه أحمـد والشيخان. قـال تعالى فى عاقبة الـكفار إنْ ماتوا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ [الدخان: ٢٩] والمؤمنُ إذا مـات تبكى عليه السماءُ والأرضُ فـيبكى على المؤمن من الأرض مُصَلاّه، ومن السمـاء مَصْعَدُ عمله. كما روى الشيخـان والترمذى وأحمد أن النبى ﷺ لَمّا وقف على حبلٍ أُحَد ومعه أبو بكر وعمر وعـثمان اهتز الجبلُ، فقال له رسول الله ﷺ: «اثْبُتْ أُحُدُ، فإنما عليك نَبِىٌّ وصِدِّيقٌ وشَهيدان».

* * *

٣٣١ - «ثَلاثُ خصال من صفات الأولياء: الثِّقَةُ بالله فى كل شىء، الغِنَى به عن كُلِّ شىءٍ، الرُّجُوعُ إلَيه فى كَل شىءٍ» [طبقات السلمى: ٢٦].

• الثقة بالله: أى حسن الظن به جل وعلا، وقد سبق الكلام فى حسن الظن بالله جل جلاله فى باب الرجاء.

• الغنى به عن كل شىء فالولىُّ قد تحقَّق بالحقيقة التى هى أن الحوائج كلها لا تكون إلا إليه ، فغيره لا يملك لنفسه نَفْعًا ولا ضراً ، فكيف يملك ذلك لغيره فمن تحقق بذلك وبافتقاره إليه تمامًا أغناه عن جمـيع الخلائق، وأعطاه مـا يَحتـاج إليه ومن غيـر سؤال فـالكريم يكفيـه الحال، ويكون السؤال تَعبُّداً وفى الخبر «مَن سرَّه أن يكون أغْنَى الناسَ فلْيكن بما عند الله أوْثَقَ منه بما فى يَدَيْه»:

• الرجوع إليه فى كل شىء: قال سـعيـد بن جبير رحمـه الله فى قوله تـعالى: ﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ [الإسراء: ٢٥] قال: يعنى الراجعين إلى الله عز وجل. هذا فى التوبة وغيـرها كثير.. منه: مـوافقة العبد لله تعـالى فى إرادته ومَشيئته قبل القضاء، والتـسليم بعد القضاء.. ومنه الاستعانة به فى كل أمر من أمور الدنيـا والآخرة مع الأخذ بالأسباب فهو الفعّال لما يُريُد فلا يعـتمد العبـد على غير سيِّـدهِ ولا يثق فى سواه، ومنها تقديم المشـيئة قبل كل فـعل.. قال تعالى: ﴿ولا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أى إنه فعال لما يريد، وأن الأمور كلها قضاؤها مُتعلِّقٌ بمشيئته ورهن إرادته ﴿وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾ [الكهف : ٢٣، ٢٤].

***

٣٣٢ - «مَثَلُ الأولياء مَثَلُ الصَّيَّادينَ، يَصطادون النـاسَ من أفواه الشياطين، ولو لم يَصِد الوليُّ طول عمره إلاّ واحدًا، لكان قد أُوتِيَ خَيْراً كثيراً» [طبقات الشَعرانى: ١/ ١٨٣].

• هذه العبارة هى معنى للحديث الذى رواه الطبرانى : «لأنْ يَهْدِيَ اللهُ على يَدَيْكَ رَجُلاً خَيْرٌ لك ممّا طَلَعَتْ عليه الشَّمْسُ» فيا أخى المسلم حاوِلْ أن تكون صَيّاداً بلسانك أو بحَميد خصالك وبالاثنين وذلك أفضلُ.

***

٣٣٣ «الكَيِّسُ مَن فيه ثَلاثُ خصال:

مَن بادَرَ بعَمَلِه، وسَوَّفَ بِأَمَلِه، واستعد لأجله [الحلية: ١٠/ ٥٨].

• الكياسةُ تَمكُّنُ النُّفوسِ من استنباط ما هو أَنْفَعُ، ورجُلٌ كَيْسٌ وكَيِّسٌ أىَ عاقِلٌ

• بادَرَ بعمله: أى أَسْرَعَ واستعجل إليه وقبل أن يُوافيَه أَجلُه وهو لا يعرف متى يَطْرُقُه، أيضا وخوف الفتن، ومن حديث أبى هريرة رضى الله تعالى عنه فيما رواه أحمد ومسلم والترمذى يرفعه: «بادرُوا بالأعمال فتناً كقطع الليل المُظْلِم، يُصْبح الرجل مؤمنًا، ويُمْسى كافراً، ويمسى مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع أَحدُهم دِينَه بعَرَضٍ مِن الدنيا قَليلٍ»، وقال أبو بكر الصديق: «أكْيَسُ الكَيْسِ التُّقى، وأَحْمَقُ الحُمْقِ الفُجُورُ».

• وسوّف بأمله.. طُولُ الأمل فى الدنيا مَدْعاةٌ إلى الكسل وقلّة العمل؛ وأهل النار ما رمى كثيراً منهم فيها إلا غداً أتوب، غداً أعمل.. والعاقلُ مَن كان أَمَلُه فى طُولِ أجله ليصرفه فى العبادة، وأن يكون فى غده أفضل منه اليوم عقيدةً وعبادةً؛ وعن أبى بَكْرَةَ رضى الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «خَيْرُ الناس مَن طالَ عُمْرُه وحَسُنَ عَمَلُه، وشَرُّ الناس مَن طال عُمْرُه وساء عَمَلُه» (صحيح الجامع الصغير) وروى أحمد والبخارى والنسائى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم: «لا يتمنى أحدُكم الموتَ، إمّا مُحْسِنًا فلعله يَزدادُ وإما مُسيئًا فلعله يَسْتَعْتِبُ» كما إنه لم يشغل نفسه بما سيفعل فى المستقبل بل أهتم أن يشغل نفسه فى الوقت والساعة التى يحياها بمايعود عليه من النفع.

• واستَعدَّ لأجله أى الاستعداد للرحيل بالاستغفار والتَّوْبة، وعَملْ الطاعات، والبُعْدِ عن المعَاصى والمُخالفات.

***

٣٣٤ - «سبَحُوا فى بحار البَلايا حتى جاوَزُوها إلى العطايا، ثم سبحوا فى بحار

العطايا حتى جاوزوها إلى رَبِّ البَرايا» [الحلية: ١٠/ ٥٢]

● قال تعالى ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] فلما صبروا علي البلاء جازاهم الله بصُنوف مِن العَطاء فقاموا بالشكر والطاعات فأقبل عليهم فنسوا البلاء والعطاء ولم يَرَوْا إلا رب السماء.

***

٣٣٥ - «الفارسُ في الدِّين مَن كان فيه ثلاثُ خصال: حِفْظُ لسانه، وإمساكُ عنانه، وصِدْقُ بَيانه» [الحلية: ١٠/ ٦٨].

● الفارسُ هنا بمعنى الحاذق بما يُمارسُ من شأنِ الدِّين والقائم به.

حِفْظُ لسانه كلمتان لا يَتكلَّم إلا بما له عائد، أي ما يعود عليه بالنفع فى شئون دنياه وأُخراه.

● إمساكُ عنانه وهو فى حلبة الأعمال فيُمْسك عنان إرادته إذا كان لغير الله ويُرْسِلُه إذا كان لله أي فلا يقوم بعَمَلٍ إلا إذا كان مُوافقا لشَرْع اللهَ.

● وصِدْقُ بيانه إذا علم شيئًا عمل به.. أي انتفع بما علم وطابق فِعْلُه قوله، ولا يقول إلا حقًا.

***

٣٣٦ - «من تأدب بأدب الله تعالى صار من أهل محبة الله تعالى» [الرسالة: ٢٢١].

● أدب الله تعالى هو شرعه القويم وسراطه المستقيم، فمن تخلق به كان من أهل محبة الله، وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: «كان خلقه القرآن» فلقد كانت حياته صلى الله عليه وسلم التطبيق العملى للقرآن الكريم فكأنما هو قرآن يمشى على الأرض، ولذا استحق لقب الحبيب، فهو أحب خلق الله إلى الله وأكرمهم عليه.. وقد قال تعالى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١] ومن أحبه الله كان من أهل خاصته .

من الأدب فى تأدية الطاعات:

١ - إخلاص النية لله وحده، والمسارعة إلى الطاعة فى وقتها.

٢ - ستر الطاعة ما أمكن عن العيون إلا إذا كان القصد أن يكون العمل دافعًا للغير وقدوة لهم.

٣ - عدم التحدث للناس بما تم من أعمال فى غيبتهم إلا إذا كان القصد الحث على التأسى.

٤ - يستقل العمل، ولا يستعظمه فى حق الله تبارك وتعالى.

٥ - لا يفرح بما قام به من طاعات، بل يحمد الله أن وفقه لذلك.

٦ - لا يطلب بعمله العوض من الله، فعمله لا يكافئ أن هداه الله إلى مرضاته وأقامه الله فى طاعته.

٧ - الإكثار من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم وخاصة دبر كل صلاة مكتوبة أو نافلة «اللهم أعنِى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» ويستغفر الله لما يعلم ولما لا يعلم ويرجو من الله القبول.

***

٣٣٧ - «إذا ترك العارف أدبه مع معروفه فقد هلك مع الهالكين [الرسالة: ٢٢١]

● بالأدب، فى تأدية الأعمال بعد النية تزكو الأعمالُ ويترجحُ قبولُها، قال تعالى ﴿ ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢] والعملُ القليل مع أدب كثير خير من عمل كثير يفتقر إلى الأدب، وهذا ما نلحظه فى معاملاتنا فى حياتنا اليومية حتى قال بعض الصالحين : ليكن عملك ملِحاً، وأدبك دقيقًا أى أن نسبة العمل إلى الأدب كنسبة كمية المِلح إلى كمية الدقيق فى عجين الخباز.

● ومن وصل إلى الله عن طريق الأدب التزم بوسيلته الموصلة وحرص عليها، وإلا طرد من معيته، هل رأيتم رجلاً لكفاحه واخلاصه وأدبه ضمه السلطان إلى حاشيته، هلى رأيتم هذا الرجل يفرط فى منزلته بالميل إلى الدعة والكسل وسوء الأدب، ولو فعلها لخاب وخسر وطرده السلطان من معيته، وقالوا: إذا كان الوصول إلى القمة صعباً، فإن البقاء فيها أصعب.

***

٣٣٨ - «إنما ينبسطون إليه بِقْدرِ منازلِهم لديه» [الحلية: ١٠/ ٥٣]

● الانبساطُ هنا بمعنى تركُ الاحتشام ويقول الحكيم الترمذى فى كتاب معرفة الأسرار له: الانبساط على وجهين:

أولا: انبساط الأنبياء، وينبسطون على الله تعالى،وليس ذلك من حَظٌ نفوسهم، ولا حظ دنياهم إنما هو لأجل الله تعالى.

ثانيا: انبساط الأولياء، ولا ينبسطون إلا بإذن مع الحذرِ، وليس لأنفسهم فيه حظٌ، والأول أَجَلُّ،

ونسوق مثالا مما ذكره الحكيم من حياة الجُريْرى وتعبده: قال الجريرى: منذ عشرين سنة ما مددتُ رجلى فى الخلوة، فإن حسنَ الأدب مع الله تعالى أوْلى، فإنْ قيل: فقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُمُدُّ رجلَه في الخلوة، وكان أحسنَ العالَمين أدَباً، قلنا (والكلام للجريرى) شأنُ أهلِ المعرفة أبْسطُ وأوْسَعُ من شأن أهلِ العبادة، ولكن لا إنكار عليهم فى تضيقهم على أنفسهم، لأن ذلك مُقْتَضَى أحوالِهم، وقد قال عليه السلام «لو تعلمون ما أعلم لبكيتُم كثيراً ولضحكتُم قليلاً، ولخرجتم إلى الصُّعُداتِ تجأرون إلى الله تعالى»: (صحيح الجامع الصغير) وفى رواية بزيادة «لا تدرون تنجون أو لا تنجون» وهو عليه السلام لم يفعل ذلك، وأخبر أنهم لو تمت معرفتهم لفعلوه.

***

٣٣٩ - «تَرَى الخَلْقَ مُتعلِّقِينَ بالأسباب، والعارفُ مُتعلِّقٌ بولَيِّ الأسباب، إنما حَديثُه عن عَظَمَةِ الله وقُدْرَتِه، وكَرَمِه ورَحْمَتِه، يحترف بهذا دَهْرَه، ويَدْخَلُ به قَبْرَه» [الحلية: ١٠/ ٥٧].

• سُنَّةُ الله -جل وعلا - فى كَوْنِه والتى لا تتبدل ولا تتغير أن جعل لكل شىء سبباً، فقد قعّد القواعدَ فى تفاعل عناصر الكون بعضها مع البعض الآخر، وفى تفاعل الإنسان معها حيث إنه محْوَرُ الحياة على الأرض.. هذه الأسباب الظاهرة ليست هى كُلَّ شىء.. بل هناك سببان آخران هما كل شىء: مَشيئةُ الله، ووَقْتٌ قَدَّره اللهُ.. فمثلا: الدواء يكون سَبباً للشفاء إذا أراد الله للمريض الشفاء، وفى الوقت الذى قدره الله.. فالأسباب الظاهرة لا تتفاعل بعيداً عن قيُّومية الله وسُلْطانه، فنارُ النمروذ لم تحرق إبراهيم عليه السلام كما أراد النمروذ، ولكنها صارت برداً وسلامًا كما أراد ولىُّ الأسباب، والمُهيمنُ عليها.

• والناسُ فى النظر إلى الأسباب وفي التعامل معها ثَلاثةٌ

قَوْمٌ لا يَرَوْنَ سِوى الأسباب فلا إلهَ ولا مُسَبِب سِوى أنْفُسِهم والدهر، وهؤلاء هم الدَّهْرِيُّون.

وقوم قالوا إن الله وضع فى كل شىء خاصيته وطبعه وتَرَكه يَفعل ويَتفاعَلُ بَعيداً عن قيوميَّة الله وهم الطبعيون.. وهذا رأىٌ ضال مُضِلٌّ.

والقولُ الصحيحُ والعَقيدةُ السليمةُ أن الأمور متعلقة بثلاثة أشياء سبب قدره الله ومشيئة الله ووقت حدده الله، فمَن وقف عند الأسباب كانت حجاباً له عن الله، حتى قالوا: لولا أن الله شرع الأسباب لأعددناها نَوْعًا مِن الكُفْرِ.. ولذا نرى العارف بالله وبأمره يكون تعلُّقه بولى الأسباب،

يَلْهَجُ لِسانُه بعظمة الله وقدرته وخضوع كل شيء لإرادته، وذلك من كرمه على خَلْقه ورحمته بهم، ويظل هذا دينه وديدنه حتى يَلْقى ربَّه.

***

٣٤٠ - «من صِفة العارف: جِسْمٌ ناعِمٌ، وقَلْبٌ هائِمٌ، وشَوْقٌ دائِمٌ، وذِكْرٌ لازم» [الحلية: ١٠/ ٥٧].

• جِسْمٌ عليه جَلالُ الصالحينَ وما أَحْسَنَ سَمْتَهم وقلب هائم بحب سيده، وشوق دائم إلى لُقْياه «ومَن أَحَبَّ لقاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لقاءَه» ولسان وقلب لا يفتران عن ذِكْرِ الله؛ وسُئِل الشبلي عن العارف فقال: لِسانهُ بِذِكْر الله ناطِقٌ، وقَلْبُه بمَحبةَّ الله صادقٌ، وسره بموعود الله واثق، فهو أبداً على الله عاشق.

***

٣٤١ - «لو لم تكُنْ للعارِفينَ إلا هاتان النِّعْمتانِ لكفاهم:

متى رجعوا إليه وَجَدُوه، ومتى ما شاءوا ذَكرُوه» [الحلية: ١٠/ ٥٧]

• النعمة التي لا تُماثلها نعْمةٌ بعد الإيمان بالله في نظر العارف بالله هي ذكْرُ الله وعبادة والحمد لله قد يَسَّرَ الجوارحَ لطاعته بعد أن هداهم إليه بمحبته ولكن.. قد يقع العارفُ في الذَّنْب وكان أمر الله قدراً مقدوراً - ووقوعه في الذنب قد يترتب عليه حَسَنَاتٌ أكبرُ من الذنب وأكثر من انكسار وخشية وذل وندم وتوبة وفعل حسنات يمحو به السيئة، حتى لَيَنْدَمُ الشيطانُ على إيقا في الذنب حين يرى ما عاد على العارف من حسنات وخيرات إثر وقوعه في الذنب، ويقول: ليتني لم أُوقعه فيه.. يَعلم العارفُ هذا من ربه متى شاء ذَكره ومتى رجع إلى الله تائباً وجده تو رَحيمًا.. والعارفُ سعيدٌ بهاتين النعمتين أيّما سعادة.

***

٣٤٢ - «مَن لم يَكُنْ ظاهِرُه مع العَوامِّ فِضّةً، ومع المُريدينَ ذَهَبًا، ومع العارفينَ المقرب دُرًا وياقوتًا فليس من حكماء الله المؤيَّدينَ كما وردت «المريدين»» [الحلية ١٠/ ٦٩]

• قال ابن عربي: الولايةُ هى الفَلَكُ الأقْصَى، مَن سَبحَ فيه اطَّلَعَ، ومَن أطلع عَلِمَ، ومَن علم تَحَوَّل فى صورة ما عَلِمَ فذلك الولىُّ المجهولُ الذى لا يُعرف، والنَّكرة التى لا تَتعرَّفُ، لا يتقيد بصُورةٍ، ولا تُعرَف له سَرِيرةٌ يلبس لكلِّ حالة لبُوسَها، إما نعيمها وإما بوسها.

يَوْمًا يَمانٍ إذا لَقِيتَ إذا لَقِيتَ ذا يَمَنٍ ... وإن لقيت مَعَدِّيًا فعدنان

«إمعة لما فلكه من السعة»لأن فيه ما يناسب الجميع، ويتعامل مع كل أحد حسب مستواه.

***

٣٤٣ - «إذا عملوا على الصِّدْقِ انطلقت ألسنتُهم على الخلق بالشِّدَّة وإذا عملوا فى التفويض انكسرت ألسنتهم عن الخلق مَبهوتينَ.. فالأول مِن صفة الزاهدين، والثانى من صفة العارفين» [الحلية: ١٠/ ٦٧]

• الزاهد يأخذ نفسه بالشدة، فإذا وعظ الناسَ أرْغَى وأزْبَدَ ووَعَدَ وتَهَدَّدَ يُحذِّرُ الناسَ من عقابِ الله وشدَّة عَذابه.. أما العارفُ إذا نصح فامتثالاً لأمر الله تعالى فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد غلبه التفويض فيتكلم في رحمة الله ومغفرته والرجاء وحُسْنِ الظَّنِّ بالله..

***

٣٤٤ - «أفواهُ الرجال حَوانيتُها، وشفاهُها مَغاليقُها، وأسْنانُها مَخالبُها، فإذا فتح الرجلُ باب حانوته تبَيَّنَ لك العَطّارُ مِن البَيْطارِ» [الحلية: ١٠/ ٦٠]

• ....

***

٣٤٥ - «أبناءُ الدنيا يَجدون لَذَّةَ الكلام، وأبناءُ الآخرة يجدون لَذّة المَعانى» [الحلية: ١٠/ ٦٣].

• أبناء الدنيا يجدون لذة الكلام تَحدُّثًا أو سَماعاً.. إما يتحدثون عن أمجادهم أو إظهاراً لتنوع خبراتهم لسَعة علمهم أو إطلاعهم على بواطن الأمور، وسَماعاً إذا كان المتحدث يُزَوِّقُ كلامه مادحًا لهمُ أو يَنِمُّ عَلى الناسِ ويَغْتابُهم وفى غير هذه الأحوال يكون الكلام ثقيلاً والمتحدث مملاً لمَن يَسمعُه.

أما أبناء الآخرة يجدون لذة المعانى، والمعانى هى الصفات الحميدةُ التى يَسعى الإنسانُ للتخلُّق بها، والمعانى.. أيضًا - هى ما يَتجلَّى به الحقُّ من أذواق على قلب عبده المؤمن الذى أكْمَلَ شَرائطَ الإيمان وأَحْكَمَها وهى المظاهر القدسية للأسماء، وهى لَيست بصورة حتى تتقيد وتتحيز، والعلم بها ليس بعلم، كما قال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه: العجز عن درك الإدراك إدراك. وأَوَّلُ هذه المعانى ومَبادئها السَّكينةُ التى متى حلت فى القلب سكنت النفسُ لما حصل فيها من طلب أمْر ما، وانقطعت عنها الأفكار، التى تتَعارض مع ما حصل فى نفسه، كمن سكنت نفسه إلى رزق يومه وقد صار فى حَوْزَته، هل يشغل بالهَ شيءٌ بخصوصه.. كما أن هذه السَّكينة تجعل القلبَ يتقبَّل الإيمانَ بأى أمر مغيب يرد عليه بعد ذلك.

***

٣٤٦ - «الولَىُّ رَيْحانُ الله فى أَرْضِه، يَشُمُّه الصِّدِّيقون، فتصل رائحتُه إلى قلوبهم، فيشتاقون إلى مولاهم، ويزدادون برؤيته عبادةً» [طبقات الشعرانى ١/ ١٨٢]

• الصِّدِّيق: الذى يصدق قولَه بالعمل وهو الذى يعرف به الولىَّ من غيره، فيأنس به وأنه يُذكرهم بمولاهم فيشتد شوقهم إليه ويقبلون على العبادة من صلاة وذِكْرٍ رَجاءَ الوصول، وقُدْوتُهم فى ذلك الولىُّ الذى شَمُّوا منه رائحة الخير الذى يَعْمُرُ قَلْبَهَ وأثَّرَ فيهم بِهمته فسلكوا طريقَ مَوَدَّته.

***

٣٤٧- «من عَلامة المُريد: الرضا بالقضاء، والثقةُ بالوعد، والعملُ بالإخلاص والشكرُ علَى البَلاء، والتوبةُ مَن كُلِّ ذَنْب، وامتحانُ الإرادات» [الحلية: ١٠/ ٦١]

• المريد: وهو مَن أراد الطريق إلى الله، والإرادةُ جَمْرةٌ من نار المحبة فى القلب تبعث على العمل حسب كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ وتطهير النفس من كُلِّ المعوِّقات فى سبيل الوصول إلى الله، والمريد مُريدان أحدهما يريد لقاءَ الله بصدْقه وطَهَارته لينال ثَوابَ جهده وثمرة كفاحه لنفسه وهَواه؛ والثانى: يريد لقاءه بخالص العبودية.. فأعان الأول على مراده لينال ثواب صدقه وجهاده، وفتح للثانى الطريق إليه ووالاه بالعناية والرعاية والتأييد ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فأشرق نورُ المعرفة فى قلبه، وقَوىَ على مُضادة الشهوات، فَزيدَ له فى العطاء، وكلما ازداد لها هجْراناً كلما زيد له فى العطاء وازداد قُرْبًا من الله وعلى المريد فى سعيه فى طريق الله أن لا يغفل عن مراقبة إرادته وتصحيح نيته، وأن لا يركن إلى علمه أو قُوَّته بل يَردُّ الأمْرَ كُلَّه إلى الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]

هذا من ناحية المريد والإرادة، أما بقية العلامات فانظرها فيما سلف من أبواب: الرضا بالقضاء في باب الرضا، والثقة بالوعد في باب حسن الظن بالله، والعمل بإخلاص في باب الإخلاص، والشكر على البلاء في باب الصبر، والتوبة من كل ذنب في باب التوبة .

***

٣٤٨- سئل يحيى عن صفة العارف فقال: «رَجُلٌ داخِلٌ معهم بائنٌ عنهم» [اللمع :٥٨]

• بهذا النص وردت في صفحة ٥٨ من كتاب اللمع. وفي نفس الصفحة وقد سُئل مرة أخرى عن العارف فقال: «عَبْدٌ كان فبان». وفي صفحة ١٧٦ قال: «رجل كائن معهم بائن عنهم».

وبانَ بمعنى ظَهَرَ وبمعنى فارَقَ فيقال فلان بان صاحبَه أي فارَقَه وهَجَرَه فهو بائنٌ. والعارف بالله وبأمره في خلوة وإنْ كان بين الناس، فهو مَشغولٌ بربه عن غيره.. فهو معهم بجسمه مُفارِقٌ لهم بُروحه وقلبه، وتُسمَّى هذه الحالُ بالخَلْوةِ في الجَلْوة، ويسمَّى صاحبها كائناً بائناً. وهي بالطبع غير الخلوة المتعارف عليها؛ وهي اعتزال المريد للناس والتزامه بِذِكْرٍ خاصٍّ وطعامٍ خاص لمدة يُحددها.

***

٣٤٩- «الزاهدون غُرباءُ في الدنيا، والعارفون غُرباءُ في الآخرة» [الحلية : ١٠/ ٩٠] وهي في صفوة الصفوة ٤/ ٩٣ من غير «في» .

• روى أحمد عن ابن عمرو رضى الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «طُوبَى للغُرباء، أُناسٌ صالحون في أناسِ سُوءٍ كثيرٍ، مَن يعصيهم أكثرُ مِمَّن يُطيعهم» .

والغريب تأتي من الغرابة (أي القلة والندرة» كما تأتي من الاغتراب، وفي حال الزاهد في الدنيا أي قليل بالنسبة لمن أقبلوا على الدنيا ينهلون من مباهجها.. والعارف غريب في الآخرة لتميز مستوى تنعمه فهو من أهل الغرفة، قال تعالى في عباد الرحمن : ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥]

وروى أحمد والشيخان والترمذي: «إن أهل الجنة ليتراءون أهلَ الغرف من فوقهم، كما تراءون الكوكب الدُّرِّي الغابر في الأفق من المَشْرِق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» وفي رواية: «وإن أبا بكر وعمر منهم».

***

٣٥٠- «من صفة العارف خصلتان: ألا يُذيع حاله لأحد، ولا يفتش أحد عن حاله» [الحلية: ١٠/ ٦١]

• ولماذا يذيع الناس أحوالهم لغيرهم، إمّا أنَّ هناك ما يفخر به ويطلب الشهرة بين الناس بإعلانه ، أو أن في حياته مُشكلة لا يجد لها حَلاً، فيحكيها لِمَنْ هو أَقْدَرُ منه على حلها، وكلا الأمرين غير حاصل؛ فالعارف لَا يُرائي ولا ينافقُ، كما أنه ليست لديه مُشكلةٌ، كما أن مرجعه إلَى الله في كل أمْر.. وَفوق هذا كله أن العارف لاَ يرى غير الواحد الأحد، فكيف يذيع حاله لأحد.. وأسرارُ العارفَ يجب سَتْرُها إلا على أهلها خَوْفًا من شيئين: سوء الفهم، فقد تفهم على و جه غير المقصود منها، أو خوف الافتتان، ولذا نرى الجُنَيْدَ رحمه الله يعلّق على كشف الحَلاّج لِسرِّ نفسه: «لقد فضحنا الحَلاّجُ» ، وقال الشهاب السهروردى من قصيدة له في التصوف:

وارحـمـتـاً لـلـعـاشـقـينَ تَكـلَّفُـوا   سِـتْـرَ الْـمَحَـبَّـةِ، والهَـوَى فَـضّـاحُ
بالـسِّـرِّ إنْ بـاحُـوا تُبـاحُ دِمـاؤُهُمْ   وكَـذا دمـاء الـعـاشِـقـينَ تُبـاحُ

وكأنما كان السهروردى يَنْعَى نفسه، فما لبث حتى اتهمه عُلماءُ حلب بالتَّعْطيلِ، والتعطيل نفيُ جميع الصفات عن الذات الإلهية ويُقابله التشبيه» وأفتى علماؤها بإباحة دمه واستجاب الملك الظاهر الأيوبى لهم فأمَرَ بقتله ٥٨٧هـ، ١١٩١م .

• ولا يفتش أحد عن حاله، فظاهره واضح لا يدعو إلى التفتيش؛ فهو كإنسان يأكل ويشرب وينام ويتزوج ويعمل، وكـمُسْلِم فهو تقيٌّ وَرِع، مُلازمٌ للذِّكْر، مُلازمٌ للصَّمْت إلا لضرورةٍ، رَحيمٌ بِمَن حَولَه حَليمٌ، لكنه صاحبُ غَيْرة شَديدة على مَحارِم الله أن تنتهك هذا ظاهره، أما باطِنُه فعلْمُه عند ربه ولا سبيلَ إلى التنقيب فيه.

* * *

٣٥١ - «العارفُ إذا ذَكَر ربه افتخر، وإذا ذكر نفسه افتقَرَ واحتقر» [اللمع / ٤٧٨]

• العارف قد انمحت رُسُومه، وفنت هويته، فهو غائبٌ عن نفسه لاستيلاء ذِكْر الحَقّ على قلبه، فهو لا يَشهد غيره ولا يَقصد سواه؛ فإذا ذكر نفسه أعلنَ افتقاره إلى سيده ورجع سريعًا إليه، أما إذا ذكر ربه افتخر بصفات معروفه، فهو متواتر الأحوال بحكم الأسماء، ولله دَرّ شاعرهم:

قَـومٌ تَـخَلَّلَـهُمْ زَهْـوٌ بِسـيِّـدهِمْ   والعَـبْـدُ يزهُو عَلَى مِـقْـدارِ مَـوْلاهُ
تاهُـوا برؤيتِـهِم عَـمّـا سِـواهُ لَهُ   يا حُـسْنَ رُؤْيَتـهِم فـى حُسْنِ مـا تاهُوا

* * *

٣٥٢ - «أهلُ المعرفة وحُوشُ الله فى الأرض» [الحلية: ١٠/ ٦٠]

هكذا وردت وجاء فى الحلية فى أثرها:

لا يأتنسون إلى أحد وفى غيرها «لا يستأنسون بالناس فى الدنيا» وأرجح أن ما جاء فى الحلية أو فى غيرها فى هذه العبارة من كلام شيخنا يحيى بن معاذ وتكملة لعبارته. وتُعَدُّ بمثابة شرح لصَدْر العبارة فهم كالوحش فى البَرِّيَّة لا يألَفُ الناسَ ولا يساكنهم بالطبع الغَرَزِيّ فيه بينما العارفُ لا يَستأنس بهم لأنسه بربه وإنْ كان يجالسهُم بجسمه، وقالوا: «إنّ من علامة الإفلاس الأتئناس بالناس»، وقد استشهدنا قبلاً فى مثل هذا ببيتى رابعة التى تقول فيهما:

إنى جعلتك فى الفؤاد مُحدِّثى وأبحتُ جسْمى لمن أراد جُلوسى

والجسمُ منِّى للحبيب مؤانسٌ وحبيبُ قلبى فى الفؤاد جليسى

وفى عبارة شيخنا: قَصَر عدمِ الأتئناس بالناس على الدنيا. أمّا الآخرة فإن الأمر يختلف.. فإنهم فى جنات النعيم على سُرُرٍ متقابلينَ.

* * *

٣٥٣ - «الزاهدُ سَيّار، والعارفُ طَيّار» [اللمع/ ٤٦٥، ٤٤٢ نسبها الطوسى إلى يحيى بن معاذ بينما نسبها القشيرى فى الرسالة ٢٤٤ إلى أبى يزيد]

- هناك فَرْقٌ فى السُّرعة بين السَّيْر والطيران، وكذلك بين الزاهد والعارف فى الإنتقال بين المَقامات والأحوال؛ فالعارفُ يَطير والزاهد يسير، فالعارف أسرع وأمضى فى قصده إلى مطلوبه من الزاهد الذى يشغله بعضَ الشىء مأكَلُه ومَشْرَبُه.

- وما الحالُ؟، وما المَقامُ؟..الحالُ: مَعنًى يَرِدُ على القلب من غير تَعمُّد ولا اكتساب؛ كالرضا والسرور والألم والتفويض والحزن وغير ذلك من الأحوالِ فيتبدل حَال القلب، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] وهذا الحال سريعًا ما يزول.. وقال آخرون: الحال: ما يحل بالأسرار «أى القلب» من صَفَاء الأذْكار، ولا يزول، فإن زالَ لا تكون حالاً.. والمَقامُ: هو إقامة الرجل بظاهره وباطنه فى حقائق الطاعات مثل مقام الصابرينَ والمتوكِّلينَ وهى مَكاسبُ حصل عليها المَريدُ فى رحْلة فراره إلى الله جَلَّ وعَلا.. فإذا أقام فى شىء من هذه المَقامات فهو مَقام حتى يَمُنَّ الله عليه ويَنتقل إلى مَقامٍ آخَرَ حتى يَصِلَ إلى مقام الفَرْدانيَّة «التوحيد».

* * *

٣٥٤ - «العارفُ قد يَشتغل بربه عن مفُاخَرَة الأشْكال ومَجالسِ العَطايا، وعن مَنازَعة الأضداد فى مَجالسِ البَلايا» [الحلية: ١٠/ ٥٨].

● قال الحكيم الترمذى: «مَن يَعمل الأشياء بإذن الحَقّ جَلّ جَلالُه فعلامته أن تجيئه الأشياءُ والأشكالُ مع الطواعية والرضا، والأضدادُ على الكراهة» فلا يفاخر ولا ينازع.

* * *

٣٥٥- «من صفة العارف شيئان: ما مضى وما كان، وفيما هو، وما أعلم، وكيف أعمَل، وبعده ما يكون، فكيف تكون هذه الثلاثة الأيام: أمْسِ واليوم وغداً، قد زال عن قلبه عجب عمله، ولازمه خَوْفُ ذَنْبه» [الحلية: ١٠/ ٥٧].

● يُراقب العارفُ نفسه ويحاسبها.. هل ما قدم فى أمسه قُبِل؟ وماذا يفعل اليوم حسب ما يعلم؟ وكيف يكون غده؟.. فقد لازمه خوف ذنبه، وزال عنه عجبه بعمله، فجلس مهموماً، ماذا يكون مصيره؟!

* * *

٣٥٦- سُئل يحيى بن مُعاذ: متى يعلمُ الرجلُ أنه قد أصابَ الطريقَ وأَمِنَ هذا الخَلْقَ؟ قال: إذا استحلوه واستمرأهم، وأَحبُّوا لِقاءَه، وكَرِه لقاءَهم» [الحلية: ١٠/ ٥٢].

● أصاب الطريق أى طريق الله - وكان ذلك فى بداية أمره - فإذا استثقل اجتماعه بالناس وأحبَ الناسُ اجتماعَهم به.. فقد أقبل على ربه وصح عزمه وأمضى إرادته.

* * *

٣٥٧- العارفُ يَخرجُ مِن الدنيا ولا يَقضِي وَطَرَه من شيئين:
بُكاؤه على نفسه، وثناؤه على ربِّه [طبقات ابن الملقن: ٣٢٤].

● بعد أن عرف الرجل ربه بجلاله وجماله وكماله، وأنه سبحانه ما عبده الخلقُ حق عبادته.. يخرج من الدنيا ولم يقض وَطَرَه من شيئين: بكاؤه على نفسه لتقصيرها فى حق سيده؛ وثناؤه عليه بقدر استحقاقه، وهذا لا يكون.

* * *

٣٥٨- «ما دام العَبْدُ يتعرف يقال له: لا تَخْتَرْ فإنك لست بأمين فى اختيارك حتى تعرف. فإذا عرف يقال له: إنْ شئتَ فاختر، وإن شئتَ فلا تختر، فإنك إنْ اخترتَ فبنا اخترتَ؛ وإنْ تركتَ اختيارك فباختيارنا تَركتَ، فأنت بنا فيما تَختارُ وفيما لا تختارُ». [اللمع: ٤٢٩].

• الاختيار هو تَفضيلُ شيء على غيره لما يُحقِّقُه من نَفْعٍ أو لَذَّة أو سَعادة، ولا يكون الاختيارُ دقيقًا إلا بَعْدَ مَعْرفة بمزايا الأشياء التى يُفاضِلُ بينها ويختار منها. فإذا عرفَ المريد يقال له: اترك الأمر لنا، فقد صرتَ فى معيتنا.. فاشغل نفسك بما هو مطلوب منك من أمور الشرع واترك غيرها لتدبيرنا. فأنت إن اخترت أو تركت فبنا فيما اخترتِ أو تركت.

يُروى عن الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما قوله: من اتكل على حسن اختيار الله له، لم يَتَمنَّ أنه فى غير الحالة التى اختارها الله تعالى له.

* * *

٣٥٩- «إذا رأيتَ الرجُلَ يُشير إلى الآيات والكَرامات، فطريقُه طريقُ الأَبدال، وإذا رأيتَه يشير إلى الآلاء، فطريقه طريق أهل المحبة وهو أَعْلَى من الذى قَبْلَ؛ وإذا رأيته يشير إلى الذِّكْر، ويكون مُعَلَّقًا بالذِّكْرِ الذى ذَكَره، فطريقه طريق العارفين، وهو أَعْلَى درجة مِن جميع الأحوالِ» [اللمع: ٤٠٣].

• البدَلُ: مَرْتَبةٌ من مراتب الأولياء عند الصوفية وهم سبعة رجال لا يُسافِر أَحَدٌ من مَوْضعه إلا ويَترك فيه بدلاً منه جَسَدًا فى صورته، ولو أُوذِىَ هذا البدلُ بأى صورة مِن صور الإيذاء ما تأثر الأَصْلُ بشىء مِن ذلك.. ولنا فى قصة نبى الله عيسى عليه السلام فى يومه الأخير على الأرض خَيْرُ مِثال.

وإذا رأيتَ الرجل يدعو إلى الله بالكرامات فطريقه طريق الأبدال، وإذا رأيتَه يدعو الناسَ إلى الله مُذكِّرًا لهم بنعمه وآلائه عليهم، فطريقه طريق أهل المحبة، وإذا رأيته يدعوهم إلى التعرف إلى الله عن طريق الذِّكْرِ، فطريقه طريق العارفين.

* * *

٣٦٠- «تَضاحكت الأشياءُ إلى أولياء الله العارِفينَ بأفواه القدرة عن مَليكهم، لِما

يرَون فيها، ويُعاينُونَ من بدائع خَلْقه معـها، فلهم في كل شيء مُعْتَبَرٌ، وعند كل شيء مُدَّكَرٌ» [الحَلية: ١٠/ ٥٤].

● يقول الشاعر:

ولــه فـــي كـــل شـــيء آيــة ... تــدل عــلى أنــه الـواحــــــد

فآيات الله في الكون ناطقة بعظمته وجلاله وقدرته وحكمته يرون فيها ما لا يراه الغافلون، حتى قال بعضهم: لا أرى شيئًا إلا رأيت اللهَ قبله، ويقول شاعرهم:

قلـوب العــارفــين لـهــا عــيــون ... تــرى مــــا لا يـراه الـنـاظـرون

وقال آخر:

إذا سكـنَ الغــديرُ عـلى صــفــاء ... فــيـشـبــه أن يـحـركــه النســيمُ

بدت فــيــه الســمــاءُ بلا مــراء ... كــذاك الشــمسُ تبــدو والنجــومُ

كــذاك قلـوبُ أربابِ التَّــجلي ... يُرى فـي صــفــوها الـلهُ الـعظـيمُ

* * *

٣٦١- «إذا اصطفاهم لـنفسه، وأمْكنَهم مِن أُنْسِه، حَجَبَهم عن خَلْقـه با لمعروف مِن رِفْقة» قيل: وكيف يحجبهم؟

قال :«يحجبهم عن أبناء الدنيا بأسْتارِ الآخِرة، وعن أبناء الآخرة بأستار الدنيا [الحلية: ١٠/ ٥٩].

● السِّتْرُ: تَغْطيةٌ لعلّة.. وإذا اصطفَى الله جَلَّ جلاله قَوْمًا لنفسه، وأمكنهم مِن أُنْسه، حَجَبَهم عن خَلْقه بالمعروف مِن رِفْقه؛ فهو اللطيف بعباده الرحيم بهم.. فهو يحميهم مِن الوقوع في الذنوب بِأنْ يَحْجُبُها عنهم، ويُبعدَهم عنها؛ فلا تخطر على قلوبهم، وبهذا يكون قد حجبهم عن أبناء الدنيا بأستار الآخرة.. كما أنهم إذا اختلفوا إلى المَعاصي - وكان أمرُ الله قدرًا مقدورًا - حجبهم عن أبناء الآخرة بأن أرْخَى عليهم سِتْرَهُ الجميلَ فلم يرهم أحَدٌ ساعةَ ارتكابهم المَعْصيةَ، فلا يفتضح أمْرُهم.

* * *

٣٦٢- «الدَّرجاتُ التى يَسْعَى إليها أبناءُ الآخرة سَبْعٌ : التَّوْبَةُ، ثم الزُّهْدُ، ثم الرضَّا، ثم الخَوْفُ، ثم الشَّوْقُ، ثم المحبة، ثم المعرفة؛ فبالتوبة تَطهَّروا مِن الذُّنوب، وبالزهد خرجوا من الدنيا، وبالرضا ألبسوا أَقْراطَ العُبودِيَّة، وبالخوف جازوا قَناطرَ النار، وبالشوق إلى الجنة استَوْجَبُوها، وبالمحبة عَقَلُوا النَّعيمَ، وبالمعرفة وَصَلُوا إلى الله، وهو... ولا يزالون فيه أبد الآبدين فى الدنيا والآخرة» [الحلية: ١٠/ ٦٤].

• يقصد شيخنا يحيى بالدرجات: المَقامات، وأنها سبع وهذا العدد مُتَّفَقٌ عليه بين مُعظَم القوم، إلا أن الاختلاف فى تحديد المَقامات والأحوال، فما يَراه بعضُهم مَقامًا يَراه بعضُهم حالاً؛ فمثلاً عند الطوسى المقامات بالترتيب هى: التوبة ثم الورع ثم الزهد ثم الفقر، ثم الصبر، ثم التوكل، ثم الرضا، ثم ذكر المحبة والخوف على أنهما من الأحوال؛ وأقراطُ العبودية: رَمْزُ الخضوع، وهى فى الحلية قرائط. ولعلها تصحيف.

كما أن مكان النقط :«وهو فى البحر السابع» هكذا فى الحلية.. أى أنهم تحققوا بالمعرفة بالله عندما وصلوا إلى المقام السابع وهو مقام المعرفة بالله.

* * *

مكررة- «ليس بعارِفٍ مَن لم يَكُنْ غايةَ أَمَلِه مِن ربه العَفْوُ».

• وردت فى الباب الثامن، باب التوبة رقم ٩٣.

* * *

مكررة- «الزاهِدُ صافِى الظاهر مُختلِطُ الباطِنِ، والعارِفُ صافى الباطن مختلط الظاهر»

• وردت فى الباب السادس عشر باب الزهد رقم ٢١١.

* * *

مكررة- «الزاهِدُ فى عَرَضَ الدنيا، والعارفُ فى الآخرة».

• وردت فى الباب السادس عشر باب الزهد رقم ٢١٢.

* * *

٣٦٣- «أهلُ الرغبة صيدُهم فى الأسواق، وأهل التوبة صيدهم فى مجالسِ الذكر، وأهل الزهد صيدهم فى مجالسة العارفين، وأهل الإرادة صيدهم فى ملكوت العرش، وأهل المعرفة صيدهم فى قرب خالق العرش وأنشد:

حَسُن عبدٌ أحب مولاه ... وحسن قلبٌ يصيد معناه

طوبى لمن كان عاشقًا دَنِفا ... يشكو إلى ذى الجلالِ بلواه

يا ذا المعانى عليك مُعْتمدى ... طوبى لمن كنتَ أنت معناه

(علم القلوب: ١٤٠)

● ....

● وختامًا فى الكلام عن العارف وجدت فى كتاب الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية لابن عجيبة الحَسَنى، وجدت موازنة لطيفة بين العالم والعارف رأيت أن أرصد بعضها فى نهاية باب الرجال لعلنا نزداد معرفة بهم..

١- العالم دون ما يقول، والعارف فوق ما يقول.

٢- العالم (إن لم يكن عاملاً) فهو محجوب، والعارف محبوب.

٣- العالم من أهل البرهان، والعارف من أهل العيان.

٤- العالم من أهل قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والعارف من أهل قوله تعالى ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٥- العالم يدلك على العمل، والعارف يخرجك عن شهود العمل.

٦- العالم يحملك حمل التكليف، والعارف يروحك بشهود التعريف.

٧- العالم يدلك على الأسباب، والعارف يدلك على مسبب الأسباب.

٨- العالم يحذرك من الشرك الجلى، والعارف يخلصك من الشرك الخفى.

٩- العالم يدلك على العمل لله، والعارف يدلك على العمل بالله.

١٠- العالم يعرفك بأحكام الله، والعارف يعرفك بذات الله.

١١- العالم يدلك على العمل خوفًا وطمعًا، والعارف يدلك على العمل محبة وشكراً.

***

الباب الخامس والعشرون

دُعاءٌ – ومُناجاةٌ

قال شيخنا يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله تعالى فى الدعاء:

١- لا تَستبطِىءِ الإجابةَ إذا دَعَوْتَ وقد سَدَدْتَ طُرقاتها بالذُّنوب وأكْلِ الحَرام.

٢- إنْ لَقِيَنى القَضاءُ بكَيْد من البلاء لَقِيتُ القضاءَ بكيد من الدُّعاء.

٣- طَلَبُك منه الرِّزْقَ اتهامٌ له فيما قَدّر مِن إيصال مَنافعه إليكَ، وطلبك قُرْبَه يَدُلُّ على غَيبَتكَ عنه، إذ أن الحاضِرَ لا يُطْلَب.

وطلُبكَ لعطاياه (من أمـور الدنيا أو المقـامات والأحـوال) لِقلّةِ حيـائك منه، وطلبُك مِن غـيره لبُعْدِك عنه، فلو كُنتَ قريبًا منه ما شَعرتَ بوجودِ غيره.

• قال شيخنا يحيى بن معاذ فى المناجاة:

١- إلهى أحْلَى العَطايا فى قلبى رجاؤكَ، وأعذبُ الكلام على لِسانى ثَناؤكَ، وأحَب الساعات إلىّ ساعة يكون فيها لقاؤك.

٢- يَكاد رَجائى لك مِن الذُّنوب يَغلبُ رَجـائى لك من الأعمال؛ لأنى أجدُنى أعتمـد فى الأعمال على الإخلاص، وكنت أحررها (أى النية)، وأنا بالآفات مَعروفٌ، وأجدنى فى الذنوب أعتمد على عَفْوِكَ، وكيف لا تغفرها، وأنت بالجُودِ مَوْصُوفٌ.

٣- إلهى ما أكـرمَك، إنْ كانت الطاعـات فأنت اليوم تَـبْذُلُها، وغَـدًا تَقْبَلُهـا، وإنْ كانت الذنوب فأنت اليوم تَسترها، وغدًا تَكشفُها.

٤- إلهى كيف أنساكَ، وليس لى رَبٌّ سواك.

٥- إلهى لا أقول: تبت ولا أعـودُ، لِما أعرف مِن نفـسى نَقْضَ العُهود، ولكنى أقـول: لا أعود، لا أعود، لعلى أموت قبل أن أعود.

٦- إلهى كيف أفرحُ وقد عصيتُك، وكيف لا أفرح وقد عَرفْتُك.

٧- إلهى كيف أُحِبُّ نَفْسى وقد عصيتُك، وكيف لا أفرح وقد عرفتك.

٨- إلهى كيف أدعوكَ وأنا خاطِىءٌ، وكيف لا أدْعُوكَ وأنتَ كَرِيمٌ.

٩- إلهى إنْ غفرتَ لَخيرُ راحِمٍ، وإنْ عَذَّبْتَ فغيرُ ظالِمٍ.

١١- إلهى ذَنْبى إلى نفسى فـأنا معناه، وحبِّى لك هو لك فـأنت مَعناه، والحب أعتقـده لك طائعًا، والذَّنْبُ آتيه كارهًا، فهب كراهيةَ ذَنْبى لِطَواعيةَ حبِّى، أنت أَرْحَمُ الراحمينَ.

١٢- إلهى إنْ لم تَرْحَمْنى رَحْمَةَ الكرامة عليك فارحمنى رحمةَ الإيقاع إليك.

١٣- إلهى بكرمك غداً أَصِلُ إليك، كما بِنَعْمتكَ دلَّلْتَ اليوم عليك.

١٤- جسم مـعيوب، وقلب معـيوب، وخُلقٌ معيـوب، ودار معيوب، أفـتطالبنى أن أُخرِجَ مِن بين هؤلاء المعيوبين عَمَلاً لا عَيْبَ فيه، وعِزَّتك لا أقدر على ذلك إلا بعَوْنك، فأَعِنِّى.

١٥- إلهى، ضمن أعمالى غنيمةَ عُقباها، وامنح نفسى لذاذة دينها.

١٦- إلهى، إن أعرضت عنا بوجهك الكريم، استعطفناك بقول «لا إله إلا الله».

١٧- واسَوْأتاه منك إذا شاهدتنى وهمتى تسبق إلى سواك، أم كيف لا أضنى فى طلب رضاك.

٨- إلهى، حجتى حـاجتى، وعدتى فاقتى، ووسـيلتى إليك نِعمتُك علىَّ، وشَفِيـعِى إليك إحسانُك إلىّ.

٩- اللهم إنْ كان ذَنْبى قد أَخافَنِى، فإنَّ حُسْنَ الظن بك قد أجارنى.

٢٠- اللهم سَتَـرتَ عَلَىّ في الدنيا ذُنوبًا أنا إلى سترها فى القيـامة أَحْوَجُ، وقـد أَحْسَنْتَ بى إذا لم تُظهِـرْها لِعِصـابةٍ مِن المُسْلمِـينَ، فـلا تَفْضَـحنى فى ذلك اليـوم على رءوس العـالمين يا أرحم الراحمين.

٢١- اللهم لا تجعلنى ممن يدعون إليك بالأبدان ويهربون منك بالقلوب.

٢٢- يا أكرم الأشياء علينا، لا تجعلنا أَهْوَنَ الأشياء عليك.

٢٣- إلهى، معرفتى بك دَليلٌ عليك، ومَحبَّتى لك شفيعى إليك.

٢٤- يا مَن يَغضبُ عَلَى مَن لا يَسأله، لا تَمْنَعْ مَن قد سَألك.

٢٥- إنْ قال لى ربى: عَبْدِى ما غَرَّكَ بى؟ قلت: إلهى؛ بِرُّك بى.

٢٦- إلهى، كيف أمتنع بالذنب مِن الدعاء؟ ولا أراك تمتنع بذنبى مِن العطاء؟؟!!

٢٧- إلهى، كيف أمتنع بالذنب مِن رجائك، ولا أراك تمتنع للذنب مِن عطائك؟!!

٢٨- إلهى، ضيعتُ بالذنب نفسى، فارددها بالعفو عنِّى.

٢٩- يا مَن ربّانى فى الطريق بنِعَـمه، وأشـار لى فى الورود إلى كَـرَمِه، مـعرفـتى بك دَليلٌ عليك، وحُبِّى لك شَفِيعى إليك.

٣٠- اللهم ارحمنى لقُدرتكَ عَلَىَّ، أو لِحاجتى إليكَ.

٣١- ذُنوبٌ مُزْدَحِمةٌ على عاقِبةٍ مُبْهَمَة، إلهى سلامة إنْ لم تكن كرامة.

٣٢- يا مَن أعطانا خَيْرَ ما فى خزائنه: الإيمان قبل السؤال، لا تمنعنا عَفْوَكَ مع السؤال.

٣٣- إلهى، إنَّ إبليس لك عَدُوٌّ، وهو لنا عَدُوٌّ، وإنك لا تَغيظُه بشىء هو أنكأُ له مِن عَفْوِكَ، فاعْفُ عنا يا أرحم الراحمين.

٣٤- إلهى، لا تَنْسَ (بمعنى لا ترد) لى دلالـتى عليك، وإشارتى بالربـوبية إليك، رفـعت إليك يَدًا بالذنوب مَـغْلولَةً، وعَيْنًا بالرجـاء مَكْحولةً، فـاقْبَلْنى لأنك مَلِكٌ لَطِيـفٌ، وارحمنى لأنى عَـبْدٌ ضَعيفٌ.

٣٥- قُرِئَ عنده قوله تعالى ﴿فقولا له قولاً ليناً﴾ فبكى وقال: هذا رِفْقُكَ بمَن يقول: أنا إلهٌ، فكيف رحمـتك بمَن يقول: أنت الإلَهُ؟؛ هذا رفـقك بمَن يُعاديك، فكيف بمن يَتـولاكَ ويُناديكَ؟؛ هذا رفقك بمن يقول أنا الرَّبُّ، فكيف بمَن يقول: أنا العبد، وأنت الرب.

٣٦- إلهى، أعْلَمُ أنه لا سَبيلَ إليكَ إلا بفضلك، ولا انقطاعَ عنك إلا بعَدْلكَ.

٣٧- اللهم إنك إنْ أحببتَنى غفرتَ سيِّئـاتى، وإن مَقَتَّنى لم تَقْبَلْ حَسناتى، ثم قال: أوَّاه أو قال قبل استحقاق قول أواه.

٣٨- إلهى وسيِّدى وأمَلِي، ومَن به يَتِمُّ عَمَلِي.

٣٩- إلهى، ما أطيبَ واقعات الإلهام منك على خطرات القلوب، وما ألَذَّ مُناجاةَ الأسرار إليك فى وطنات القلوب.

٤٠- إلهى إذا قُلْتَ لى فى القيـامة: عبدى مـا غَرَّكَ بى، أقول: سـيدى بِرُّكَ بى؛ وإنْ أدخلتَنى النار بين أعدائك لأخبرتهم بأنى كنتُ فى الدنيا أُحبُّك لأنك مَوْلاى، ومَن جميع الأشياء مَغْناى.

٤١- اللهم إنْ نَجَّيْـتَنى نجيتنى بعفْـوِكَ، وإنْ عَذَّبْتِنى عَذَّبْتَنى بِعَدْلِكَ، رضـيت ما بى لأنك ربى وأنا عَبْدُكَ.

٤٢- اللهم أنت تعلم أنى لا أقْوَى على النار، وأنا أعلم أنى لا أصْلُحُ للجنَّة، فما الحيلةُ إلا عَفْوُكَ.

٤٣- إلهى وسيدى وسـرورى، تكَرُّمُك شغلنى عن قبيح عـملى، وإنْ كان فيه شَـقائى؛ وسُرورى بنِعْمَتِكَ شغلنى عن حُسْنِ عملى، وإنْ كان فيه نَجاتى؛ وسرورى بك أنْسانى السُّرُورَ بَنفسى.

٤٤- اللهم إنى أتقَرَّبُ إليك، وبك أدُلُّ عليك، وحُـجّتى نعمُك لا عملى، ولا أظـنك تحاسبُ غدًا بعدْلك من غشيتَه اليوم بفضلك؛ وعفوُك يستغرقُ الذنوبَ، ورضوانُك يستغرقُ الآمالَ، ولولا أنك بالعفو تجودُ ما كان عبدك بالذنب يعود.

٤٥- إلهى وسـيدى ومولاى، ومن جـميع الأشـياءِ مَـغْناى، ضيـعت نفسى بالذنوب فـردَّها علىّ

بالتوبة، وأنت تعلمُ أن الكريمَ من عبادك يعفُو عمّن ظلمَه، وقد ظلمتُ نفسى، وأنت أكرمُ الأكرمين فاعْفُ عنى.

٤٦- إلهى أنت تعلمُ أن إبليسَ عدوٌ لك ولى، وليس شىءٌ أنكى لكمده من غفرانك لى، فاغفر لى يا أرحم الراحمين.

٤٧- يا من ذكرُه أعزُّ من كلِّ شىء، لا تجعلنى بين أعدائك غداً أذَلَّ من كل شىء.

٤٨- هذا سرورى بل خائفًا، فكيف سرورى بك آمنا.

٤٩- هذا سرورى بك فى المجالس، فكيف سرورى بك فى تلك المجالس.

٥٠- هذا سرورى بك فى دار الفناء، فكيف سرورى بك فى دار البقاء.

٥١- يا من أقام لى غرس ذكرى، وأجرى إلىَّ أنهارَ نجوى، وجعل لى أيامَ عيد فى اجتماع الورى، وأقام لى فيهم أسواقَ تقوى، أقبلت إليك معتمدًا عليك، ممتلئ القلب من رجائك، ورطَب اللسانِ من دعائك، فى قلبى من الذنوب زفراتٌ، ومعى عليها نَدَامات، إن أعطيتنى قبلت، وإن منعتنى رضيت، وإن تركتنى دعوت، وإن دعوتنى أجبت، فأعطنى إلهى ما أريد، فإن لم تعطنى ما أريد، فصبرنى على ما تريد.

ومن مُناجاته شعْرًا:

٥٢- إلهى لَسْتُ للفِردَوْسِ أهْلاً ... ولا أقْوَى عَلَى نارِ الجَحيمِ
فَهَبْ لى تَوْبَةً واغْفِرْ ذُنُوبِى ... فإنَّكَ غافِرُ الذَّنْبِ العَظِيمِ

وله أيضًا:

٥٣- يا لَيْتَهُ لم يَكُنْ فى اللَّوْحِ مَسْطُورا ... ذَنْبٌ عَلَى عَبْدِه قَدْ كانَ مَقْدُورا
كَيْفَ النَّجاةُ بِعَبْدٍ أنْتَ خالِقُهُ ... ماذا تُرِيدُ بِهِ يا رَبُّ مَفْطُورا
يا وَيْحَهُ يَوْمَ يُسْتَدْعَى صَحائِفُه ... إليكَ مِن خَمْدَةِ الأمواتِ مَنْشُورا

٥٤- إذا كانَ داءُ المَرْءِ حُبَّ مَلِيكِه ... فمَنْ غَيْرِه يَرْجُو طَبِيبًا مُداوِيا

٥٥- رَضِيتُ بسَيِّدِى عِوَضًا وأُنْسًا ... مِن الأشْياءِ لا أبغِى سِواهُ
فَيا شَوْقًا إلى مَلِكٍ يَرانى ... عَلى ما كُنتُ فِيهِ ولا أراهُ
خَلا يَسْتَمْطِرُ النَّجْمَ العَطايا ... فيُعْطَى مِنْه أكْثَرَ ما رَجاهُ

٥٦- تَبارَكَ ذُو الجَلالِ وذُو المحَالِ ... عَزِيزُ الشّانِ مَحْمُودُ الفِعالِ

سُـــرورِى بالسُّـــؤال لكَىْ أَراهُ فـكـيـف أُسَـــــــرُّ منه بـالـنَّـوالِ
فــيـــاذا العِـــزِّ يـا ذا الَجُــودِ جُــدْلِى وغَــيِّــر مـا تَرَى مِن سُــوءِ حـالِى

٥٧- أَشْـكُوا إلَـيْـكَ ذُنـوبًا لَـسْـتُ أُنـكُرهـا وقَـدْ رَجَـوتُكَ يا ذا الَمـنِّ تَغْـفِـرهُا
من قـبل سؤلك لى فـى الحشـر يا أملى يوم الجـزاء عـلى الأهوال تـذكـرها
أرجـوك تغـفـرها فى الحشـر يا أملى إذ كنت سؤلى، كما فى الأرض تسترها

٥٨- أنـــا إنْ تُـبْـــتُ مَـنَّـانِــى وإنْ أَذْنَـبْـتُ رَجَّـــانِــى
وإنْ أَدْبَـــرْتُ نـــادانـــىِ وإنْ أَقْـــبلـتُ أَدْنـانـى
وإنْ أَجـــبـبـتُ والانـى وإنْ أَخـلـصـتُ نـاجـانـى
وإن قَـصَّـرْتُ عـافـانـى وإنْ أحـسـنتُ جـازانـى
حَـبـيـبى أَنـتَ رَحْـمـانِى فـصَـرِّفْ عَنِّى أَحْـزانى
إلـيـكَ الـشَّـوْقُ مِـن قـلـبِى عـلـى سِـرِّى واعْـلانى
فـيـا أكْـرمَ مَـن يُرْجَـى ويـا قـديم إحْـسـانى
مـا كـنـت عـلـى هـذا إلـه الَـنـاسِ تـنـسـانـى
لدى الـدنيـا وفـى العُـقْـبَى عـلى مـا كـان مِـن شـانـى

٥٩- إلهى قد أنزلت إلينا رحمة واحدة، وأكرمتنا بتلك الرحمة وهى الإسلام؛ فإذا أنزلت علينا. مائة رحمة فكيف لا نرجو مغفرتك.

٦٠- إلهى إن كان ثوابك للمطيعين، ورحمتك للمذنبين، فإنى وإن كنت لست مطيعًا، لا أرجو ثوابك، فأنا من المذنبين فأرجو رحمتك.

٦١- إلهى خلقت الجنة وجعلتها وليمة لأوليائك، وآيست الكفار منها، وخلقت ملائكتك غير محتاجين إليها، وأنت مستغن عنها، فإن لم تعطنا الجنة، فلمْن تكون الجنة.

***

خاتمــة

حكم شيخنا - يحيى بن معاذ الرازى - رحمه الله تعـالى - كثيرة ومنتشرة فى صفحات الكتب، وقد وقفت على بعضها فى كتاب سراج الطالبين وكتاب علم القلوب، والكتاب الذى بين يديك.. أخي المسلم ماثل للطبع.. وهذه الحكم لا تعـدو فى كثير من معـانيها ما سبق وجمعناه.. ومع هذا ذيّلنا بها هذا الكتاب للأمانة العلميـة حتى تتم الفائدة ويرجى النفع إن شاء الله تعالى.. وإليك هذه الحكم.

٣٦٤- سئل شيخنا يحيى بن معاذ الرازى رحـمه الله تعالى عن معنى الحديث الشريف «إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه».

قال: كريم القوم تقيهم، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] على موافقة كـتاب الله ما تناولت من أحاديث رسول الله ﷺ، فـإن الفاسق لا يكون كريمًا على الله وعلى رسوله [علم القلوب: ٢٤٦].

• روى مسـلم وأبو داود عن السيـدة عائشـة - رضى الله تعالى عنهـا - عن النبى ﷺ: «أنزلوا الناس منازلهم» وقال المناوى: أى احـفظوا حرمة كل أحد على قدره فـى دنيا ودين وعلم وشرف، فلا تسوّوا بين الخادم والمخدوم، والرئيس والمرؤوس، فإنه يورث عداوة وحقداً فى النفوس.

* * *

٣٦٥- الدنيا حانوت الشيطان، فـلا تسرق من حانوته شيئاً، فيجئ فى طلـبه فيأخذك. [رواه عنه ابن أبى الدنيا].

• ويحكى عن أحد الصالحين قال: تمثلت لى الدنيا جيفة، ورأيت إبليس فى صورة كلب، وهو جاثم عليهـا، ومناد ينادى: أنت كلب من كلابى، وهذه الجيفة جـعلتها نصيبك، فمن نازعك شـيئاً منها فقد سلطتك عليه.

* * *

٣٦٦- وقال فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] قال: لقـد كدت تركن إلى علوم الـعقل فتـهلك وتضمـحل، فذلك حين خـاطبه وفـد ثقيف فقالوا: متـعنا باللات والعزى سنة من غير أن نعبـدها، فسكت النبى ﷺ عن جوابهم، بلا طمع فى إسلامهم، ولا خوف من ارتدادهم.. فكرروا القول على النبى ﷺ ونزلت الآية وهم جلوس.

وقال الصاوى: امتنع قربك من الركون لوجود تثبيتنا إياك، وإذا امتنع القرب من الركون، فامتناع الركون أولى.. لأن جواب لولا هو المقاربة، ولأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، والمقاربة من فعل القبيح لا عذاب عليها عموماً، والكاملون يشدد عليهم على قدر مقامهم. قال العارف:

وإذا منحت القرب فاعرف قدره إن السخى لمن يحب شحيح

* * *

٣٦٧- مثل الحكيم مع قلبه مثل البستانى مع بستانه؛ فى قلب العارف عشرة بساتين: بستان التوحيد، وبستان اليقين، وبستان المعرفة، وبستان المحبة، وبستان العلم، وبستان الحلم، وبستان السبيل والسنة، وبستان التواضع والخشوع، وبستان الحلال، وبستان السخاوة والبذل. ويجب أن يدخل كل صباح تلك البساتين، ويخرج ويقلع مالا يصلح فيها. فيدخل بستان التوحيد، فإذا رأى فيه شكًا أو شركا ونفاقاً ورياءً، قلع ذلك ورمى به. ثم يدخل بستان اليقين، فإذا رأى فيه حرصًا وأملاً وشينًا وحقدًا ورغبة، قلع ذلك ورمى به. ثم يدخل بستان المعرفة، فإذا رأى فيه تشبيها وتمثيلاً أو تعطيلاً. قلع ذلك ورمى به. ثم يدخل بستان المحبة فإذا رأى فيه اشتغالاً بالأغيار، أو حلاوة الخلق والديار، قلع ذلك فرمى به. ثم يدخل بستان العلم، فإذا رأى فيه جهلاً وحمقًا، قلع ذلك فرمى به. ثم يدخل بستان الحلم، فإذا رأى فيه غضبًا أو حَمِيّة أو تعززاً أو خيانة أو عجزًا، قلع ذلك فرمى به. ثم يدخل بستان السنة، فإذا رأى فيه بدعة أو محدثة أو زيغًا أو هوى، قلع ذلك فرمى به، ثم يدخل بستان الخلاف، فإذا رأى فيه حراماً أو شبهة قلع ذلك ورمى به. ثم يدخل بستان البذل والسخاء، فإذا رأى فيه بخلاً أو منعاً أو طمعًا قلع ذلك ورمى به».

• ما ينمو من نباتات طفيلية وسط المزارع والبساتين تضر بالمزروعات فتنقل إليها الآفات وتشاركها الغذاء والأسمدة الموجودة فى التربة، ولذا نرى الفلاحين يقلعونها ويرمون بها بعيداً، وهكذا يكون حال المسلم الصالح الموفق يراقب قلبه فى كل حال ويخلصه من كل شائبة.

* * *

٣٦٨- «لقنهم بأنه ربهم حتى قالوا: بلى» .

* * *

٣٦٩- فى الكلام على أخذ الميثاق فى عالم الذرّ... قال يحيى أيضًا بخصوصه: لما أخرج الله الذر من صلب آدم، أوقفهم فى الهواء، وخاطبهم مخاطبة من يعقل ويرى مخاطبة الأرواح بأفهام حاضرة وأسماع سامعة، وأبصار نظارة إلى لطيف لطائف القدرة، فسمعوا خطاب الحق، ونظروا إلى عظمة الحق، ورأوا الجنة والنار، وفهموا العهد والميثاق، فأقروا بالتوحيد للواحد، وبالطاعة للمعبود الصادق، فربما وقع على العبد الحزن وهو لا يدرى وجهه، وذلك لتذكير الروح بما أخذ

عليه من العهد والميثاق في الذر، فحزنه يكون للتقصير، وربما بكى وهو لا يعرف وجه بكائه، وذلك يكون بذكره رؤية النار في الذر، فبكاؤه لذلك؛ وربما نظر إلى شيء مستحسن من الحيوانات، والمياه والخضرة فيستفزه الفرح، وذلك لما ذكر من رؤية الجنة يوم الذر، وربما نظر إلى عبد أودع الله فيه الإيمان، وزينه بزينة الإيقان، فركبه التعظيم والهيبة، وذلك ذكر روحه كما تقدم له من النظر إلى عظمة الرب يوم الذر، وربما سمع النغمة الطيبة ويستحليها ويستلذ بها، وذلك ذكر روحه لما كان يوم الذر من خطاب الحق له في الذر.

***

٣٧٠- «حكمة الجسم في ترك نعيم الدنيا، وحكمة الروح في ترك نعيم العقبى، وحكمة العقل في احتمال أسرار الأولياء، فالأولى للزاهدين، والثانية للصادقين، والثالثة للعارفين».

***

٣٧١- الدنيا بلغ من شؤمها أن تمنيك لها يلهيك عن طاعة ربك.. فكيف الوقوع فيها؟!

***

٣٧٢- ليس بزاهد من استخدم غيره فيما يصل هو إلى فعله.

***

٣٧٣- قيل ليحيى بن معاذ: أيصل العبد إلى درجة يسلم فيها من الذنب ومن الزهد إلى درجة يستغني فيها عن الدنيا.

فقال: هذا لا يكون، لا يستغني عن الدنيا أحد، وإنما وقع التفاضل بين الناس على القليل والكثير، فأزهدهم فيها أقلهم حظًا منها، كما لم يسلم من الدنيا أحد، ولكن أفضلهم أقلهم ذنبًا.

***

٣٧٤- وكان رحمه الله يقول في العدل قولاً فصلاً، قال:

إن زهادكم يأمرونكم بأن يكون الدرهم أول شيء تتركونه من الدنيا، وأنا آمركم أن يكون الدرهم آخر شيء تتركونه منها.

قيل له: لِمَ ذلك؟

قال: لأن الدرهم معلق على شهوة النفس، والشهوة معلقة على النفس، فترك الدرهم من قبل إزالة الشهوة عن النفس بالسياسة خطأ، ودخول في الطمع لمن عنده الدرهم ووقوع البلاء حتى إذا زالت بحسن السياسة هذه الشهوة عن نفسك، ذهب عنك حب الدرهم شئت أم أبيت ضرورة، إذ كانت علة حبك له الشهوة، والشهوة قد ذهبت، وبالدرهم يتم أمر هذه السياسة، فلهذا قلت: اجعل الدرهم آخر شيء تتركه بعد الفراغ من النفس، واعلم أن إمساك الدرهم على هذا التدبير لا يكون علاقة، ولكنه يكون سياسة يصلح به.

***

٣٧٥- راحة الأبدان فى زهد القلوب، ومشقة الأبدان فى حرص القلوب.

❊ ❊ ❊

٣٧٦- طلبت الدنيا فلم استرح، وطلبت العبادة والعلم فلم استرح، ودخلت فى الزهد، واستوطنت الثقة بالله فاسترحت.

❊ ❊ ❊

٣٧٧- مادامت شهوة النفس معك فأنت مطية الدنيا، وتساق المطية حيث يريد صاحبها، لا حيث تريد هى.

❊ ❊ ❊

٣٧٨- أولياء الآخرة ثلاثة: قانع، وزاهد، وصديق. فالقانع المحترف الطالب للحلال، المنفق على السبيل والسنة النازل عن جناح الرغبة فى طلب الفضول من حطام الدنيا. والزاهد التارك للطلب ومعه شهوته، فإن أصاب نعيم الدنيا من غير كلفة، أكل ونكح، وإن مُنع صبر ورضى. والصديق هو واجد النعيم لا يريده لمزايلة الشهوة إياه.

❊ ❊ ❊

٣٧٩- وكان يحيى بن معاذ يدخل العلم والعبادة فى الزهد، يجعل الثلاثة كالشىء الواحد، لا يتم بعضه إلا ببعض، فقال: الزهد والعبادة والعلم مثل الثوب: سداه (ما يمتد طولاً من خيوط القماش) الزهد، ولحمته (الخيوط التى تمتد بعرض القماش) العبادة، ونسّاجه العلم، ولا يلتحم الثوب بغير هذه الثلاث، كذا لا يلتحم أمر الآخرة إلا بثلاثتها.

❊ ❊ ❊

٣٨٠- كان يحيى بن معاذ يقول: إذا وصل فرح واتصل

فقيل له: نراك بين الوصول والاتصال، فتجعل الاتصال أعلى وأقرب،

فقال: أضرب لكم مثل رجل سار طريقًا وقصد ملكاً كريماً، ثم وصل إليه حتى إذا قدم عليه فقد وصل، ثم يتصل بمنادمة الملك شيئاً بعد شىء، يتقرب إليه ويقرب منه حتى يدنيه الملك ويؤنسه، فالسير والتعب لقطع المنازل، والفرح فى الوصول، والأنس فى الاتصال.

❊ ❊ ❊

وفى الختام: أحمد الله الكريم الفتاح أن هدانى إلى فكرة هذا الكتاب. ويسّر لى جمع حكم وكلمات شيخنا يحيى بن معاذ، مع ما أفاضه من فهم لكلماته، وما أعان به فى الشرح والتعليق عليها.. واستعيذه جل وعلا من دعاء لا يسمع، وعلم لا ينفع، وعمل لا يرفع. إنه سميع مجيب. وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه و سلم.

❊ ❊ ❊

ثبت بأهم المصادر التى استقينا منها حكم وعظات يحيى بن معاذ رحمه الله

* حلية الأولياء - أبو نُعَيْم - مطبعة السعادة.
* صفة الصفوة - ابن الجوزى - الوعى بحلب
* الزهد الكبير - البيهقى - دار العلم بالكويت.
* سير أعلام النبلاء - الحافظ الذهبى - بيروت
* تاريخ الإسلام - الحافظ الذهبى - دار الكتاب العربى
* تاريخ بغداد - الخطيب البغدادى .
* الطبقات الكبرى - الشعرانى - مكتبة الآداب
* الكواكب الدرية فى طبقات الصوفية - المُناوى - القاهرة سنة ١٩٣٨
* طبقات الأولياء - ابن الملقن - دار المعرفة - بيروت
* طبقات الصوفية - السلمى - اختصار د. الشرباصى - القاهرة.
* اللُّمَع - الطوسى - ت د. عبدالحليم محمود - المكتبة الإسلامية بالقاهرة.
* التعرف لمذهب أهل التصوف - الكلاباذى - الخانجى - القاهرة
* المختار من كلام الأخيار - المالكى الحسنى - مطبعة السعادة بالقاهرة.
* كشف المحجوب - الهجويرى - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
* وفيات الأعيان - ابن خلكان - دار الثقافة بيروت.
* الرسالة - القشيرى - مكتبة صبيح بالقاهرة
* شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - العماد الحنبلى - دار الفكر بيروت.
* الأعلام - الزركلى - بيروت.
* المنتظم - ابن الجوزى - دار الكتب العلمية - بيروت.
* إحياء علوم الدين - الإمام الغزالى - المكتبة التجارية بمصر.
* علم القلوب - الإمام الغزالى - القاهرة.
* سراج الطالبين على منهاج العابدين - دحلان - الحلبى - القاهرة.
* قوت القلوب - أبو طالب المكى.
* جمهرة الأولياء وأعلام التصوف - أبو الفيض المنوفى
* نشر المحاسن الغالية - اليافعى - الحلبى

* * *

فهرس بأسماء الرجال (*)

«قال الإمام على رضى الله عنه: يعرف الرجال بالحق، ولا يعرف الحق بالرجال»

[الألف]

[البـاء]

[التـاء]

(*) اقتصرنا على ذكر من كان لهم مواقف أو كلمات باقية جاء ذكرها فى الكتاب كما أثبتنا تاريخ الوفاة لمن سبقونا بالإيمان، كذلك أرقام الحكم أمام الأسماء وليست أرقام الصفحات. .

[الثـاء]

[الجيـم]

[الحـاء]

[الخاء]

[الدال]

[الذال]

[الراء]

[الزاى]

[السين]

[الشين]

[الصاد]

[الضاد]

....

[الطاء]

[الظـــاء]

....

[العـين]

***

الفهـــرس

رقم الإيداع ٢٠٠٢/٨٥٠٧ الترقيم الدولى 8 - 422 - 241 - 977 - I . S .B . N